الطبعة 2

رواية

أثر المخلدين

"مملكة بعيدة"

عبد الرحمن جاويش





عبد الرحمن جاويش



مقدمة: كارثة كَوْنية

الحدود الفرنسية - السويسرية - ٢٠٢٥

كانت هذه اللحظة هي الأهم والأغرب، في مسيرة الباحث «يوهان هانز»..

ارتجفت أصابع «هانز»، وهو يصب لنفسه جرعة مُضاعفَة من مشروب «الإسبريسو» المُفضَل لديه، كان الفنجان المستقر بين يديه ككل شيء حوله: مرسوم عليه شعار منظمة «CERN».. وهي اختصار لـ«المؤسسة الأوروبية للأبحاث النووية».

ظل «هانز» يتحرك في الغرفة بعصبية، لم يعرف إن كان قد توصل لاكتشاف علمي، أم لكارثة قد تودي بحياة الملايين من البشر.. وقف «هانز» أمام مكيف الهواء الذي ارتفع صريره، كأنما يشعر بالخوف داخل «هانز»، ولكن حتى برودة التكييف لم تنجح في خفض حرارة جسمه، ولا حتى تجفيف العرق الذي انساب من مسامه.

كان «هانز» يتوق لنسمة هواء طبيعية واحدة، لكن كيف وهو الآن على مسافة مئتي متر تحت الأرض.. جلس محاولاً استجماع ما حدث وفهمه، أخرج هاتفه المحمول وبدأ يسجل لنفسه تسجيلاً صوتيًا، يخلي فيه مسؤوليته عما حدث، في حال إذا ما ساءت الأمور.. ضغط «يوهان هانز» على زر التسجيل الأحمر، وبدأ يتحدث بصوت مرتجف:

- منذ أن تأسست منظمة CERN للأبحاث النووية، سنة ١٩٥٤ ميلاديًا، وليس لديها سوى هدف واحد فقط: تكسير الكون.

عملت CERN على إطلاق الجسيمات والذرات ناحية بعضها بسرعات تقارب سرعة الضوء، وطاقة تفوق طاقة الانشطار النووي، وذلك لكسر الذرات ومعرفة مكونات الكون واكتشاف مادة جديدة، حين تشرح الأمر لشخص غير مختص يبدو الأمر سهلًا، لكنه ليس كذلك على الإطلاق.

ارتشف «هانز» رشفة طويلة من الإسبريسو الذي كان قد برد، وأكمل حديثه لجهاز التسجيل قائلًا:

- المادة الغريبة، بالطبع قد سمعتم هذا المصطلح من قبل.. هي المادة التي تحدث عنها عالم الفيزياء النظرية «إيدوارد ويتين»، واقترح أنها المرشح الأساسي لكونها المادة المظلمة، والمسؤولة عن الجاذبية في الكون.

وهذا - من الناحية النظرية- يعني إمكانية ترويض قوى الجاذبية لصالحنا، وتوليد ثقوب سوداء صناعية، أو خلق مفاعلات نووية أكثر كفاءة من الممكن أن تدمر دولة كاملة في غمضة عين، أو حتى السفر بين المجرات، أو اختراق حواجز الزمن التي طالما حلم العلماء باختراقها.. كانت المنافع من توليد المادة المظلمة لا حصر لها، ولكن المشكلة الحقيقية تكمن في كم الطاقة اللازم لتوليد المادة المظلمة، ومنذ هذه اللحظة، وهدف المؤسسة الوحيد هو خلق هذه المادة.

ومنذ ذلك الحين انتشرت الأبحاث عن احتمالية تدمير هذه المادة لكوكب الأرض بأكمله، فهي تشبه أسطورة الملك ميداس الذي كلما لمس شيئًا تحول ذهبًا.. فالمادة الغريبة كلما لامست مادة «باريوينة» (وهي

المادة العادية التي نتعامل معها في حياتنا) حوّلتها إلى مادة غريبة بدورها..

وتستمر هذه العملية حتى يتحول الكوكب بأكمله لمادة غريبة مكونة ثقبًا أسود بحجم نيزك صغير.. ولكن وقتها لم يهتم أحد من المسؤولين، وأكدوا أن احتمالية حدوث ذلك تكاد تكون معدومة، واطمئن العامة لما قالته السلطات، واستمر تطوير المفاعلات المسؤولة عن توليد المادة المظلمة عامًا بعد عام، حتى وصلنا إلى اليوم.

ومن قلب منظمة CERN أُعلن أنني الباحث «يوهان هاينز»، أول من حضر عملية توليد مادة غريبة بواسطة البشر.. وأخلي مسؤوليتي الشخصية عن أي دمار محتمل حدوثه.

اقتحم المكتب على «هانز» مديره المباشر، العالم الشهير «أندرو سيباستيان».. أشار له بهدوء حتى يوقف التسجيل، انتزع الهاتف من يد «هانز»، وقام بمسح التسجيل دون أي نقاش، لم يعترض «هانز» أو يحاول تبرير ما كان يفعله.. سأل «أندرو سيباستيان» هانز بصوت منخفض:

- هل تأكدت من النتائج؟ أليس من المُمكن أن يكون خطأ من أحد المستشعرات؟

رد «هانز»، وهو يمسح بيده على خصلات شعره الأشقر:

- صحيح أنني أصغر علماء CERN، لكنني لست بهذه السذاجة لاستدعيك في هذه الساعة المتأخرة بسبب خطأ المستشعرات.. لقد تحققت، أنها نتيجة حقيقية، لقد خلقنا مادة غريبة!

توقع هانز أن يرى ملامح الفزع على وجه مديره المباشر، فما حدث هو كارثة كونية بكل المقاييس، لكن العالم «أندرو سيباستيان» قال بلهجة رسمية:

- هذا عظيم، احتويها في مجال كهرومغناطيسي وحضر عينة للاختبار.

رد «هانز» في فزع:

- لكن سيدي، هذا قد يقود لدمار الكوكب بأكمله! يجب أن نفعل بروتوكول التدمير حالًا!

قال «سيباستيان» هامسًا:

- كان هذا قديمًا، عندما كان العلماء هم من يديرون كل شيء، الآن نحن في عصر الجنرالات، والجنرال «بينجامين» كان واضحًا في تعليماته: توليد المادة المظلمة، ثم احتوائها ثم اختبارها.

أردف «سيباستيان» مطمئنًا تلميذه النجيب:

- يمكن تفعيل بروتوكول التدمير، إن خرجت الأمور عن السيطرة.

كانت التعليمات صارمة، ومن يخالف الأوامر في CERN في هذه الفترة لا يصعد لسطح الأرض مرة أخرى، كما أن «أندرو سيباستيان»، كانت لديه كاريزما لا تُقَاوم، فاستسلم «هانز» للأوامر وبدأ في محاولة احتواء المادة، دارت المولدات العملاقة لتنشئ مجالًا كهرومغناطيسيًا ضخمًا، ولكن فجأة سمع «هانز» ومديره صوت صفارات تحذير تصدر من الأجهزة!

يكاد «هانز» يقسم أنه سمع ضربات قلب مديره «أندرو سيباستيان» وهي تخفق، انهار سيباستيان في مكانه وهو لا يصدق ما يحدث، أخرج هانز هاتفه وقام بتسجيل جملة واحدة فقط:

- فات الأوان، أول جُسيمات المادة الغريبة قد تكونت داخل المفاعل وتسربت خارجه، وإن زادت - وهو الاحتمال الأكيد - فسيكون لديها قدرة تدميرية عالية، وهي الآن حرة في الكوكب، وقد تكون في أي مكان على الأرض.

١-الغريب

لم يفهم ياسين سببًا لإقامة الامتحانات في يوليو..

نهض.. فيتثاقل حين سمع أذان الفجر بعد أن ظل مستيقظًا ليومين كاملين، جفف عرقه في ردائه المتسخ، لم يكن من هواة فتح النوافذ، لذلك كانت رائحة العطن في كل مكان، لم يحبها يومًا، لكن أنفه اعتادت عليها لدرجة أنه توحد معها واعتبرها شيئًا عاديًا جدًا.

ألقى جسده في حوض الاستحمام الذي ملأه في وقت سابق.. راح يتذكر كل ما مر به من أحداث خلال اليومين السابقين، كان قد انتهى من مذاكرة المادة كاملةً، وظل يجيب عن أسئلة زملائه من دفعته، هو لا يحب أحدًا فيهم، ولا يحترم معظمهم، لكنه يريد منهم أن يحبوه، أو حتى يذكروه، لا يريد أن يظل مجرد الشاب «الدحيح» أو «النيرد»، كما يقولون عن غيره.. كان يبحث عن الحب الذي لا يظن أنه قد صادفه قبل ذلك.

أما «حسن الهواري»، فلم يكن هكذا أبدًا، تذكر ياسين طفولته حين كان حسن مراهقًا، فهو واحد من جيل الثورة الذين آمنوا بالحلم والتغيير، فقد اثنين من أصحابه أثناء أحداث يناير ٢٠١١، كان ينزل الشارع رغمًا عن رغبة والده، وقد تم القبض عليه أثناء إحدى التظاهرات اللاحقة لتنحي مبارك، لكن اسم والده كان كفيلًا بخروجه دون حضور الأب.

لم يحتج الأب لتعنيف حسن، فقد أدرك أن الشاب - حينها - قد تعلم الدرس جيدًا، ومع الوقت ثبت صحة ظنه.. فتحوّل حسن من روح مشرقة تحلم بالتغيير لمسخ لا يسعى إلى لحياة راكدة كأبيه.

أخرج ياسين رأسه من الماء ليستنشق بعض الهواء، ثم أعاد رأسه كاملًا داخل المياه، تذكر صراعه مع والده منذ الطفولة، الذي أرجعه ياسين لعجز أبيه على أن يصير أبًا؛ فياسين دائمًا ما يمنع والده عن ممارسة سلطته الأبوية، فقد كان متفوقًا في الدراسة، يواظب على صلواته، يحرص على القراءة وممارسة رياضة الجري بشكل مستمر.. حتى في الثانوية العامة كان من أوائل الجمهورية.. لذلك لم يجد الوالد ما ينصح به، لم يعرف أي خبرة يشاركها مع ولده، أو أي سلطة يمارسها عليه، وهو الأفضل في كل شيء تقريبًا.

يدرك ياسين، أن القصة من وجهة نظر والده مختلفة، فهو يراه ابنًا سليط اللسان، لا يقبل النصح ويفعل ما يريده، حتى وإن كان صحيحًا في أغلب الأوقات.. لكن النتيجة واحدة، فالعميد عادل الهواري لا يقبل أي تصرف من ولده، ويفضل عليه أخاه الأكبر «حسن»، على الرغم من فشله الدراسي، وتجارته الفاشلة في الملابس، والتي بدأها بنقود والده.. وكذلك زواجه من امرأة متسلطة، ويسكنها مع أسرته في البيت نفسه، وكذلك على الرغم من استغلال «حسن» لسُلطة والده، وتورطه في محضر تعاطي مخدرات، حتى أنقذه الأب بمعجزة.

سمع ياسين صوت منبه الهاتف الخاص بوالده، كان صوته عاليًا يوقظ البيت كله تقريبًا، على الرغم من كون البيت أقرب لفيلا واسعة محاطة بالأشجار في شارع ٩ بالمعادي.

نهض ياسين مسرعًا، كان يعلم أن أمامه خمس عشرة دقيقة، حتى يستيقظ والده مع الرنة الثالثة للمنبه، جفف نفسه على عجل، نظر في المرآة: ليجد شابًا ذا جسدٍ نحيل وشعر طويل مموج متناثر في عدم ترتيب، لم يحب تصفيف شعره ولا قصه، أحب ياسين نظرته الذكية التي تُجبر الجميع على احترام عقله وعدم الكذب عليه، لكنه كره في شكره غياب لحيته عن وجهه، مما يبرز عظام وجنتيه، ويجعل ملامحه أصغر من سنه التي تجاوزت الثلاثة والعشرين.

قام ياسين بتجفيف وجهه مرة أخرى بالمنشفة، لم يكن يعرف هل يجفف عرقه أم يجفف ماء الاستحمام، تحرك في صالة منزله البسيط بخطوات هادئة، كان يُخطط للاستقلال عن هذا البيت فور تعيينه معيدًا في الكلية، أي بعد شهرين من الآن، صحيح أن الراتب لن يكون كافيًا لما يحلم به، لكنه سيكفي إيجار شقة على الأقل.. دخل الغرفة في هدوء، ومن النظرة الأولى أدرك أن هناك من دخل الغرفة في غيابه وفتش فيها جيدًا.. تناول هاتفه وفتح تطبيق الواتس آب، وخاصة المحادثة الجماعية المسماة بـ«بيت العز يا بيتنا».. والتي تحمل صورة والدته المتوفاة منذ سنوات.. وتجمع «ياسين» بوالده وأخيه حسن وزوجة أخيه، ترك «ياسين» لهم رسالة صوتية يقول فيها:

«واضح إن فيكم حد نشيط صحي بدري عشان يفتش في أوضتي، لو بابا فمتخافش يا سيادة العميد لسه مشربتش سجاير، ولو شربت هقولك، وريحة التبغ دي لو مشيت وراها هتلاقيها طالعة من «حسن».. ولو حسن اللي دخل، فمتخافش أنا بقيت بعرف أخبي الفلوس كويس، فلو عايز فلوس هتلاقيها مع بابا.. من الآخر طلعوني برة الحسبة هتلاقوا اللي بتدوروا عليه مع بعض.»

كان ظهر ياسين يؤلمه كالمعتاد بسبب طيلة فترات جلوسه، تناول بعضًا من مُسَكن «كاتافاست»، ثم فتح المقطع الموسيقي المُفَضَل لديه، كان عبارة عن مقطوعة للموسيقار Yanni، تدعى The rain must fall.. سخر في سره من اسم المقطوعة ومدى ملائمتها لحالة الجو الحار، بدأ يتمايل بشكل ساذج على اللحن، ثم التقط «تي شيرت» فضفاضًا أبيض اللون وارتداه سريعًا على بنطلون جينز وحذاء رياضي مريح للقدمين.

كان احتمال احتكاكه بوالده لا يزال قائمًا، ويحاول الهروب منه قدر الإمكان.. تأكد من أخذ حافظته التي طالما ينساها، وأخرج أمواله من وسط أحد كتبه المتراصة بعناية في مكتبته الضخمة، التي التهمت أكثر من نصف مساحة غرفته، فتح الحافظة؛ ليتأكد من وجود بطاقته الشخصية، نظر إليها ساخرًا من صورته فيها، والتي تظهره كأسير حرب أو مسجون في جريمة قتل.. نظر في البطاقة وعلق على محتواها ساخرًا:

ياسين عادل محمود الهواري، طالب في كلية العلوم جامعة عين شمس.

توقفت موسيقى Yanni بسبب رنين هاتف ياسين، كان المتصل هو صديقه الوحيد وزميله في الدراسة «خيري زاهر»، رد ياسين في ملل:

- يا خيري والله بلبس، صدعتني من الصبح.

رد خيري في قلق:

- أنا مذاكرتش ومعتمد عليك يا ابني!

قال ياسين وهو يضع مفاتيح البيت في جيبه:

- هتقفّل المادة متقلقش.. أنا بس مستغرب الصدفة اللي تخليك معايا في نفس اللجنة.

سمع ياسين صوت محرك سيارة خيري وهو يدور، وقال خيري في عدم فهم:

- أنا كنت بحاول أنقل أي حاجة من خالد، راح المعيد حبيبك ده خدني ونقلني اللجنة بتاعتك أنت بالذات.

قال ياسين وهو يغلق باب البيت ويتحرك على عشب الحديقة المهملة منذ زمن:

- المعيد حبيبي؟ قصدك بهاء؟

أجاب خيري بأنه هو، فتعجب ياسين من تصرف بهاء، فعلاقتهما سيئة منذ زمن، وبهاء يخشى ياسين؛ لأنه يعدل عليه في مادته، وكذلك يظن بهاء أن ياسين حين يتم تعيينه معيدًا السنة المقبلة سيسحب منه اهتمام الطلاب ودكتور المادة.. تجاوز ياسين قلقه من تصرف المعيد، وقال لخيري:

- يعني عم بهاء سلطان ده حرمني من القعدة جنب يارا عشان يبتليني بوش أهلك؟

أطلق خيري صوتًا اعتراضيًا من أنفه وقال لياسين:

- ماله وش أهلي؟ بعدين تبيع صاحبك عشان يارا لانشون؟

ضحك ياسين، وهو يشير لسيارة أجرة ويخبره بالتوجه لجامعة عين شمس:

- هي اسمها يارا لانشون؟

رد خيري بتلقائية:

- أيوة، عشان متاحة في أي وقت ومش معروف لها مصدر.

ضحك ياسين وطمأن خيري على أنه سيبدل ورقتي الإجابة في الوقت الذي اتفقا عليه، وأنه يستطيع أن يُنهي الامتحان ثلاث مرات خلال الوقت المحدد، فهو «عبقري الدفعة»، الذي يشيد به الجميع.

تذكر ياسين خطته مع خيري، التي تعتمد على تبديل الورقة تحت رقابة المعيد بهاء الذي يبغض ياسين، فسأله مستدركًا:

- صحيح يا خيري، اشتريت المسدس؟

كانت مسيرة ياسين الهواري من باب لجنة الامتحان حتى بوابات الجامعة أشبه بنجم هوليوود على السجادة الحمراء، يلاحقه بعض الطلاب لمراجعة الإجابات معه، ويلتف حوله البعض شاكرين له جهوده في تلخيص المواد ونقل المحاضرات لهم، كان يعلم أنه سيشتاق إلى هذا الشعور بالأهمية، فهذا آخر امتحان له في حياته التعليمية، وقد ضمن مكانه كمعيد في كلية العلوم قسم الفيزياء النظرية.. فهو الأول على دفعته بفارق شاسع عمن يليه.

لم يفهم أحد الطلاب سبب صوت الطلقات النارية، الذي سمعوه أثناء الامتحان، لكن وحده خيري وياسين كانا يعرفان السر.. اقتحم خيري زحام الطلاب حول ياسين وقال مقلدًا صوت فتاة بشكل مبتذل وهو يحتضن صديقه:

- دكتور ياسين أنا بحبك أوي أوي أوي.

كان خيري من أكثر الشباب جاذبية في الدفعة، بخفة ظله، وجسده المفتول الذي وُلِدَ به، ولم يجتهد لتكوينه بهذه الهيئة، وكذلك لثروته؛ فهو ابن الحاج «عباس زاهر» واحد من أكبر تجار السيراميك في مصر.

مال ياسين على أذن خيري وقال هامسًا:

- ماتنساش تحاسب عم مرعي الساعي، وخد منه المسدس أحسن ده غبي وممكن يكشفنا.

جذب خيري صديقه ياسين من ذراعه وحدثه على جنب من ردهة الكلية قائلًا:

- رايح له دلوقتي، المهم إن محدش خد باله إن الصوت والقلق ده كله اتعملوا عشان نبدل الورق.

نهره ياسين وهو يقترب من سلالم الطابق الثالث:

- خلاص بقى متسيحش، المهم جهّز لي قعدة بالليل.

قال خيري ضاحكًا:

- مش ناوي تجرب بقى؟ هتفضل تتفرج علينا وخلاص؟

رد ياسين:

- أنا متعتي أتفرج عليكم وأنتوا بتصطبحوا، أبعد من كده مش هخطّي.

كاد خيري أن يرد لكن قاطعهما صوت المعيد «بهاء رمزي»، الذي لا يخفي كرهه لياسين على أحد:

- باشمهندس ياسين.. عايزك!

شعر ياسين بأن هناك كارثة حقيقية، فتبع بهاء في صمت نحو مكتب المعيدين الذي كان ياسين ينتظر بضعة شهور لينضم إليهم..

جلس بهاء على مكتبه وقال لياسين وهو يفتح حاسبه المحمول:

- أنت عارف إيه الفرق بيني وبينك يا ياسين؟

رد ياسين بتلقائية:

- حوالي ٣٠٪ IQ.

ابتسم بهاء في انتصار وقال وهو يدير الحاسب المحمول ليشاهد ياسين ما على شاشته:

- واضح إن ذكاءك خانك المرة دي، تفتكر إنها صدفة إني أنقل صاحبك الوحيد في الكلية جنبك في اللجنة؟ أنا كنت عارف إنك هتحاول تلهينا كلنا عشان تغششه.

بدأت نبضات ياسين في الارتفاع، وقد حاول أن يداري خوفه بالتعليق ساخرًا:

- كويس إنك عارف إني كده كده هغفلك.

رد بهاء مبتسمًا:

- وده بيرجعنا لأول سؤال: الفرق بيني وبينك.. أنت أذكى مني، بس ناقص.. ناقص حب، وناقص صداقة، وناقص اهتمام، ناقص تحس إنك مهم في أي مكان بتكون فيه.. وده اللي خلاك تأجر فراش يضرب نار فوق سطح الكلية عشان كلنا نتخض مع الصوت ونتلفت حوالينا، وفي لحظة تبدل أنت الورق مع صاحبك، وبصراحة أنا كنت عارف إني هتخدع، عشان كده فتحت اللاب توب وسيبته يسجل كل حركة ليك.

أدرك ياسين أن بهاء قد تمكن منه تمامًا حين قال:

- دلوقتي قدامك اختيارين، يا تقدم طلب للجامعة بالتنازل عن التعيين، يا إما أرفع الفيديو للدكتور مجدي رئيس القسم، وبرضه

هيخليك تتنازل عن التعيين، بس هتخسر احترامه وحبه ليك.. شوفت أنا جدع معاك إزاي؟

شعر ياسين بالفزع مما سمع، فبهاء يريد منه التنازل عن مجهود أربع سنوات، وحلم أربع وعشرين سنة بأن يصبح دكتورًا في الجامعة، لكنه لم يجد أمامه خيارًا آخر، فكر في التوجه لرئيس القسم والاعتذار له.. لكن بهاء أردف وكأنه يقرأ أفكار ياسين:

- حتى لو دكتور مجدي سامحك، أول ما تتعين الفيديو ده هيكون على جروب الدفعة، وشوف هتخلي الطلاب يحترموك إزاي يا حضرة المعيد.

صمت ياسين تمامًا، تخيل رد فعل والده حين يعرف بما حدث، وخيبة أمله فيه، تخيل منظره أمام حبيبته نادين، التي وعدها بالتقدم لخطبتها فور انتهاء الامتحانات. على أساس أن تعيينه الحكومي مضمون.. شعر بأن صمته قد طال، قال بهاء بهدوء:

- عندك الشجاعة تعتذر لي؟ وننسى الفيديو ده؟

قال ياسين في فهم:

- وأفضل تحت رحمتك ومقدرش أتحرك خطوة من غير إذنك؟ لا يا معلم انشره، ولا أقولك، ابعتهولي وأنا هشيّره، بس مش هبقى عصفورة أنا!

نهض بهاء وهو يشير نحو باب المكتب:

- يبقى دي هتكون المرة الأخيرة اللي تدخل فيها المكتب ده..

لم يرد ياسين، كان يشعر بحزنٍ لم يشعر بمثله منذ وفاة والدته، وإحباط لم يختبره منذ ولادته.. أردف بهاء في حنان مصطنع:

- على العموم متزعلش.. أنت شاب ناجح والدكتور مجدي كان مرشحك في مشروع Scan pyramids، وهتاخد منه خبرة كويسة.

شعر ياسين بالخوف الشديد، فهذا المشروع الذي يعمل فيه ياسين هو مصدر رزقه الوحيد، وهو ما يجعله مستقلًا عن والده، وادخر منه ما يكفي لخطبة نادين.. وهو يعلم جيدًا أن بهاء لن يذكر المشروع، إلا لو كانت هناك كارثة متعلقة به، وبالفعل قال بهاء مبتسمًا:

- أصلهم كلمونا من شوية، وبلغونا إن المشروع وقف.

خرج ياسين من مكتب المعيدين وهو لا يرى أمامه تقريبًا.. كان هذا اليوم الأصعب في حياة ياسين؛ لم يشعر بنفسه إلا وهو يصعد لسطح الكلية محطمًا أقفال الباب.. جلس على سور السطح لساعات طويلة شرد في كل ما مر به من مشكلات، أتاه صوت رنين هاتفه، نظر ليجد رسالة من والدة نادين تقول له فيها: «مبروك التخرج، على ميعادنا يا عريس».

تذكر في حسرة ذلك الموعد الذي حدده مع أسرة نادين في الغد، وقد اتفق معهم -دون علمْ أبيه - على خطبتها فور تخرجه بسبب ضمانه للاستقلال وتعيينه في منصب المعيد، وكذلك بسبب إصابة بقطع في الرباط الصليبي ستعفيه من تأدية الواجب العسكري.

رنَّ هاتفه ثانيةً، كان المتصل هذه المرة والده، لم يجرؤ على الرد، ترك الهاتف يرن عدة مرات، حتى أتته رسالة قصيرة من أبيه اكتظت بالأخطاء الإملائية:

«دكتور بهاء اتصل عليَّ، عرفت منه كل حاجة.. مستنيك في البيت».

لم يعرف «ياسين» كيف وصل «بهاء» لرقم والده، هل كتبه في ملف الكلية أم حصل عليه من دكتور المادة الذي استخدم سلطة العميد عادل الهواري أكثر من مرة.. لكنه وصل ليقين من خسارة حبيبته، وكذلك الأمان المادي وحلم الاستقلال.. سيعود مجددًا لسيطرة والده الذي لن يرحمه بعد أن فشل في كل شيء.

لم يرَ أمامه إلا حلًا واحدًا لكل هذه المشاكل أن يتخلص من كل هذا العالم بضجيجه اللانهائي.. أن ينتحر.

٢- حارس الهرم الأوسط

للوهلة الأولى حين ترى وجه العم ياقوت ستظنه مجرد خفير نوبي يحرس موقعًا صحراويًا بسيطًا بالقرب من الهرم الأوسط، ستعرفه عجوزًا عبوسًا صامتًا، ستتحاشاه خوفًا من هيبته الناتجة عن وجه أسمر نحيل ذي نظرة ثاقبة تجعلك متوترًا إن واجهتها، تبرز عظام وجنتيه من خلاله، كما تنتفض عروق جبهته الملتوية، وكذلك رقبته العريضة التي تظهر من جلبابه الأبيض الذي لا يتسخ أبدًا.. وصوته الأجش الصادر عن حنجرة أنهكها تدخين «المعسل»، ولكنته الصعيدية التي تظهر كلما تحدث، وهو حدث نادر قلما يحدث.

كان عمله بسيطًا، فالعم «ياقوت» مجرد خفير على موقع أثري قريب من هرم «خفرع»، كان يُعلم كل شيء عن مشروع Scan pyramids، وهو مشروع مختص بالتصوير المقطعي للأهرامات، والكشف عن الحجرات المخفية داخل الهرم وما حوله، كان أميًا لكنه كان يفهم في هذه الأشياء، فهو يعمل في الآثار منذ مراهقته.

لم يستطع أي من مهندسي أو عمال الموقع أن يكشف أسرار عم ياقوت أو يقيم معه أي جسور ود أو صداقة مع «ياقوت»، لكن وحده «ياسين الهواري» استطاع ذلك.. خاصةً بعد أن أنقذ حياته.

من اللحظة الأولى لياسين في الموقع وهو منبهر بشخصية عم ياقوت وحضوره الطاغي، وشخصيته التي فرضها على الجميع، لكنه كان يتحاشاه مثلهم.. رصد ياقوت محاولات ياسين لجعل العاملين في الموقع يحبونه، من خلال الاجتهاد في العمل، لاحظ أن الجميع يراه عبقريًا في مجاله.

لم يتحدث ياقوت مع ياسين حتى اليوم الذي بات فيه ياسين ليلته في الموقع، كان الجو شديد البرودة وكان لدى ياسين الكثير من الأعمال والقراءات لتدوينها، ولديه امتحان في اليوم التالي، يذكر ياقوت بأن هذه المرة الأولى التي يطلب فيها ياسين من ياقوت أن يصنع له «شاي».. أعجب ياقوت بأدب ياسين وهو يقول:

- أنا عارف إنك مبتعملش شاي لحد، بس الكرافان مفيهوش شاي، وأنا لازم أفضل صاحي لحد بكرة العصر...

وقتها قاطعه ياقوت في هدوء، وهو يسلك أسنانه بقطعة صغيرة من الحطب:

- حاضر يا هندسة.

لم يتوقع ياسين هذا الرد من ياقوت، جلس ينتظر تسخين الشاي بجوار ياقوت، كان ياقوت يحرص على العادة الصعيدية في «الشاي الحبر»، وهو الذي يعتمد على غليان الشاي في الماء أكثر من مرة، جلسا يراقبان «بركة»، وهو يتحرك حولهما ويلاعب أحد الكلاب في الموقع الصحراوي.

و«بركة»، هو الابن الوحيد لياقوت، الذي كان يعمل معه مساعدًا.. كان بركة مصابًا بمتلازمة داون، وهو فتى في العشرين من عمره، بدين.. طيب القلب، لا يكف عن الحركة والمزاح مع جميع من بالموقع، باختصار كان لا يشبه أباه في شيء.

نفخ ياسين في كفي يده ليبعث فيهما الدفء في هذا الجو الصحراوي القاسي، كانت هذه المرة الوحيدة، التي يقترب فيها شخص ما من ياقوت لهذه الدرجة، توقع ياسين أن تكون رائحته كريهة لكن ياقوت كانت رائحته مزيج من البخور والمسك، وكان يحرص على مضغ القرنفل من حين لآخر.

تناول ياسين كوب الشاي بصعوبة، كان شديد السواد كما توقع، لكن كان له مفعول السحر على خلايا عقله، التي نشطت ونجح ياسين في إنهاء عمله ومراجعة الامتحان في أقل من ساعة.. نهض في تثاقل ليعيد الكوب الزجاجي لعم ياقوت، فوجده نائمًا على دكته الخشبية العتيقة، فتحرك بخطوات هادئة حتى لا يوقظه، وحين أدار وجهه لمح أفعى ضخمة تقترب من قدم ياقوت، فأطلق صرخة عفوية وركل الأفعى بقدمه بعيدًا.

استيقظ ياقوت في هدوء ونظر نحو الأفعى، وفجأة دفع ياسين بعيدًا ليلقيه أرضًا، نظر ياسين في دهشة نحو ياقوت، لكنه فهم على الفور سبب دفعه له، فقد قفزت الأفعى فجأة تجاه مكان ياسين السابق في محاولة للدغه، ولكن ياقوت التقطها وأمسكها من رأسها في إحكام، وأخذ يضربها في حجر ضخم على الأرض الصحراوية حتى تأكد من موتها.. نظر لياسين بهدوء وقال وهو يغسل كوب الشاي كأن شيئًا لم يحدث:

- كان زمانك بتشرب عليًّا قهوة بدل الشاي، لك واحدة عندي يا هندسة.

وفجأة وبدون أي مقدمات.. بدأ ياقوت ينهال باللطمات على وجه بركة الذي شرع في البكاء حتى كاد يوقظ الخفر المحيطين والمهندسين النائمين في كرافانات الموقع، كان يلوم ولده على عدم حراسته أثناء نومه والانشغال باللعب، حاول ياسين منع ياقوت؛ ليكتشف أن هذا العجوز قوي

بحق، تشبث في ذراعه الأسمر المفتول فدفعه ياقوت بعيدًا.. صرخ ياسين في توسل:

- سيب بركة يا عم ياقوت، معلش عشان خاطري!

نظر ياقوت لياسين مفكرًا، ثم رفع يده عن بركة، حينها فهم ياسين أنه يجب أن يرحل.

منذ ذلك الحين وياسين يحب السهر مع عم ياقوت، على أنغام مشوشة من مذياع تالف خاص بعم ياقوت؛ تارةً يشغل أم كلثوم وتارةً يشغل إذاعة القرآن الكريم، حسب مزاج المذياع لا صاحبه.. وقد فتح كلاهما للآخر قلبه، فعلم ياقوت بمشاكل ياسين مع والده الذي لا يعترف بنجاحه، ولا بتكريم رئيس الجمهورية له كأحد أفراد فريق Scan pyramids الذي أسهم في الكشف عن الكثير من أسرار الأهرامات، وعلى الرغم من تفوقه في الكلية والمستقبل الذي ينتظره.

وكذلك عرف ياسين عن ماضي عم ياقوت الحافل بالعمل في تجارة الآثار منذ الصغر في الأقصر، حتى جمع ثروة أنفقها على النساء، وبعد إفلاسه بفترة عمل قاتلًا مأجورًا في أقصى الصعيد، حتى تورط في قتل ضابط شرطة، فاختفى في الجبل لفترة طويلة حتى سقط عليه حكم الإعدام، وفي الجبل تزوج والدة بركة، وأسماه بهذا الاسم؛ لأنه على حد تعبيره «طول عمري بعرف أجيب القرش، مرة من المساخيط ومرة من تجارة التار، ومرة من الشغل الشمال، بس عمر ما كان فيه بركة.. فقلت أتبارك بالواد».

وبالفعل تحقق رجاء ياقوت، فقد تواصل معه أحد علماء الآثار، الذين كان يعمل معهم في الأقصر، وطلبه لحراسة أكثر من موقع أثري حتى وصل إلى الأهرامات، لم يعرف ياسين السبب الحقيقي لتسميته «ياقوت»

وإن خمن أنه بسبب عمله السابق في الآثار، فقد لقبه الناس بهذا اللقب نسبةً لقصة علي بابا والأربعين حرامي حين صرخ في المغارة: «دهب.. ياقوت.. مرجان، أحمدك يا رب!»

عرف ياسين أن زوجة ياقوت قد توفيت بعد إنجاب بركة بأيام، وأنه كان يعشقها بجنون، وقد دار خلفها الصعيد بأكمله حين حاول أبيها إخفاؤه عنها.. وقد أرجع ياسين سبب معاملة ياقوت لولده بهذا الإهمال لكونه السبب الرئيسي في وفاة والدته، وكذلك بسبب مرضه وكونه من ذوي الاحتياجات الخاصة.. لكن حادثة رئيسية كانت السبب في فقدان ياقوت للأمل في ولده، رواها ياقوت في خليط من خزي وتقزز على ياسين في إحدى الليالي:

- قبل ما ننزل من الجبل ونيجي مصر بركة غاب عني طول اليوم، فضلت أدور عليه لحد ما لقيت العيال من سنه متجمعين وبيبدلوا عليه، وهو ولا هنا ولا حاسس بالدنيا!

شعر ياسين بالفزع حين سمع ذلك، وقد أدرك أن «بركة» كان لا يعي حقًا ما يدور حوله، كان لديه مشاكل جمة في النطق، لكنه مع الوقت والتعلم كان يكتسب خبرات ويتعرف على الناس بأسمائهم، ويرفض أي محاولة للاعتداء اللفظي والجسدي، لم يكن يمثل هذا السوء الذي يراه عليه ياقوت، وقد حاول ياسين أن يجعل العم ياقوت يفهم ذلك، ويحثه على تقبل ولده كما وُلِدَ، لكن ياقوت أدرك بفطنته أن ياسين يطلب منه ما كان يرجوه من والده سيادة العميد عادل الهواري.. فآثر الصمت.

بدأ ياسين يدرس حالة بركة ويعلمه بعض الألعاب والكتب الملونة ليلعب بها أثناء فترة راحته من مساعدة والده، وقد تحسنت حالته بالتدريج، كان ياقوت ممتنًا لياسين، وفي ليلة من الليالي، شهد ياسين ياقوت وهو

يضرب بركة بعنف، علم ياسين أن العقاب وراءه خلع بركة لسلسلة فضية من رقبته لأنها تسبب له التهابًا، وقد حرَّم عليه ياقوت خلعها، ففصل ياسين بينهما، وسأل ياقوت في فضول عن سبب حرصه الشديد على بقاء السلسلة حول رقبة بركة، فقال وهو يشير لرقبته بسلسلة مماثلة:

- يوم ما اتجوزت أمه اشترينا سلسلتين فضة، وقتها كنت تايب عن الحرام، وماكانش معايا فلوس للدهب، شوفتهم مرة في السيما بيعملوا كده.. ودي كانت آخر حاجة من ريحتها، فسيبتها للواد، وفضلت السلسلة التانية في رقبتي.

سأله عن تاريخ والدة بركة، فبدأ ياقوت يروي عليه القصة الحقيقية لبركة:

يوم ما عرفت إن أمه حامل وأنا حاسس إنه مش ولدي، ولما اتولد اتأكدت.. أنا سرقت كل حاجة ممكن تتسرق، وقتلت ناس معرفهاش.. كدبت بعدد أيام عمري.. بس إيدي اتشلت عند «طاهرة».. مع إنها الوحيدة اللي كان ممكن أوذيها من غير ما تزورني في كابوس.. بس ما قدرت.

لم يفهم ياسين سر عجز واحد مثل ياقوت عن الانتقام لشرفه، فأردف ياقوت وهو ينظر أمامه نظرة خاوية، كانت عيناه تعكس بريق النيران المشتعلة في الحطب الموقد أمامه:

- عجزي عنها عذبها، كانت مستنية الموت مني في كل لحظة، وعمرها ما طالته، بصتي ليها كانت رصاصة بتعدمها في نهاية كل يوم، ما كانت بتعرف تنام.. وشكلها عرفت إن ربنا بيعاقبها في ابنها اللي نزل متشوه.. فكرت أفهمها إن حسابات ربنا أكبر من كده، بس سيبتها لدماغها.

كان ياسين قد توقع نهاية قصة «طاهرة أم بركة» بشكل صحيح، وقد تأكد حدسه حين ختم ياقوت حديثه في ذلك اليوم:

- لحد ما صحيت في يوم على صريخ، عرفت إنها رمت نفسها من فوق الجبل، الناس كلها قالوا إنها مستحملتش طبعي، وكلامهم كان صحيح.. أنا زي الموت يا ياسين..

وأشار برأسه نحو بركة قائلًا:

- ما حدش يقرب لي غير مجنون.

لم يسأل ياسين ياقوت عن سبب اصطحابه لبركة معه وعدم تركه بعد انتحار أمه، لكن ياقوت قرأ أفكار ياسين، وقال بهدوء إن سبب بقائه مع بركة هو «الكابوس».. فقد كان لدى «ياقوت» كابوس واحد يتكرر كل يوم؛ فهو يرى كل ضحاياه الذين قتلهم عبر حياته الحافلة، يراهم وهم يقتلونه بنفس طريقته.. كان ياسين وحده من يعلم بعضًا عن حياته، وقال له ذات مرة أنه لو عُرِضَت قصة حياته في فيلم لحقق نجاحًا قياسيًا.

أردف ياقوت قائلًا:

- بس نسيت أقول لك إن الكوابيس بتروح لما بنام جنب بركة، وبصحى ألاقيه بيهلوس وهو نايم، كأن الكوابيس بتزوره هو بدالي.. يعني أنا بحمي حياته، وهو بيحمي نومي.

كان عم ياقوت هو الشخص الوحيد الذي يجلس أمامه ياسين منصتًا، لا يحاول إثبات ذكائه ولا إبهاره بالحديث كما يفعل مع الجميع، ومع الوقت وجد ياسين وياقوت احتياجهما في بعض، فكلاهما يتخلى عن أساليبه الدفاعية أمام الآخر، ويتصرف على طبيعته.

لكن ياقوت لم يُدرك أن ما سيحدث هذه الليلة ستجعله يندم على معرفة ياسين الهواري من الأساس، بل ويتمنى أن كان يتركه يموت منذ حادثة الأفعى.

٣- الرحلة

لم تكن مشكلة «نادين إمام»، أنها جميلة، لكن المشكلة الحقيقية أنها تدرك ذلك..

وقفت «نادين» أمام مرآة كبيرة في استراحة الممرضات، كانت تتدرب على التمريض في سنتها الأخيرة داخل أحد المستشفيات الحكومية، حاولت تجفيف اللمعة في وجهها، كانت تكره الصيف؛ لأنه يظهر عيوب بشرتها الدهنية، وقد أنفقت الكثير من المال على مستحضرات التجميل لإخفاء هذا العيب.. كانت مشاعر الغيرة هي أول ما تحرك زميلات نادين في معظم أفعالهن، كونها الأجمل بينهن، وكونها من عائلة ميسورة، مقارنةً بعائلاتهن.. لكن كعادة الإناث؛ لا يظهرن العداء إلا وقتَ اللزوم.

ظلت نادين تتأمل جسدها في إعجاب بمفاتنها، كانت تحب شكلها في ملابس التمريض، التي تعمدت أن تضيقها على مقاس ثنيات جسدها بالضبط، في الأحوال العادية كان انبهارك بنادين سيتضاعف حين تستنشق عطرها أو تشاهد شكلها بمساحيق التجميل التي تجيد وضعها حسب المكان وحسب ألوان ملابسها.. لكن مدير المستشفى شدد على الجميع عدم وضع أي مستحضرات تجميل أو عطور.

نظرت مشرفة الممرضات «ميس نجوى» نحو «نادين» باستنكار، كانت نجوى صديقة مقربة لوالدة نادين، وهي من توسطت لها للتدريب تحت

يدها في المستشفى، كانت تحبها كابنتها، ولكن تكره إعجابها الشديد بجمالها.. قالت نجوى لنادين:

- نادين هستناكي تغيري هدومك عشان نروح.

ردت نادين معتذرة، وهي تشير نحو هاتفها المحمول:

- آسفة يا طنط أنا هطلب أوبر، هروح أشتري حاجات مع صحابي..

بدا على نجوى الشك فيما تقول نادين، فأردفت الأخيرة مستدركةً:

- أنا مستأذنة من ماما.. كلميها لو حابة.

تمتمت نجوى ببعض الكلمات، وخرجت من استراحة الممرضات، نظرت إحدى زميلات نادين لها وقالت في انتصار:

- إنتي الوحيدة اللي بتعرفي تسكتيها.

قالت نادين مصححة:

- لا هي عشان بتحبني بتعدي لي بمزاجها، غير كده هي ست قادرة.

بدأت نادين تغير ملابسها، وهي تستمع لأحاديث زميلاتها، سمعت إحداهن تقول وهي تضحك:

- عارفين يا بنات، لما كنت في سن نادين كنت بحلم أمرض ثري عجوز كده.. ويحبني ويكتب لي كل أملاكه.

قاطعتها نادين مقلدة لهجة ذكورية:

- وييجي المحامي يقولك: الباشا الله يرحمه كتب لك كل أملاكه.

سألت أخرى:

- وإمتى فوقتي من الحلم ده؟

ردت نادين بدلًا عن الممرضة الحاملة:

- أكيد لما افتكرت إنها في مستشفى حكومي، وإن أغنى واحد هيتعالج هنا هو أبوها.

ضحك الفتيات جميعًا على مزاح نادين، كانت قد استمدت الحس الساخر بعد ارتباطها بياسين الهواري، كانت تعلم أنه يستخدم السخرية؛ لتجنب سخرية الآخرين منه.. لكنها تصالحت مع كل عيوبه وشعوره الدائم بغياب الأمان.

كانت نادين على علاقة عابرة بخيري زاهر، كان يمدها بالمال في سبيل بعض المتع الجسدية السطحية، لم تكن لتفرط فيما تملك من جمال دفعةً واحدة.. لم يكن لديها نقص في المال كذلك، لكنه مجرد طمع فيما هو أفضل.

خرجت نادين من علاقتها مع خيري ولديها موهبة خاصة أثبتت صحتها مع الزمن، فقد أصبحت تدرك من النظرة الأولى للرجل كل ما يريده منها، كان هذا المنبه كفيلًا بكشف جميع الرجال على حقيقتهم، ولكن هناك استثنائيين فقط لهذه القاعدة: والدها وياسين الهواري.

منذ النظرة الأولى لياسين، وهو يتعرف عليها أدركت إعجابه بشخصها، وزهده الكامل في مفاتنها التي لا يرى الرجال سواها، كانت تعلم أن بداخله جانبًا مظلمًا كبيرًا، وبغضًا كامنًا لمعظم البشر، لكنها تأكدت مع الوقت أنها الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة.

رن هاتف نادين فقالت لزميلاتها وهي تنظر للهاتف:

- ده أوبر وصل.. عايزين حاجة يا بنات؟

ابتسمت الممرضات لنادين وهن يودعنها بود زائف، كانت تعلم أنهن سينهشن سيرتها فور خروجها، وسيتحدثن بعبارات من نوعية «لحقت تطلب أوبر إمتى؟».. و«أنا شوفتها بتدي رقمها للدكتور أيمن».. وإلى آخره مما يصلها من جلسات النميمة.

خرجت نادين من باب المستشفى، كانت متيقنة أن أفراد الأمن يراقبون حركتها، لمحت سيارة «خيري زاهر»، تنتظرها أمام الباب، فركبت في المقعد الخلفي من السيارة، نظر لها خيري من المرآة المقابلة له وأطلق سبة بذيئة، وقال:

- ما تركبي جنبي، ولا أنا سواق أهلك؟

ردت نادين في قلق:

- اتحرك بس أنا مفهماهم إنك أوبر.

تحرك خيري بعيدًا عن المستشفى، ثم توقف حتى تركب نادين إلى جواره، نظرت نادين في مطفأة السجائر أمام خيري فوجدتها مكتظة عن آخرها، نظرت له في قلق وقالت:

- فيه إيه يا خيري؟ ياسين كويس؟

قال خيري وهو يسب قائد السيارة أمامه، الذي غيَّر اتجاهه فجأة:

- مش عارف، اليوم غريب من أوله.. أبويا اتصل وقال لي إن فيه أمين شرطة بيسأل عني في المنطقة..

قاطعته نادين بلهجة لائمة:

- أكيد عرفوا موضوع الحشيش ده، لو اتمسكت بكمية مش هتخرج تعاطي زي أول مرة!

أكمل خيري حديثه كأن لم يسمع شيئًا.

- وياسين اتشد على مكتب المعيد، ومن شوية اتصل بيا وقال لي آخدك ونروح له الموقع في الجيزة ضروري، فكلمتك.

قالت نادين في فزع:

- جيزة؟ أنت عايز أمي تقتلني؟

قال لها خيري بهدوء:

- افتحي شوية آخر post عنده.

فتحت نادين هاتفها المحمول، الذي لا يفارق يدها، والمزين بغلاف جلدي عبارة عن صورة للشخصية الكارتونية المفضلة لديها «مارد وشوشني»، بدأت تتصفح الفيس بوك بإصبعها الخنصر المزين بخاتم فضي رفيع وطلاء أظافر لبني اللون مثل الطرحة التي ترتديها وتغير من طريقة لفها من آنٍ لآخر..

كان حديث ياسين على الفيس بوك مخيفًا بحق، فقد صور صورة من فوق سطح الكلية، ولا يظهر منه إلا قدميه، وكتب عليها:

«الرحيل كان دايمًا اختياري الأول، أنا وحيد لدرجة إني مش عارف أصاحبني، مش قادر استحمل أسئلة عقلي كل يوم، أنا أكبر عدو ليا، أقول لكم سر؟ أنا طول الوقت بسمع دوشة في دماغي، أسئلة كتير وأصوات مش مفهومة، مبسوط إن كل ده هيخلص.. حتى الدموع بطلت تخرج مني..

مبسوط إني هشوف أمي لأني مشبعتش من حضنها في الدنيا، كان نفسي أشوفها وأنا ناجح، لكن الماتش خلص بدري أوي، وبرغم السواد؛ إلا إن حلمي كان وردي بزيادة.. أنا حاربت العالم، ونسيت إني جزء منه.. مع السلامة».

فلتت دمعة من عيني نادين، وقالت لخيري متعجبة:

- إزاي كان بيكتب كده من فوق الكلية، ودلوقتي بيكلمك من الموقع؟

لم يرد خيري، اكتفى برفع كتفيه في حيرة. شعرت نادين بالقلق على ياسين، حاولت أن تلهي نفسها عما قد يكون أصابه، سرحت نادين في ذكرياتها مع خيري زاهر قبل أن تتركه وتعلن ارتباطها بياسين الهواري، نظرت نحو خيري، كان وسيمًا في نظرها، ببشرته الخمرية ولحيته المكتملة وجسده العريض، وملابسه التي دَائمًا ما تسبق الموضة بخطوة، وسجائره الباهظة.. لكن مشكلة نادين مع خيري أنه كان يشبهها بشكلٍ كبير، ويدرك جيدًا مميزاته كشاب وسيم وثري وعلى قدرٍ من الذكاء.

وكأي علاقة عابرة بردت المشاعر، انتهى كل الشغف، ورأى كل منهما الآخر في أسوأ حالاته وأصعب حالاته المزاجية، لم تكن نادين تسمح لخيري بأي تجاوز من أي نوع، فلو أمسك يديها أو رأى لها صورة بدون حجاب كان يعد هذا انتصارًا.. ليس من باب العفة، قدر ما كان عملًا بمبدأ «تشويق الزبون» حتى يشتري البضاعة.

ظلت مشكلة خيري معها رغبتها في الزواج بأسرع وقت، قبل أن تبور سلعتها.. وكانت مشكلتها معه غموضه فيما يتعلق بالمستقبل.. فأتى ياسين ليحل كل هذه المشاكل، فبعد أن تأكد من انفصالهما تحدث مع خيري وأسر إليه بمشاعره تجاه نادين.. فبارك خيري الأمر، ولكن مباركة خيري كان وراءها ظن أن نادين لن تقبل به حبيبًا لها، وأنها لاتزال تفكر فيه، فتركه يحاول.. لكن نادين خيبت ظن الجميع بمن فيهم ياسين الهواري ذاته، وأعلنت أنها تبادله الإعجاب.

وقد أظهر ياسين ذكاء إنسانيًا فيما يتعلق بنادين، فاستطاع احتواء كل مشاكلها النفسية والأسرية، ووضعها في علاقة هي خليط بين الأمومة

والبنوة والارتباط، كان يُعطي أكثر مما يأخذ، وقد وعد بالزواج ولديه القدرة على ذلك بسبب مستقبله المهني الواعد.. حتى الاشتياق لها كان يظهر بالشكل الذي يرضي أنوثتها دون أن يثير حفيظة ضميرها.

اقترب خيري من الموقع الذي يعمل فيه فريق ScanPyramids، كانت معلومات خيري ونادين عن عمل ياسين مع الفريق قليلة، هم فقط يعرفون أن الفريق معني باكتشافات جديدة في الأهرامات، باستخدام نوع خاص من الأشعة.. كان الطريق خاليًا، ومعظم العاملين في محيط الأهرامات يغادرون المكان.

استوقف خيري أمين شرطة، رفض أن يمر، حاول خيري أن يعبر منه بكل الطرق، في البداية حاول إقناعه أنه من فريق scan pyramids، لكن لم يكن لديه البطاقة التعريفية للفريق، حاول رشوته لكن الأمين رفض، أخرجت نادين هاتفها بعملية واتصلت بياسين، لم تنتظر لتسمع صوته أو تطمئن عليه، فقط أخبرته أنهما واقفان على بوابات موقع عمله، فقال ياسين إنه سيأتي لاصطحابهما في الحال.

أوقف خيري سيارته على جانب الطريق في انتظار وصول ياسين، كانت نادين منشغلة عن خيري بهاتفها المحمول، كانت تبحث منذ أيام عن «الجاثوم»، فهي تستيقظ وقد رأت نفسها في حلم تخرج فيه شهواتها بشكل كبير، والآن قد راسلت نادين إحدى الطبيبات النفسيات من ذوات الشهرة على الفيس بوك، وقد ردت الطبيبة في هذه اللحظة قائلة:

- نادين إنتي متأكدة إنك بتقومي من النوم بدون أي ضيق نفس أو شعور بالانقباض؟

كتبت نادين على هاتفها بسرعة:

- أيوه يا دكتورة، وبصراحة أوقات بقوم فايقة ومبسوطة عن العادي.

قالت الدكتورة جملة تغلق بها المحادثة:

- أنا مش مؤمنة بالجاثوم والجن العاشق والكلام ده، بس حتى لو موجودين فدي مش أعراضهم، المفروض تقومي في شعور أسوأ من كده، متقلقيش اللي عندك ده حلم جنسي طبيعي جدًا.

همت نادين بالرد، لكن خيري قاطعها بصوت هامس:

- نادين.. مبتفكريش نرجع لبعض؟

نظرت له نادين مستنكرة:

- وياسين ده طقم كوبايات يعني؟ أنا فيا عيوب الدنيا، بس مش خاينة!

قال خيري في استنكار:

- يعني أنا اللي خاين؟

وأمسك يدها وهو يكمل حديثه:

- كل الموضوع إنك وحشتيني.

ردت نادين في حزم:

- حتى لو مفيش ياسين، أنا مش هرجع لك يا خيري؛ عشان أسباب كتير آخرهم إنك طلعت مش راجل.

كاد خيري أن يرد لكنه لمح ياسين آتيًا من بعيد، فهمس لنادين وهو يتظاهر أنه يبحث عن شيء آخر داخل السيارة:

- ياسين وصل، متقوليش له حاجة.

نظرت له نادين باستنكار، ولم ترد.. اقترب ياسين من أمين الشرطة وأعطاه شريط دواء لم يتبين نوعه لنادين ولا لخيري، ركب ياسين السيارة وفجأة تغيرت ملامح أمين الشرطة وسمح للسيارة بالمرور على وعد من ياسين الهواري ألا يطيلوا البقاء داخل الموقع.

بادر نادين وخيري بطرح الكثير من الأسئلة، فهدأ ياسين من روعهما وبدأ في شرح ما حدث خلال هذا اليوم:

- أول حاجة أنا كنت هنتحر بعد ما اتأكدت إني مستحيل أتعين في الكلية، وإن مشروع الأهرامات خلص تقريبًا، كنت خلاص حاسس إن كل شيء انتهى، مش مهم تفاصيل دلوقتي.. المهم إني قبل ما أنتحر بثواني جالي اتصال من زميلي في المشروع هنا، وقال لي إن تليسكوب الميونات لقط قراية غريبة عند الهرم الأوسط.

بدا على نادين وخيري عدم الفهم، فقال ياسين شارحًا:

- التليسكوب ده مهمته يرصد جسيمات صغيرة جدًا اسمها الميونات؛ باختصار شديد مهمته إنه يعرف الأماكن اللي فيها فراغات زي الحجرات المخفية في الأهرامات.

أردف ياسين، وهو يطلب من خيري الوقوف بجوار أريكة عم ياقوت:

- المهم زميلي بلغني إن فيه قراية غريبة بتقول إن عدد الجسيمات العادي قل فجأة، وده معناه وجود اكتشاف جديد.. قفلت معاه واتصلت بعم ياقوت اللي قدامكم ده، طلبت منه خدمة بسيطة.. عايزين ننيم زميلي.

سألته نادين عن سبب تنويمه لزميله، فقال خيري في فهم:

- هو عايز ياخد الاكتشاف العلمي لنفسه كامل، بما إنه أكتر حد اشتغل على التليسكوب ده، حرام زميله يشاركه فيه.

قال ياسين في حماس:

- ده غير إن اكتشافي ممكن يخلي المشروع يكمل.. كنت فاكر الموضوع مجرد غرفة جديدة تحت الأهرامات.. لكن طلع إن كل الجسيمات بتتشد لمكان معين بعيد عن الهرم نفسه.. كأن فيه ثقب أسود في المكان ده بيشد كل الجسيمات دي.. فيه طاقة غريبة جدًا، واكتشاف أكبر بكتير من غرف الأهرامات، وقررت إني لازم أروح المكان ده معاكم، أنتم أهم اتنين في العالم بالنسبة لي.

أعطى ياسين لخيري موقع على الـGPS حتى يتبعه، كان على بعد عشر دقائق من مكانهم الحالي، أبدت نادين خوفها من التأخر عن والدتها لكن ياسين طمأنها إلى ذلك.. وأخبرها أنه بعد هذا الاكتشاف سيتقدم لخطبتها وستتغير حياتهما للأبد.

فوجئ خيري بركوب عم ياقوت وولده بركة في المقعد الخلفي بجوار ياسين، أبدى خيري اعتراضه لكن ياقوت قال بلهجة حاسمة:

- مينفعش تروح لوحدك يا هندسة.. الموقع مسؤوليتي.

لم يعترض ياسين الهواري، وإن كان متحفظًا على قدوم بركة معهم، اقترب خيري من الموقع المنشود.. طلب ياسين منه التوقف قبل مسير دقيقة من المكان المحدد، وقرر الاقتراب على قدمه، كانت قراءة التليسكوب ترصد عددًا هائلًا من الجسيمات التي تنجذب لهذه البقعة.

بدأ بركة يشعر بدوار شديد، وكذلك نادين التي أعربت عن شعور غثيان يعتريها، وبد أخيري يلاحظ ومضات مضيئة، أما عم ياقوت

فكان يقاوم الانهيار والسقوط على ركبتيه.. في حين كان ياسين مسحورًا بهذا الاكتشاف، أصبح متيقنًا أن هذه الطاقة تشبه طاقة الثقب الأسود بالضبط. ظل يراقب أجهزته حتى أدرك خطأه. فقد فات أوان التراجع، طالبهم بالرجوع للسيارة لكن الجميع يشعر بأن وزنه أطنانًا، وكأن الأرض تبتلعهم تجاه هذه البقعة الغريبة.



٤- أسرى المملكة

كان «ياسين الهواري» على يقين أنه قد غاب في حالة من الهلوسة، وأنه يجب أن يفيق من كوابيسه هذه حتى يطمئن على من كانوا معه، ويعرف أين هم الآن، وكم كانت الفترة التي غابوها عن الوعي، كان قلقًا من أن يسرق أحدهم اكتشافه العلمي أو يورط نادين في مشكلة مع أهلها، أو يلحق بهم أمين الشرطة.

ظل ياسين طيلة عمره ممتنًا لملكة إدراكه للحلم من الواقع، لكن إلى متى سيطول هذا الكابوس لا يعرف.

رأى ياسين نفسه جالسًا في غرفته، كان لا يزال طفلًا، أجلسته أمه على مقعد مخصص للأطفال وأحضرت له كوبًا به بعض اللبن الفاتر، كان مشتاقًا لطعم الحليب، كانت رائحته قوية في أنفه، وقد سال لعابه عليها، مد يده ليتناول الكوب لكن أمه أخذت تبعده عن متناوله، حتى خرجت من الغرفة، ظل يصرخ فيها حتى تعود، لكنها كانت تبتعد دون أن تفارق وجهها ابتسامة بلا معنى، لم يدرِ ياسين من أين ظهر السكين الحاد الذي استقر بين يديه، وجد نفسه يغرس سن السكين في يده اللينة، وقد بدأ يسحب السكين حتى قطع كل شرايينه، أغمض عينيه وانتظر النزيف الحاد يؤدي دوره وينهي حياته.

استيقظ ياسين في المستشفى، كانت يده مربوطة في الفراش، لاحظ أنه صار أكبر في السن، نظر حوله ليجد والده مبتسمًا له، لم يتوقع هذه الابتسامة، ولم يرها في حياته قط.. كان والده محاطًا بالعساكر الذين يتحركون معه أينما ذهب.. حاول ياسين الكلام لكن صوته لم يخرج، التف العساكر حول ياسين مبتسمين نفس ابتسامة الأب، وقد ناوله أحدهم مسدسًا كان ثقيلًا على يد ياسين، اندهش من نفسه أنه يجيد استعماله، كان يعرف ضمنيًا ما الذي يريده والده، أمسك بمقبض المسدس، أغمض عينيه وضغط الزناد، أخيرًا سيتخلص من هذه الابتسامة الثقيلة التي تغلف وجه والد لم يستحق لقب «أب».

شعر ياسين بالصداع يدمر رأسه، كان صدى صوت الرصاصة لا يزال مدويًا.. كان هذه المرة في مدرج الكلية، وقد أصبح شابًا يافعًا.. كان الجو حارًا والدكتور لا يستطيع الشرح، في مثل هذه الأجواء كان يكتفي بمغادرة المدرج في هدوء، لكنه ظل جالسًا، فقد كان خيري يصمم على البقاء في المحاضرة.. أخرج خيري بعض السندويتشات من حقيبته، وناول ياسين أحدها، كاد أن يرفض الطعام لكنه كان جائعًا بحق، بدأ ياسين يأكل في نهم، لم يعبأ بملاحظة الدكتور له.. وبعد قضمتين شعر بألم شديد في معدته، لكنه لم يتوقف عن الأكل، كان يعلم أن طعام خيري مسموم، لم يهتم كأنه أراد الخلاص للأبد.

أما العم ياقوت، فقد ظل يعطيه الشاي الداكن ويقول إنه سيداوي معدة ياسين من فعل السم، جلس كلاهما يلعن خيري، وفجأة ظهر «بركة»، وحمل ياسين على كتفيه حتى وصلا إلى الحطب الذي يشعله ياقوت، سأل بركة ياسين عمًا إذا كان يريد تجربة النيران كوسيلة جديدة للانتحار، فلم يتردد ياسين بالموافقة، وترك نفسه للنيران تلتهمه.

فجأة وجد نفسه نائمًا على ظهره في فراش غرفته، كان جسده مليئًا بآثار الحروق التي طالته، وفجأة ظهرت نادين بملابس مكشوفة، تمامًا كما كان يتخيلها بدون ملابس، حينها سمع نداء أخيه عليه من الخارج.

لم يكن يريد شيئًا في العالم سواها الآن، اقترب بشفتيه من جسدها لكنه شعر بصعقة كهربائية خفيفة، لم يبالِ بما شعر، وعاود المحاولة ليتلقى صعقة أقوى، ارتفع صوت الأخ، حاول ياسين مغادرة الفراش، لكن جسده كان ثقيلًا، لم يستطع الحركة. احتضنته نادين ليتلقى صعقة أقوى وأقوى، شعر بأنه سيموت بالفعل، ظل جسده يرتجف كثيرًا وقد خنقته نادين بوجهها فلم يقدر على الصراخ.. شعر بوعيه يغيب ورأى نفسه يسقط من قمة جبل عالية...

أفاق ياسين أخيرًا، بجفنين متثاقلين وجسد يأبى الحركة، كان ظهره يؤلمه، فتح عينيه ليجد نادين وخيري يحدقان فيه، كان يبدو عليهما التعب الشديد مثله، من اللحظة الأولى أدرك ياسين وجودهم في صحراء منعزلة لا تشبه الصحراء المحيطة بالأهرامات، وقد اختفت الأهرامات وتحول ليلهم نهارًا، أخرج هاتفه ليعلم التوقيت والمكان فوجد أن هاتفه مغلق، حاول تشغيله لكن خيري ونادين أخبراه أن هواتفهم جميعًا صارت هكذا، قطع من الحديد، ظل ينظر حوله بحثًا عن أي طريق تمر فيه السيارات، لكن الصحراء كانت تحاوطه من كل الجوانب؛ حاول التفكير في سبب لما حدث لهم، وكذلك في حلٍ لمشكلة ابتعادهم عن موقع العمل بجوار الأهرامات، توقف عقله عن التفكير تمامًا، وضع وجهه بين كفيه محاولًا التوصل لإجابة...

قاطع أفكاره صوت بكاء بركة، كان على بعد أمتار من ياسين وصديقه ومحبوبته، نظر له ياسين في تعجب عن سبب بكائه، لكنه عرف السبب فور النظر إليه.. فقد كان ياقوت في حالة سكون تام، وكأنه فقد وعيه..

اقترب خيري من جسد ياقوت، حاول أن يستشعر النبض فيه، نظر ياسين نحوه في ذعر، كان سيقتل نفسه لو أن أحدًا قد تأذى بسببه.

كان دائمًا ما يشفق ياسين على قادة الثورات والحروب من الذنب الذي قد يطاردهم لبقية العمر، فهو لا يتخيل أن يموت شخص واحد نتيجة كلمة قد قالها، أو فكرة عبّر عنها، رفع «خيري زاهر» وجهه نحو ياسين وقال في يأسٍ ممزوج بشماتة:

- الراجل مات!

عاود بركة البكاء وهو يحتضن والده ويهزه بقوة، أما ياسين فقد انهار على ركبتيه غارسًا ساقيه في الرمال، أما نادين فقد طلبت من خيري رفع قدمي «ياقوت»، وبدأت تضغط على صدره في محاولة يائسة لإنعاشه، لكن ياسين أدرك أن محاولاتها لن تنتهي إلى شيء.

شعر ياسين بيأس شديد، دفن وجهه في الرمال وبدأ يندب حظه ويتمنى الموت لنفسه، في هذه الأثناء بدأ خيري يتلفت حوله باحثًا عن أي مصدر للمياه، أو طريق.. أي شيء يدل على وجود حياة في هذه المنطقة.. لكن بلا فائدة.. ارتفع صوت ياسين بالبكاء حتى أصبح يغطي على صوت بركة، الذي فقد والده للتو، كانت نادين في حيرة من أمرها، أتحاول مرة أخرى إنعاش «ياقوت» أم تواسي ياسين.. فقررت - كأي أنثى- في إلقاء اللوم على ياسين، وأنه السبب في كل هذا، وبدأت تسأله عما ستفعل مع أهلها الآن؟!

شعر خيري بصداع شديد، فجميع من حوله عاجزون عن التفكير، حتى تمنى أن يصبحوا جميعًا مثل ياقوت المسجي أمامه على رمال الصحراء.

صرخ خيري فيهم جميعًا:

- ممكن تخرسوا خالص، ونحاول نفكر في حل لأم الكارثة دي!

ربت خيري على ظهر بركة وقال باقتضاب:

- البقية في حياتك يا حبيبي، بس لازم نتصرف عشان حتى تدفن أبوك.

أما عن نادين؛ فنظرة صارمة من خيري كانت كفيلة بكتم دموعها، تمتمت بجملة لم يسمع منها سوى كلمة «بابا»، فرد بهدوء:

- اللي حصل حصل خلاص وكلنا هنقابل مشاكل مع أهالينا، إحنا منعرفش نمنا كام يوم ولا الموبايلات فصلت ليه، ولا إحنا فين أساسًا.. اهدي وخلينا نقصر مدة غيابنا دي!

التفت خيري نحو ياسين الهواري، وقد قرر أن يصب عليه كل الغيظ الذي كظمه مع بركة ونادين:

- وأنت بقى يا عبقري هتفضل ساكت وبتدعي على نفسك تموت زي كل مرة؟ مش أنت اللي جايبنا هنا أصلًا؟ قوم بقى واسترجل وواجه الحياة، شوف لنا حل وبعد كده ابقى انتحر براحتك!

أعقب خيري صياحه في ياسين بالسباب، كان خيري قد قصد ذلك حتى يستفز ياسين، فنهض الأخير محاولًا ضرب خيري لكن خيري تفاداه، وانهال عليه بلكمة ثبطت من عزيمته، سكت ياسين لثوانٍ، ابتلع شعوره بالمهانة حين ضُرِبَ أمام محبوبته، فقد توصل لاستنتاج ما حدث، قال في فهم:

- ثقب أسود!

بدا على الجميع عدم الفهم، قال ياسين في اهتمام:

- لما كنا في الموقع قربنا بشكل كبير جدًا من مادة ليها طاقة عالية جدًا. مادة مالهاش شكل محدد، أنا كنت فاكره اكتشاف متعلق بالأهرامات، بس فعلًا مفيش تفسير غير إن دي مادة مظلمة، يعني ثقب أسود.

سأل خيري بهدوء عن احتمالية وجود مادة مظلمة في الظروف الطبيعية، فقال ياسين بحماس:

- احتمال نادر بس موجود، ده غير إني قريت قريب عن تسريبات حصلت من مفاعل سيرن.. أنتم عارفين ده معناه إيه؟

نظر لهم بركة في عدم فهم، وأكمل بكاءه على جثمان أبيه.. قالت نادين بهدوء:

- معناه إننا انتقلنا لكون موازي؟ أنا شوفت حاجة زي كده في فيلم أجنبي.

كان خيري على دراية بحكم اختصاصه، حتى وإن كان ضعيف المستوى فيه.. فأسكت نادين وقال لياسين بهدوء:

- هي قصدها إننا انتقلنا لمكان تاني.. ده حقيقي يا ياسين؟

أومأ ياسين برأسه إيجابًا.. سألت نادين في سذاجة عن مدى بعدها عن بيتها، فقال خيري وهو يطلق سبة بذيئة:

- لو كنا محظوظين فإحنا على بعد مئات السنين.

انتظرت نادين الاحتمال الأسوأ من فم ياسين الذي قال:

- ولو معندناش حظ.. فإحنا دلوقتي في فترة من عمر الأرض مفيهاش حضارة، وممكن منقابلش بشر غيرنا أصلًا.

سقطت نادين مكانها من هول الصدمة، لم يعبأ بها أحد هذه المرة.. نظر خيري مباشرةً في عيني ياسين وسأله:

- ياسين أنت هتتصرف، صح؟ قول لي إننا هنرجع!

قال ياسين بلهجة عملية:

- الأول لازم نلاقي أي شكل للحياة، نهر أو نباتات أو أي حيوان.. بعدها نمشي ورا الاحتمال الأفضل.. إن فيه بشر ونبدأ ندور عليهم.

بدأ خيري ينقش بقدمه على الرمال كلمة Help وتعمد أن يكون حجمها كبيرًا، حتى لو مرت طائرة تلمحها.. واقترح على ياسين البحث عن مصد للنيران، أمن ياسين على كلام صديقه، قالت نادين بنصف وعي وهي تنفض الرمال عن شعرها:

- ياسين إوعدني نرجع!

قال ياسين مطمئنًا:

- أوعدك، بعدين موضوع الثقب ده مجرد فرضية.. ممكن تطلع غلط أصلًا.

قال بركة بلهجة مقتضبة:

- عايز أدفن أبويا.

نظر له خيري بهدوء، وقال:

- تعرف تشيله؟

أومأ بركة في إيجاب، كان بدينًا قليل الذكاء لكنه على قدر من الصحة، كما أن ياقوت كان نحيلًا، قال خيري لصديقه ومحبوبته:

- أنا هاخد البركة ده ونمشي لقدام، وأنتم هتمشوا لورا.. خلي مشينا كنه في خط مستقيم بدل ما نتوه في الصحراء، وكل عشر خطوات سيبوا أثر وراكم على الأرض.. وأول ما الشمس تغرب نرجع في نفس الاتجاه لحد لما نتقابل.. واللي يلاقي بشر أو أكل يرجع بيهم للتاني.

لم يجد ياسين خيارًا آخر، ولا مقترحًا أفضل مما قال خيري، فكر ياسين في طريقة اقتسام الصحبة معه، فخيري الآن معه شاب مصاب بمتلازمة داون وجثة، وهو معه أنثى خائفة!

ربت ياسين على كتفي نادين، وطلب منها النهوض والحركة، وكان وعده أن يعودا للحاضر في أسرع وقت.. لمح بركة وهو يحمل جثمان والده، فسقط مسدس من جيب جلباب ياقوت، التقطه خيري بسرعة ووضعه في جيبه.. لم يعترض ياسين، فهو لا يستطيع استخدام المسدس من الأساس.

تحرك ياسين لمدة قدرها في عقله بساعة ونصف، كان كل ما يريده هو العثور على «أثر».. أي أثر لأي مكانٍ، أين هو على خريطة العالم.. أي «أثر» يرشده إلى طريق العودة..

لمح مجموعة الفرسان يمتطون حيوانات شبيهة بالأحصنة، لكنها كانت مختلفة قليلًا عنها، كانت أضخم حجمًا وأقرب للبغال، لكنها كانت جميلة المظهر كأحصنة السباق، لم يفهم ياسين هذا الخليط الغريب.. اقترب راكضًا من الفرسان الذين تعجبوا من ملابس ياسين ونادين التي لا تشبه أزياء هذا العصر، سألوه عن أصله، فصاح ياسين أنه تائه في هذا المكان، نظر له قائد هؤلاء الفرسان وقال بلهجة حاسمة:

- هذه حدود المملكة، لا يفترض لأحد التواجد فيها من الأساس!

كان حديث الفارس عربيًا، بلهجة غريبة على آذان ياسين ونادين.. لكنه برغم هذا كان مفهومًا.. نفى ياسين محاولته للهرب، اصطنع الغباء وأنه لا يذكر أي شيء عن حياته الماضية، وأن نادين هي أخته، وأنهما لا يحاولان الهرب بأي حال.. لكن قائد الفرسان لم يصدقه، تعجب الفارس من لهجة ياسين الغريبة دون أن ينتظر تبريرًا منه، قال الفارس بلهجة حاسمة وهو يشهر سيفه ويضعه على رقبة ياسين:

- باسم الملك الناصر، حفيد الملك المُوحِد، وقائد مملكة المخلدين.. ألقي القبض عليك بتهمة خيانة المملكة.

٥- مملكة المخلدين

استيقظ ياسين بعد ساعات من السير الطويل عبر صحراء شاسعة مترامية، فتح عينيه لكن الظلام لم يتبدد، وكأن الظلام يقبض على روحه قبل عينيه.. بدأ يتحسس ما حوله في فزع.. كان نائمًا على أرض رطبة مغطاة بالطين في أغلب مواضعها، شعر بألم يعتصر فقرات ظهره، حاول أن يفرده حتى يقلل الألم، كان على يقين أنه سيفتقد مسكن الآلام أكثر من أهله في هذا العالم الغريب، حاول الاعتماد على حواسه الأخرى؛ فاستنشق الرائحة من حوله ليجدها خليطًا من عرق بشري ورَائحة عطن الأرض.. نهض متأوهًا، وبدأ يتحسس الأجساد من حوله.. كان المحيطون به جالسين وواقفين، لكنهم لا يصدرون صوتًا، لم يسمع منهم سوى أنفاسهم.. همس ياسين في خوف:

- لمَ لا تتحدثون؟ أين أنا؟ وماذا أفعل هنا.

لم يتلقَ ياسين ردًا، فكرر حديثه صارخًا. لم يشعر إلا بأحد الأجساد وهو يضع يده على فمه ويهمس في أذنه محذرًا:

- ممنوع الكلام في الليل، انتظر للصباح وصح كما شئت.

شعر ياسين بأنه يعيش أحد كوابيسه الطويلة.. فرد ظهره على الأرض، وبدأ في التفكير مستعيدًا اللحظة التي قبض عليه فيها، حاول شرح موقفه للحراس لكن أحدًا لم يسمعه، لم تتوقف نادين عن البكاء والصراخ والاستنجاد بياسين، لكن الصدمة حجّمَت عقله عن التفكير، كانت ملابس الفرسان غريبة ولهجتهم العربية أكثر غرابة، وكأنه رجع بالزمن إلى أحد عصور مصر الفاطمية أو العباسية، لكنها لا تشبههم كذلك.. كانت الأحصنة غريبة المظهر أكبر من المعتاد، كأنه انتقل إلى كون موازٍ للأرض في عصرٍ من عصورها القديمة!

بعد مسيرٍ استمر لساعات، رفض الحراس الخمسة الحديث مع ياسين أو نادين، أو حتى إخبارهم بوجهتهم القادمة، توقفت ذاكرة ياسين عند وصوله إلى بوابة قلعة كبيرة، وقرار الحراس بأخذ نادين إلى مكانٍ آخر لم يفصحوا عنه، حاول مقاومتهم والبقاء معها لكنهم ضربوه على رأسه ففقد الوعي، واستيقظ في هذه الزنزانة المظلمة التي لا يعرف حجمها ولا ملامحها، ولا حتى شكل رفاقه فيها.. كان ينتظر الصباح بفارغ الصبر، على الأقل سيستعيد بصره الذي ذهب مع عتمة هذا السجن الذي أنساه كل الحواس.

كان تفكيره عائمًا بين حالة وأخرى، فتارةً يشعر بالحماس لهذه المغامرة الجديدة، ومرة أخرى يشعر بالخوف، فهو لا يعلم أي شيء عما حدث له.. كل ما يعلمه أنه الآن في زمن غير العام ٢٠٢٥، وفي مكان آخر غير القاهرة التي لم يعرف سواها موطنًا.. هو الآن في زمنٍ آخر وفي عصر من عصور التاريخ التي لم يكتشفها بعد، فكل ما سمعه من الحراس هو جملة «مملكة المخلدين».. ففي أي حقبة تاريخية وجدت هذه المملكة؟ لا يعلم.

تقلب على جانبه الأيمن، التقطت أنفه رائحة أحد المساجين بجواره، فأغلق أنفه.. حاول ترتيب أفكاره.. كانت الأولوية الأولى هي معرفة أين موقعه الحالي، مكانيًا وزمانيًا، وثاني الأولويات هي محاولة العثور على نادين التي افترقت عنه بعد أن تم القبض عليهما، وبعد ذلك يجب أن يدركا سويًا قواعد هذا العالم الجديد، ومن ثم يقومان بتجميع الثلاثة الذين ورطهم ياسين دون ذنب في هذه الرحلة الغريبة..

فكر في رد فعل والده على غيابه عن المنزل، فبحسب تقديره مر أكثر من ثلاثة أيام.. غالبًا سيخمن الأهل أن ياسين قد هرب من البيت مع نادين كأي عاشقين، ولكن إن لاحظ الوالد اختفاء خيري كذلك فسيصبح الأمر جينها مريبًا.. وماذا عن أعضاء الفريق الذين لن يجدوا من آثارهم سوى سيارة خيري..

وماذا سيفعل هذا الثقب الأسود ذو الطاقة المحدودة في الأرض، هل سيحتويه العلماء، هل ستأتي بعثة من منظمة CERN خصيصًا إلى مصر لاحتواء هذه الكارثة؟ أم أن الوقت لن يسعفهم، هل سيبقى هناك عالم يفتقد ياسين ورفاقه، أم أن هلاك العالم سيكون أسرع من هلاك ياسين في هذه الدنيا الجديدة عليه؟!

لم يشعر ياسين بجسده وسط انسياب الأفكار، سقط في نوم مضطرب، وفي عقله كلمة واحدة تتردد: «مملكة المخلدين».

كان نوم ياسين مضطربًا خاليًا، من الكوابيس، استيقظ على صوت ضربات من قدم أحد الحراس، نظر حوله في شوق لرؤية هذه الزنزانة، كانت الجملة غريبة في أذنه، لكنه طالع الزنزانة بشغف حقيقي لرؤية المكان الذي بات فيه ليلته الأولى في هذا العالم.

كان المكان عبارة عن سجن شديد الاتساع، استلقى على أرضه الرطبة أكثر من مئة رجل، يبدو عليهم جميعًا الفقر الشديد، لاحظ ياسين أنهم لا يرتدون زيًا موحدًا كالسجون في عصره، كانت الملابس قديمة ومهترئة، بعضهم كان يرتدي بناطيل واسعة متسخة مربوطة حول خصورهم بحبل بدائي، كان كل شيء قديمًا عما اعتاده.. لاحظ ياسين أن الرائحة صباحًا أشد سوءًا من سابقتها ليلًا..

لا توقظه هكذا، فهذا يومه الأول هنا.

خرج صوت كبير الحرس أجشًا وغاضبًا من الحارس الذي ركل ياسين، نظر له ياسين مبتسمًا في امتنان، لكن كبير الحرس لم يبادله الابتسام واستدار سريعًا.

تحرك ياسين وسط المساجين، لا يفهم حتى الآن ما هي تهمته، لا يعرف أي مصير يواجه نادين في هذه اللحظة.. الغربة هو ذلك الشعور الذي تملكه أكثر من أي وقت مضى، تحرك في ردهة طويلة مظلمة حتى وصل إلى صالة وسيعة تتوسطها مائدة خشبية بدائية الصنع، لاحظ أن كل شيء في هذا المكان بدائي، بدايةً من الحوائط المبنية بالأحجار الضخمة، مرورًا باختفاء الديكورات التي يعرفها في عصره، كان المكان أشبه بسجون العصور القديمة التي رآها في الأفلام، وامتلأت أركان الحوائط بالمشاعل.

جلس ياسين على أقرب مقعد، نظر إلى يمينه فوجد رجلًا عجوزًا، عرف فيما بعد أنه يدعى «وردان».. نظر له العجوز مبتسمًا وقال:

- سمعت من الحرس أنك جديد هنا.

رد ياسين وهو يتلفت حوله في غير فهم:

- أين نحن؟ في أي عام؟ في أي بلد؟ أخبرني أي معلومة!

نظر له العجوز مندهشًا من السؤال، فقال ياسين مستدركًا:

- لقد ولدت وعشت في الصحراء خارج بوابات هذه المدينة، كنت مع أختي، ولا يعرف أحدنا أي شيء عن هذه البلدة.

حاول ياسين التفرس في ملامح العجوز ليعرف ما إذا انطلت عليه الكذبة أم لا، لكن العجوز رد في بساطة وهو ينظر نحو الحراس وهم يحملون أوعية ضخمة ممتلئة بالطعام:

- نحن في مملكة المخلدين، واحدة من ثلاث ممالك في هذا العالم.. وبالتحديد في قطاع التابعين.

سأله ياسين وقد وجد ضالته في هذا العجوز:

- وكم قطاع في مملكة المخلدين؟

رد العجوز وهو يتابع حركة الحراس بأوعية الطعام:

- خمسة قطاعات.. جميعها يخضع لسلطة الملك الناصر.. وكل قطاع عبارة عن مدينة واسعة، ويعتبر الخروج للصحراء التي تفصل كل مدينة عن الأخرى بدون إذن حاكم القطاع خيانة للمملكة كلها.

نهض العجوز ليتناول وعاءين، وضع واحدًا أمام ياسين، والآخر أمامه، كان الوعاء كبيرًا ممتلئًا بمادة تشبه الأرز مخلوطة بنوع من اللحم المسلوق لم يستطع ياسين تمييزه.. نظر العجوز نحو نظرات الدهشة الممزوجة بالاشمئزاز في عيني ياسين، وعقب في فهم:

- بالتأكيد لم تجرب لحم الأحصنة في الصحراء.

انكمش أنف ياسين في تقزز حقيقي.. لكن العجوز أكمل شارحًا:

- يجب على الحراس الاهتمام بإطعام التابعين جيدًا، فهناك الكثير من العمل ينتظرنا.

سأله ياسين:

- التابعون؟ ولماذا نحن تابعون؟

اقتحم الحديث رجل ثالث، عرف ياسين لاحقًا أن لقبه «صاحب العصا» بسبب عيب خلقي في قدمه يجبره على السير ببطء وباستخدام عصا خشبية سميكة.. تناول «صاحب العصا» الوعاء من أمام ياسين وقال:

- سأصدق أنك لا تعرف نظام المملكة وأشرح لك كل شيء مقابل هذا الوعاء، يبدو أنك لن تأكله.

نظر له العجوز نظرة نارية، فقد كان طامعًا في الوعاء هو الآخر.. قال «صاحب العصا» لياسين:

- التابعون هم الفقراء الذين تنازلوا عن حريتهم للمملكة حتى يعملوا خدمًا فيها مقابل الأكل والنوم.. وهم كذلك جميع المتمردين والخارجين عن قانون المملكة والعقيدة الكاملة التي تحكمنا.. جميعنا محكوم علينا في الحياة داخل «مسكن التابعين» الذي تراه، نأكل وننام ونذهب للعمل في باقي القطاعات حتى ينتهي يومنا، وهكذا.

سأل ياسين عن مفهوم هذه العقيدة الكاملة، فلم يبدُ على «وردان» ولا صاحب العصا أنهما يعرفان عنها الكثير، خمن ياسين أنها تشبه الديانة أو الطائفة التي يتبعها سكان هذه المملكة.. بدأ شعور الغربة داخل ياسين

يتبدد حين بدأ يتبادل المزاح مع «وردان» المتشائم وصاحب العصا الذي يسخر من كل شيء حوله حتى إعاقته نفسها.. وحل محله شغف كامل بهذا العالم الجديد، وكذلك خوف من المجهود الذي سيبذله خلال هذا اليوم، وقد ندم على التفريط في لحم الأحصنة، حتى لو كان لا يطيق رائحته، فهو طعامه الوحيد الآن.

لكن التأمل في وجوه التابعين الآخرين، خاصةً ضخام الجثث ممن تبدو على ملامحهم الإجرام وتمتلئ بالندوب والجروح القديمة.. تابع ياسين بعينيه كبير الحرس الذي كان يتمم على عدد التابعين، ويشدد على حراسه ألا يتمكن أحدهم من الهرب، مال صاحب العصا على أذن ياسين وقال:

- كبير الحرس يدعى «المشرف».. لا نعرف عنه الكثير، ولكن يقال إنه هنا منذ بداية حكم الملك رشيد بن الموحد والد الملك الناصر، الحاكم الحالي للمملكة.

قال العجوز بهدوء وهو يشرب المياه بعد أن أنهى طعامه بسرعة:

- «المشرف»، كان أحد جنود الجيش، يعيش في قطاع الحكم.. حتى ضبط زوجته مع أحد الأمراء المقربين من الملك رشيد، فقتلها وكاد أن يقتل الأمير، لولا أن حراس الأمير أنقذوا سيدهم، وأرسلوا «المشرف» الذي كان اسمه «سعد» آنذاك، إلى الملك رشيد الذي كان يحبه، فحكم عليه بالبقاء في قطاع التابعين مدى الحياة بدلًا من إعدامه مباشرةً، وأصبح كبير التابعين والمشرف عليهم.

كانت الأسئلة مزدحمة في عقل ياسين الهواري.. لكن صاحب العصا قرأ أفكاره بنجاح هذه المرة وقال:

- الملك الفريد كان حاكمًا حتى شهر مضى، توفي في فراشه مريضًا بوباء لا علاج له.. يقال إنه مات حزنًا حين تمرد العمال والفقراء على حكمه وعلى الضرائب التي كان يفرضها عليهم.

ضحك العجوز ساخرًا من هذا التبرير، وقال إن القادة لا يشعرون بمن هم أدنى منهم، وأن الفريد كان مجرد طاغية آخر.. لم يكن مثل والده الملك الموحد، الرجل الصارم الحازم في العدل، ولم يكن مثل ابنه ناصر الذي يُقال عنه إنه طيب القلب يحب كتابة الشعر.

حاول ياسين مقارنة ما يسمعه بما درسه من التاريخ، سأل بهدوء:

- الأجواء هنا تشبه مصر الفاطمية، أو العباسية.. في أي عصر نحن؟ في أي أعوام التاريخ نقع؟ ميلاديًا أو هجريًا!

بدا عدم الفهم على صاحب العصا، وكذلك العجوز، لم يفهما ولا مصطلحًا واحدًا مما قاله ياسين.. قال العجوز ببساطة:

- نحن في العام المئة وخمسة بعد التوحيد.

لم يفهم ياسين معنى هذه الجملة فقال صاحب العصا:

- لقد ربط الملك الموحد تاريخ المملكة من اليوم الذي وحَّد فيه القطاعات المختلفة فيها.. أما ما قبل هذا فقد أحرقه وقتل معظم من يعرفونه، حتى لا ينشروا مبادئ التفرقة بين الناس، لذلك لا نعرف الكثير عن آبائنا أو أجدادنا سوى أنهم كانوا يحبون الملك الموحد ويقبلون منه كل أمر.

قال ياسين في فهم:

- وبعد وفاة الملك الموحد خلفه الملك الفريد، وقريبًا أصبح الملك الناصر هو الحاكم.. أليس كذلك؟

قال صاحب العصا بصوت خفيض:

- هذا ما يبدو للجميع، لكن الأمر أكثر تعقيدًا مما تقول.

تهكم العجوز على ياسين قائلًا:

- لا أعرف كيف لأحمق مثلك أن ينجو في صحراء المملكة طيلة هذه الفترة دون من يرشده!

كان التابعون ينهضون من أمام الأكل واحدًا تلو الآخر، علم ياسين باقتراب نهاية وقت الإفطار، سأل رفيقيه عن سبب مجيئهما هنا ليصبحا من التابعين، رد صاحب العصا بهدوء:

- كنت أعمل في حرفة «الإضحاك».. أعرف أنك لم تسمع هذه الجملة من قبل، فأنت لم تعرف سوى قطاع الحكم الذي يسكنه الملك وجنوده، وقطاع التابعين الذي نسكنه نحن.. لكن قطاعًا ثالثًا خاص بالسوق والتجار، يوجد هناك مسرح كبير، هدفه إضحاك الناس، يجمع هذا المسرح جميع المختلفين مثلي.. سواء أصحاب الإعاقة أو ذوي الوزن الزائد أو أصحاب البشرة المختلفة، وهكذا..

ثم تابع صاحب العصا وهو ينهض بصعوبة متكئًا على عصاه:

كانت عروضنا قائمة على السخرية من الأحوال في المملكة، وتقليد رموز الحكم بشكل غير مباشر، وإضحاك الناس، معتمدين على أشكالنا الغريبة عنهم، حتى جاء اليوم المشؤوم، وقد تم تبليغ الملك الفريد الخبر فقبض علينا جميعًا، وأعدم قائدنا، وأغلق المسرح لأيام وعاد بوجوه جديدة تقوم فقط بالعروض التي تأتيهم مكتوبة من مقر الحكم نفسه.. سمعت أن الناس ابتعدوا عن المسرح من بعدها، ولكن أحدًا لم يفكر في التمرد لأجلنا؛ فنحن مجرد مضحكين.

نظر ياسين نحو العجوز منتظرًا إجابته، فقال العجوز بتلقائية:

- جئت هنا حين اشتد بي الفقر وأكل الهرم من جسدي، لم أقدر على العمل الطبيعي.. فتخليت عن حريتي مقابل الوجبة التي تأففتَ أنت منها.

تحرك ياسين في هدوء خلف التابعين، لا يعرف أين سيذهب ولا ماذا سيعمل، وفجأة شعر بقدم ضخمة تعرقله، فسقط على وجهه، نهض على صوت ضحكات بعضِ التابعين، نظر نحوهم ليجد رجلًا أسمر البشرة ضخم الجثة أصلع الرأس تمامًا، وقد احتلت ندبة كبيرة فروة رأسه.. نظر نحوه ياسين في غضب لكنه أدرك أن الرجل يستفزه لمعركة يهدر فيها دمه، فأكمل سيره، نظر نحوه مستنجدًا بصديقيه الجديدين، فوجد أنهما قد رحلا بهدوء.. كانت قاعة الطعام في مسكن التابعين خالية من الجميع إلا من هذا الرجل وأتباعه من جهة، وياسين مصحوبًا بحيرته وغربته من جهة أخرى.. سأل ياسين بلهجة متلعثمة:

- ماذا تريد؟

نظر الضخم نحو ياسين مبتسمًا، قرَّب وجهه منه وقال:

- أتعرف أنني لم أرَ أنثى واحدة منذ سنوات؟

فهم ياسين تلميح الرجل، وقد أدرك أنه تسرع حين وعده بأي ما يريده، حاول ياسين الفرار، لكن الرجل أمسكه من ملابسه، وقال له:

- ملابسك غريبة أيها التابع الجديد، هل أنت حقًا ابن الصحراء؟ كيف احتملتها بجسدك النحيل وبنيانك الضئيل؟!

كان طول الرجل ضعف طول ياسين، لم تخلُ بقعة واحدة في جسده من العضلات، كان يشبه المصارعين، تحسس الضخم وجه ياسين بهدوء،

أنه يستشعر ما بداخله.. كانت يده شديدة الخشونة والقذارة، حاول ياسين حبس أنفاسه حتى لا يشم كف يد الرجل الذي لم يعرف الاغتسال منذ سنين أبعد من المستقبل الذي جاء منه ياسين، وأخذ يفكر في الوقت نفسه في خطة للهروب من قبضة هذا الوحش، لكن صوتًا سمعه كالنجدة خلصه من الموقف كاملًا:

- اتركه يا صخر، هذا التابع جديد، ولا يدرك أي شيء عن المملكة ولا تفاصيلها.

كان صاحب هذا الصوت هو المشرف على التابعين الذي جاء لياسين كالنجدة من السماء.. نظر له صخر، فكر في الاعتراض على ما قال، لكن المشرف بادره بالتهديد:

- لو لم تتراجع حالًا سأجعلك تنظف مسكن التابعين كله اليوم أنت ورفاقك هؤلاء!

بصق «صخر» على الأرض في ضيق، وانصرف وخلفه رفاقه، فكر ياسين ساخرًا في شفقة على هؤلاء الرفاق التابعين لتابع مثلهم، وكأن العبودية صارت منازل هي الأخرى!

نظر نحو مشرف التابعين، علم أن شهرته هنا «سعد المشرف».. كان ياسين محملًا بشغف كبير تجاه هذا العالم، حتى وإن كان حقير الشأن فيه، نظر في وجه «المشرف» فإذا به يلاحظ عيبًا غريبًا في عينه اليسرى التي كانت بلا بؤبؤ واضح، وقد غيمت سحابة لبنية اللون عليها.. قال المشرف بلهجة قاسية:

- أنا لستُ أمك يا ابن الصحراء! يجب أن تتعلم قواعد المملكة سريعًا.

أشار المشرف برأسه نحو باب قاعة الطعام، حيث فر العجوز وصاحب العصا، وقال لياسين وهو يقترب منه:

- أول قاعدة، هي أنه لا صداقة بين التابعين، فمن يدعي محبتك اليوم، سيمد يده ليطعنك غدًا.

لم يفهم ياسين ما قيل، كان مشغولًا مع رائحة العطن المنبعثة من فم مشرف التابعين، وقد خمن أن هذه الرائحة بسبب قلة كلامه وكذلك زهده في متع الطعام والشراب.. قال المشرف لياسين:

- مهمتك اليوم في قصر الملك الناصر، ستجدها شاقة بالطبع، ولكن تأكد أن تنظيف قصر الملك أفضل كثيرًا من تنظيف عنبر التابعين، أو غسل ملابس الجند.

أومأ ياسين برأسه مطيعًا، تحرك خلف المشرف وقد حاول الإسراع في خطواته، لكنه لم يجارِ هذا القوي صاحب العين المطموسة، قال المشرف للهواري:

- غدًا ستبدأ منافسات التابعين، وإن كنت لا تعرفها فهي طقوس ترفيهية لإمتاع الملك وحاشيته، غرضها الأساسي تقليص عدد التابعين للنصف.. وفيها يتقاتل اثنان من التابعين بالسيوف في ساحة القصر، والمنتصر في هذا النزال هو من يقتل منافسه.

قاد المشرف ياسين نحو عربة بدائية يجرها الكائن شبيه الحصان، وجد ياسين بداخلها العجوز وصاحب العصا، مال المشرف على أذن ياسين وقال له وهو يشير نحوهما:

- سأسمح لك باختيار منافسك من بينهما، ولتنجُ هذا العام من تصفية التابعين.

بدا على ياسين الحيرة، قال للمشرف:

- لا أستطيع الاختيار، فكلاهما صديقي.

نظر له المشرف بعينه السليمة وقال وصاح فيه وهو يبتعد عنه:

- تذكر القاعدة الأولى، لا صداقة بين التابعين.

تحركت العربة متجهةً نحو قصر الملك الناصر، علم ياسين أن قطاع التابعين قريب من قطاع الحكم، والذي يضم قصر الملك الناصر، وبعض البيوت الفخمة للحاشية والوزراء والمستشارين، وأن حدود القطاع هي القلعة التي يسكن فيها جنوده الأشداء، والتي تحميه من أي هجوم مباشر على الملك.. باختصار كان القطاع أشبه بمدينة يتجمع فيها صفوة المملكة.

علم ياسين بعد فترة أن علماء المملكة وحكماءها ومهندسيها سكان قطاع الحكم أيام الملك الموحد، والتغيير الذي حدث بعد ذلك أنهم نقلوا ليعيشوا مع التابعين في عنابر، مع امتيازات أفضل قليلًا من التابعين، وإن ظلوا مهملين، وليسوا أصحاب رأي في شؤون البلاد.

نظر ياسين نحو صاحبيه محتارًا فيمن يختار، العجوز أم صاحب العصا.. حاول كل منهما أن يقنع ياسين باختياره، حتى قال العجوز بلهجة مستسلمة:

- للأمانة كلانا يراك صيدًا ثمينًا، ووسيلة للنجاة من قتال التابعين، فجسدك الهزيل ونظرتك الحائرة في كل ما يحدث، وعدم إدراكك التام لعالمنا.. سيجعل منك منافسًا سهل المنال.. اخترني، فأنا الأضعف من بين جميع التابعين، أنا أكبرهم سنًا يا ولدي.

قاطعه صاحب العصا بصوت عالٍ:

- لا تصدقه، هذا العجوز ماكر، آخر منافس قال له نفس الكلمات.. وفي الليل قام دس له سمًا بطيء المفعول، وحين بدأت المبارزة انهار خصمه أمامه، وقتله العجوز بسهولة.

رد العجوز على صاحب العصا:

- ألم تفعل نفس ما فعلته من قبل؟

نظر لهما ياسين لا يصدق ما يسمعه، كان يرى فيهما صديقيه، ودليله إلى هذا العالم الجديد، لكن الوضع لا يحتمل صدمات بشرية، فيكفيه صدمته في الزمن والمكان الذي وجد نفسه فيه.. وعدهما أنه سيفكر في منافسه من بينهما، لكنه قرر ألا يعطيهما فرصة النجاة على حسابه مهما حدث.. مال عليه العجوز وقال له كأنما يكافئه:

- القطاع الثالث من المملكة بعيد عن القطاعين الأساسيين.. وهو قطاع خاص بالكاملين، وتحديدًا الملتزمين منهم، و«الكاملية» هي العقيدة الأخلاقية التي نتبعها هنا في مملكة المخلدين.. وهناك يحرصون على الالتزام بالأخلاق التي تجعل من الفرد إنسانًا حقيقيًا.

خمن ياسين الهواري أن هذه العقيدة هي بديل الدين لدى هؤلاء القوم، وأن ساكني القطاع الثالث من يحتكرون لقب الكاملين، وهم الجانب الموازي للمتشددين دينيًا في عالمه.

لم يقبل صاحب العصا أن يستفرد العجوز بياسين، فقال هامسًا:

- أما القطاع الرابع فهو على النقيض تمامًا، فقد أطلقوا على أنفسهم لقب «النواقص»، حتى يرفعوا عن أنفسهم حرج الخروج

عن قواعد العقيدة الكاملية.. وهم مجموعة من التجار وأشاوس الحرب السابقين لدى الملك الموحد، ويعيشون في حياة مرفهة لا يحكمها إلا المجون.. لا يدعون أي شيء ليس فيهم، يباشرون تجارتهم وأسواقهم بالصباح، يأتيهم جميع الناس من كل أنحاء المملكة لشراء بضائعهم، ويقضون ليلهم ينفقون أرباحهم في الحانات وبيوت البغاء.

سأله ياسين مستنكرًا:

- وكيف يتركهم الملك الناصر يخرجون عن عقيدة مملكته؟

رد العجوز:

- وجودهم يبرر الكثير من الأفعال غير الأخلاقية التي يرتكبها المقربون من الملك، وأحيانًا الملك نفسه، كما أنهم المسيطرون على أموال المملكة، ولديهم حرسهم من الجنود السابقين للملك، لذلك يمكن اعتبارهم قومًا مستقلين عن حكم الملك الناصر، بعكس باقي القطاعات.

سأل ياسين سؤالًا بديهيًا بخصوص القطاع الخامس والأخير، فرد العجوز بلا مبالاة:

- هذا القطاع الذي يعيش بجوار النهر على حدود المملكة.. أطلق عليه «قطاع الزهاد».. لا ضرر منهم ولا خير، هم يعيشون حياة منعزلة عن كل شيء، لا يؤمنون بالعقيدة الكاملية ولا أي شيء، إنما حياتهم تعتمد على الإيمان بالأساطير والخوارق.

اعترض صاحب العصا على وصف العجوز قائلًا:

- الزهاد أهل علم حقيقي، وقد كان معي في المسرح زميل يجيد السحر والتواصل مع الكائنات الأخرى في هذا العالم.

توقفت العربة أمام المدخل الخلفي للقصر، فدخل التابعون واحدًا تلو الآخر، وحولهم الحرس يدفعونهم دفعًا نحو الباب الخلفي للقصر.. أنهى العجوز شرحه لياسين قائلًا:

- قبل عصر الملك الموحد كانت هذه القطاعات متفرقة، لكل منها حكمَ مستقل.. ولكن الملك قام بتوحيدها جميعًا تحت راية قطاع الحكم، بعد معركة طويلة مع حكام كل قطاع، وأصبح يدير هذه القطاعات من هذا القصر الذي ستنظفه الآن.

سأل ياسين سؤالًا بديهيًا وقد تعمد توجيهه لصاحب العصا حتى يحسه على الكلام هو الآخر:

- وماذا كان اسم الملك الموحد قبل أن يقوم بتوحيد هذه الممالك جميعًا؟ وكيف كان شكل الحياة قبل التوحيد؟

قال صاحب العصا:

- لا أحد يعرف، حتى هذا العجوز، فنحن لا نعلم الكثير عن تاريخ ما قبل التوحيد، وقد أحرقت جميع الكتب التي كانت تؤرخ لهذه المعركة وتوابعها.. لا نعرف عن هذه الفترة أكثر مما تعرف أنت أيها الغريب.

كان ياسين الهواري منبهرًا بالأسلوب المعماري الذي تم على أساسه تشييد هذا القصر، كان واسعًا مشيدًا بحجارة ضخمة ملمسها أقرب للرخام، كما أن هناك خدعًا هندسية لم يفهمها ياسين جعلت القصر كأنه مطلي بحجر كريم يتغير لونه من آنٍ لآخر، فبالطبع لن تكفي

الأحجار عامرة لتغطية محيط هذا القصر.. كان واسعًا مكونًا من ثلاثة طوابق، وقد عرف ياسين من أحد التابعين أن الطابق الأرضي للحاشية والخدم، والطابق الأوسط لأسرة الملك، أما الطابق العلوي فهو جناح الملك الشاسع، الملحق بغرفة العرش الذي يجلس عليه طيلة النهار يباشر عمله مع وزرائه ومستشاريه.

كما أن الملك الناصر، هو حاكم شاب لم يتجاوز العشرين، وقد خطب في شعبه المتمرد أنه قد أتى بمبادئ جديدة بعد تجربة أبيه الفاشلة. وأنه قد احتوى التمرد مؤقتًا بخطبته، لكن في الوقت نفسه رفع الضرائب عليهم، فلم يقنعهم هذا الحاكم الشاب بحزمه وصرامته. فحاولوا التمرد عليه مجددًا، لكنه لايزال يقاوم هذا التمرد بالسلاح وبمنافسات التابعين التي ستجعل الناس ينسون همومهم، ويشكرون حظهم أنهم ليسوا تابعين يقاتلون من أجل الحياة ليس إلا.

توجه ياسين نحو غرفة الخدم ليتسلم مهمته، علم أن المشرف لم يصطحبه للقصر بسبب الشفقة، وإنما بسبب نحول جسده، عكس الباقين، فقد كانت مهمته وضع بعض العطور في قنوات التهوية المحيطة بالقصر، حتى تصبح رائحة الغرف أفضل.

كان نظام التهوية عبقريًا، فالقصر محاط بقنوات أشبه بأنابيب معدنية متصلة ببرج عال مشيد بجوار القصر، يعمل هذا البرج على حجز الهواء البارد من أعلى، ويتم نقله في القنوات المحيطة بالقصر لينبعث الهواء البارد في جميع الغرف، ويتم تثبيت أعلى هذا البرج سلك معدني لمنع دخول الحشرات والثعابين.

كانت مهمة ياسين واضحة ومحددة، وقد ذكرها له مشرف التابعين أكثر من مرة:

- «ستدخل بجسدك النحيل في قنوات التهوية المحيطة بالغرف، وتثبت فيها المادة التي سأعطيك إياها، فهي مادة معطرة تجمل رائحة الغرف، بعد هذا ستقوم بترتيب غرف الملك وأسرته.. تحرك بحرية بين غرف الطابق الثاني، فالملك وأسرته قد انتقلوا لقصر بديل حتى ينتهي التابعون من التنظيف، فهذه قواعد المملكة، ولكن لا تقترب من آخر غرفة في الرواق.. فهي تدعى الغرفة المحرمة، ولا أنا ولا غيري يعرف من يوجد فيها.. إياك والاقتراب منها».

نفذ ياسين مهمته في نجاح، كان يقضي ضعف الوقت المطلوب داخل كل قناة، فهو كان يسمع بوضوح ما يدور بين الحاشية من حديث، وقد عرف الكثير من المعلومات عن الملك الناصر، فهو حاكم شاب لا يثق في قدرته، وقد أعاد قائد جيوش جده الملك الموحد، وهو يدعى «القائد سليمان الراشد»، ليصبح نائبه في الحكم.. بعد أن عزل الأمير «أنسي»، وهو ابن عمه الشاب الذي كان نائبًا للملك الفريد.

عرف كذلك أن هناك نظامًا أشبه بنظام ملكات اليمين، وهن مجموعة من الفتيات يلقبن بـ«مبهجات الملك»، ومهمتهن الوحيدة هي الحفاظ على مزاج الملك صافيًا مهما تطلب الأمر.. دعا ربه أن تكون نادين أصبحت خادمة وليست من مبهجات الملك، حتى لا يمسها الملك ولا أي من حاشيته.

سرح قليلًا وهو يحشر جسده الضئيل ليدس المادة العطرة في القنوات الهوائية، كاد أن يتعثر لكنه تمسك بطرف القناة، تذكر أنه غدًا سيضطر لقتل رجل عجوز أو رجل معاق على مرأى ومسمع من الطبقة الحاكمة لمملكة المخلدين، كان الشعور غريبًا؛ فهذه المرة الأولى التي سينتزع فيها حياة شخص، ولكن هذا الإجراء ضروري لنجاته هو، فكر في الهروب

ليلًا، لكنه لن يهرب قبل العثور على نادين.. فهو من أتى بها إلى هذا العالم، وحمايتها مسؤوليته.. سيدخل النزال، وسيفكر في حل آخر غير القتل، ولكن السؤال الملح الآن: من سيختار لقتاله، العجوز أم صاحب العصا؟ كلاهما ضعيف، وكلاهما سيقتله إن أحسن إليه.

كان ياسين قد عرف بعض المعلومات المهمة عن العالم الذي انتقل اليه، لكن فضوله كان يزداد أكثر كلما عرف، كان يعلم أن التابعين سيرحلون جميعًا من القصر في الغروب، وقد أصابه الإنهاك من كثرة العمل الجسدي الذي لم يعتده، وكذلك كان يعرف أن هناك أولويات للمعرفة.. انتهى من تعطير قنوات التهوية ثم توجه نحو غرف الملك وحاشيته لترتيب ملابسهم الفخمة المرصعة بالمعادن اللامعة والأحجار العامرة.. كان يستطيع بسهولة تمييز غرفة العزاب عن المتزوجين منهم.

ولكن على الرغم من كل هذا، ظل موضوع «الغرفة المحرمة» الموجودة في نهاية الرواق مثيرًا لفضوله أكثر من أي شيء آخر.. تلفت حوله فوجد جميع التابعين مشغولين في تنظيف الأرضيات والغرف، وكذلك في تنظيف نظام الصرف الذي كان مبتكرًا ويعتمد على أساليب بدائية لكنها ترتكز على نفس المبادئ التي عاصرها ياسين في حياته الأصلية.

تصرف ياسين بشكل عادي، كأن ينهي عمله في تنظيف الغرفة المجاورة للغرفة المحرمة، وقد اقترب أكثر مما ينبغي لأحد أن يقترب، كان يعلم أن التابعين لو رأوه الآن لما تركوه إلا بعد إبلاغ المشرف، لكن الفضول كان أقوى من خوفه، اقترب نحو باب الغرفة المحرمة، كان الباب مختلفًا عن باقي الأبواب، فقد كان حديديًا خاليًا من أي نقوش عكس باقي الأبواب، كما كان محصنًا تحصينًا زائدًا، ومقبضه محاط بالسلاسل، كان فتحه مستحيلًا، لكن ياسين كان يريد أن يسمع أي شيء يدور بالداخل، فمال

برأسه بالقرب من مقبض الباب، وبالفعل سمع صوت حركة بالداخل، حاول أن يميز هذا الصوت...

حينها شعر بقبضة شديدة القوة تمسكه من رقبته وترميه بعيدًا حتى بلغ منتصف الرواق، وكان هناك ألم عظيم في ظهره، نظر نحو من منعه من دخول الغرفة، فإذا به يجد «صخر» أمامه.. لم يقدر ياسين على النهوض، توجه نحوه صخر، وأمسك برقبة ياسين وقال:

- ألم يخبرك المشرف أن هذه الغرفة محرمة على جميع التابعين، وحتى الحاشية؟ لا يقترب منها أحد. ولا يعرف أي منا محتواها؟!

لم يرد ياسين، كانت قبضة صخر تعتصر عنقه. وتابع وهو يهمس بين شفتي ياسين:

- نهايتك قد حلت باكرًا أيها الغريب.. فقد طرقت بابًا لا تعرف إلى أين سيؤدي بك!

حاول ياسين أن يرد، أو أن يتذرع بأي حجة لوجوده بالقرب من الباب، لكن صخر نظر له في شماتة.. وقد تجمع التابعون ليشاهدوا هذا الغريب الذي قد أتى في يومه الأول مقتربًا من الغرفة المحرمة. والتي كثيرًا ما حلموا بمعرفة محتوياتها.. كان لدى صخر مكانة خاصة وسط التابعين. وقد عرف ياسين لاحقًا أنه كان من الحرس الشخصي للملك الفريد قبل أن يتم عقابه ويصبح من التابعين.

قاطع هذا التجمع ظهور رجل وسيم قوي البنيان، شعره أشقر ويمتد إلى تحت رقبته، كان أزرق العينين، يرتدي ملابس فخمة؛ درع فولاذية مرصعة بالفضة، ويبدو أكثر قوة ونشاطًا من حراسه أنفسهم.. خمَّن ياسين أنه هو الملك الناصر نفسه، فقد كانت هذه المرة الأولى التي يرى

فيها شخصًا من الطبقة الحاكمة في هذا العالم الذي لم يشهد فيه إلا تابعين وخدمًا.

قال صخر في سعادة:

- سيدي الأمير أنسي، ننتظر تصرفك مع هذا التابع الجديد الذي اقترب من الغرفة المحرمة!

نظر ياسين حوله ليجد كل التابعين قد ركعوا على ركبهم أمام الأمير أنسي، ففعل مثلهم ولم ينظر له في عينيه مباشرةً. تذكر ياسين الهواري أنه سمع اسم الأمير أنسي، حين كان ينظف غرف الخادمات. وأنه كان نائبًا للملك الفريد وابن أخيه، وقد تم عزله بعد وفاة الفريد وتعيين الملك الناصر.. وأنه شخص شديد الصرامة، لا يحب الملك الجديد، ويتوقع منه الجميع انقلابًا على الملك الناصر.

قال ياسين في توسل:

- سيدي الملك، أنا لم أعنِ شيئًا..

سمع ياسين شهقات التابعين، كانوا ينظرون له في خوف كأنه ارتكب جرمًا شنيع، وكذلك نظر له أنسي بشيء من الفزع، أدرك ياسين أنه أخطأ حين نادى أنسي بالملك وليس بالأمير.. حاول ياسين أن يفكر في مخرج، لكن مشرف التابعين ظهر له كنجدة من السماء، انحنى هو الآخر أمام الأمير أنسي الذي قال للمشرف:

- يبدو أن تابعيك قد نسوا أنهم مجرد خدم لدينا، ماذا تقول لهم عن أسيادهم؟

صمت المشرف وهمس قائلًا:

- هذا أول يوم له، هو لم يتعلم كلامنا بشكل متقن بعد، أرجو العفو.

ضحك أنسي قائلًا:

- لن أنتظره حتى يتعلم..

حاول المشرف مقاطعته، لكن أنسي صاح فيه قائلًا:

- صحيح أنك تابع مثلهم، ولكن لا تنسَ أنك تقف إلى جانبهم وليس جانبنا!

صمت المشرف تمامًا، وقد أغمض عينيه، السليمة والمطموسة، شعر ياسين بالذنب تجاهه.. لكن الذنب تبدل فزعًا حين قال الأمير أنسي:

- من كان سيقاتل هذا التابع الجديد غدًا؟

هم المشرف أن يجيب لكن الأمير أنسي قال وهو ينصرف نحو غرفته:

- لا يهم، سنجعله يقابل صخر في كل الأحوال.

نزل الخبر على قلب ياسين كالصاعقة، فبعد أن امتص صدمة سفره لمكانٍ وزمنٍ جديدين عليه انتقل لفاجعة كونه تابعًا في هذا العالم الجديد، ثم أصبح همه الوحيد هو أنه سيقتل للمرة الأولى في حياته.. ولكن الآن لا يحتل تفكيره سوى النجاة بحياته.. كان إيقاع الحياة في مملكة المخلدين سريعًا جدًا فيما يخصه، لم ينم ليلته وهو يفكر كيف سينجو من جندي سابق قوته تعادل ثلاثة رجال، رجل يفوقه طولًا وعرضًا، وقد قتل من البشر أكثر من عدد السنوات التي سافرها ياسين ورفاقه، والذين لا يعرف عنهم شيئًا، ولكن فيمَ تهم معرفته وهو سيكون صريعًا في الغد؟ ولن يتم في هذا العالم أكثر من يومين!

٦- مبهجة الملك

بعد أن ضلت في الصحراء مع ياسين وقبض الحراس عليها برفقته، لم تتصور أن يكون مصيرها مختلفًا هكذا، فهي الآن في مهجع خاص بها، صحيح أنه مجرد غرفة ضيقة بفراش بسيط، لكنه بالتأكيد ليس عنبرًا يجتمع فيه جميع أصناف الكائنات الحية، لا فرق فيه بين البشر والحشرات.. لكن الوضع مع نادين كان أفضل قليلًا من هذا.

كان السؤال الملح آنذاك، متى ستعلم والدتها باختفائها التام عن هذا العالم، وماذا ستظن هي وسائر معارفها، واختفاء خيري وياسين معها في نفس الوقت لن يجعلها تظهر كضحية لعملية اختطاف.. سيطلقون عليها الكثير من الألقاب، وستصاب والدتها بالعار مدى الحياة، يجب أن تعود سريعًا، يجب على ياسين أن يتصرف في هذا الأمر.

حاولت نادين طرق باب غرفتها، كان لديها الكثير من الأسئلة، لم يستمع إليها أحد من الحراس، وقادوها نحو قصر الحكم مباشرةً، وقد سمعت منهم أن ياسين سوف يكون مع «التابعين»، حتى يجدوا له وظيفة كخادم في القصر.. لم تفهم بعد في أي وقت من التاريخ نقلها حبيبها الذي تلعنه الآن، وفي الوقت نفسه لا أمل في النجاة إلا عن طريقه.

كانت منبهرة بنظام الإضاءة في الغرفة، فقد تم تثبيت المشاعل في أركان الغرفة الأربعة، لكنها مشاعل مغلقة بنوع من المعدن الشفاف يشبه

الزجاج، وبداخله شمعة لا تنتقص مثل الشمع الذي اعتادت عليه في عالمها.. كانت تريد إطفاء المشاعل؛ لأن نور الشمس دخل من الشرفة لكنها لم تستطع فتح المشاعل.. فتركتها.. كان هذا صباح اليوم الثاني لها في المملكة.

قطع أفكارها اقتحام امرأة شديدة الجمال، تجاوزت الأربعين لكنها تحتفظ بقوام العشرين المشدود، سمراء ذات شعر مقسم لضفائر كثيرة لا حصر لها، كانت تشبه الغجريات في مظهرها وشكلها، وقد وضعت كحلًا زاد عينيها السوداوين جمالًا على جمالها..

- يقول الحرس أن اسمك نادين، اسم غريب!

هكذا بدأت تلك المرأة الغريبة حديثها، أومأت نادين برأسها إيجابًا، فردت المرأة:

- أنا غالية، اسمي لا يحتاج لألقاب، فلا «غالية» في المملكة غيري.. لو كنتِ من أبناء المملكة لميزتي اسمي، أنا رمز الجمال والشهوة لهؤلاء المخلدين، أنا دليل ضعف الرجال، أشداء كثر كانوا يرتمون تحت قدمي، أنا البريق الذي يسرق، وأنا النصل الذي يجرح كمالهم المزعوم...

قاطعت غالية نفسها بنفسها، وقالت ساخرة من طريقة حديثها:

- كل ما سمعتيه لتوك مبالغة، أنا مجرد أسيرة مثلك في هذا القصر، لكنني أقدم منكِ قليلًا.

أحبتها نادين من الجملة الأولى، انبهرت بجمالها وحديثها الفاتن.. قالت غالية إنها ستحاول تصديق قصة نادين، وأنها غريبة عن المملكة، وقد بلغت الصحراء دون أن يلاحظ حراس حدود المملكة ذلك، وأنها

ستصدق كل شيء.. حاولت غالية الاقتراب من نادين والتي اشتمت فيها عطرًا يشبه رائحة الياسمين.. لكن اقتراب غالية كان أكثر من اللازم، وقد حاولت لمس رقبتها بأطراف أصابعها، فابتعدت نادين في حرج، فضحكت غالية وقالت:

- هذا الاختبار الأول، يجب أن أتأكد من رغبتك في الرجال.

ردت نادين لأول مرة.

- وماذا إن كانت رغبتي منعدمة في الجنسين؟

ضحكت غالية لتكشف عن أسنان شديدة الصفار تساقط معظمها وقالت بهدوء وهي تشير لعيني نادين وتتطلع في جسدها:

- لو لم يشتهِ هذا القوام أحد لقتلت نفسي في الحال، فأي حياة عادلة تلك التي تجعل هاتين العينين لا تشتيهان!

ضحكت نادين رغم الموقف، وشكرت غالية، لكن الأخيرة تحوّلت فجأة وقالت بصوتٍ خافت:

- الحياة هنا ليست سهلة كما تبدو، أي غريبة أو أسيرة مثلك ستخضع لاختبار حقيقي.. إما أن تصبحي خادمة، أو تصبحي مبهجة للملك.

بدا على نادين عدم فهم للمصطلح الأخير فقالت غالية شارحةً:

- المبهجة هي أشبه بزوجة الملك، يمكن للملك أن يقتني أي عدد يشتهيه من المبهجات، لكن الملك الناصر حتى الآن لم يشتهِ واحدة..

اقتربت غالية من نادين، كشفت عن جزء كبير من صدرها وهمست:

- حتى أنا لم يشتهيني، تخيلي؟ لقد شكت أمه الملكة في أمره.

اعتدلت غالية في جلستها مرة أخرى، كانت نادين مندهشة من قدرتها على التحول اللحظي من المزاح للجد.. لم تفهم بعد دورها في هذا القصر، حتى قالت غالية في غرور:

- أنا مشرفة المبهجات، ومؤسسة هذا النظام كله، لم أكن يومًا تابعة ولا مبهجة، لم يمسني الملك أو حاشيته يومًا.. لقد كنت أحكم قطاع النواقص، جميع التجار ورجال السوق كانوا تحت طاعتي وأمري، حتى حكم عليّ الملك الفريد بالأسر، وأن أصبح خادمة في قصره، عرضت عليه نظام المبهجات لتحسين وضعي هنا، وقد أعجبه.. أنا من صنعت هذا المفهوم، وأنا من علمت الخادمات كيف يصبحن مبهجات للملوك والأمراء.

وتابعت غالية بهدوء:

- القاعدة الأهم هنا، هي التراضي.. فلا خادمة تبهج ملكها إلا برضاها.. والبهجة تشمل الاستجابة لكل ما يطلبه الملك، أيًا ما كان، وكيفما كان.. لكن الملك الناصر شاب لم يتجاوز العشرين من عمره.. لم يفهم قيمة أن تسخر له أنثى تخدم كل ما يشتهي.. لذلك فقد طرد كل مبهجات أبيه وأعادهن للدور الأسفل ليصبحن خادمات في القصر.. ولكن السؤال الأهم: هل تريدين البقاء في القصر؟

سألت نادين في فضول:

- وهل يوجد خيار آخر؟

ردت غالية:

- هناك تاجر صديق يمكنه أن يطلبك من الملك لتصبحي زوجةً له، وزواج التجار مريح للبال أكثر من الجلوس في قصر لديك فيه خصوم أكثر من حوائطه.

فكرت نادين للحظات، تخيلت أن ياسين سيبحث عنها هنا، وأنها يجب أن تظل في القصر أطول وقت ممكن حتى يمكنه القدوم وتحريرها وتتم لها العودة إلى عالمها، فرفضت عرض غالية في حزم.. حينها صفقت غالية في سعادة وقالت:

- هذا كان الاختبار الثاني، لا تاجر يمكنه أخذك من هنا.. لكن يجب أن أتأكد من رغبتك في التواجد هنا.

شعرت نادين بخيبة الأمل، وسألت عن دورها في كل هذا، فقالت غالية وهي تشير خارج الغرفة:

- في نهاية الرواق يوجد جناح الملكة «مهدية».. وهي زوجة الفريد وأم الناصر، وهي الملكة حتى يتزوج ولدها ممن تحصل على التاج.. والملكة كأي أم قلقة على ولدها الذي لم يظهر أي عاطفة تجاه أي مبهجة حتى الآن، حتى الأميرات من أقاربه ومن أبناء الحاشية، لم يثرن انتباهه وقد انتشرت الشائعات حوله، خاصةً أن جناحه لا يدخله إلا الرجال، حاشيةً وحرسًا.

وقبل أن تعاود نادين السؤال قالت غالية وهي تمسك بيدها:

- حتى هذه اللحظة انتهى دوري، لا حديث أكثر من هذا إلا مع الملكة.

طلبت غالية من نادين أن تغمض عينيها، ظنت نادين أنها ستعصبها حتى لا ترى معالم القصر.. لكنها فوجئت بصفعتين قويتين جدًا من كف

غالية على وجهها، شعرت نادين بارتجاج شديد في عنقها، انقضت على غالية، لكن الأخيرة كانت قوية، فأحكمت قبضتها على نادين وأعادتها للفراش، وقالت بلهجة عاقلة:

- اهدئي.. الصفعة للمبهجة شفاء، تكسر كيدها وتذكرها بأنوثتها، تعيد إليها ضعفها، تجعلها فاتنة في عيون من يراها.

كادت نادين أن تسبها، لكن تذكرت أنها في موقف صعب. ناولتها غالية ملابس وعطرًا يخصها، وانتظرتها في الخارج حتى ارتدتها، ثم أمسكت بيدها، وتحركتا سويًا في الطابق الثاني من القصر، وتحديدًا في جناح السيدات، كان الحراس ذكورًا لكنها علمت فيما بعد أن جميع حراس الجناح النسائي من الخصيان الذين قطعت رجولتهم لتولي هذه المهمة.. وبالطبع هم معفيون من الحروب ويتقاضون رواتب أعلى من غيرهم بكثير.

أثارت حكاية الملك الذي لا يحب النساء اهتمام نادين، وقد بدأت تتخيل شكل هذا الملك في خيالها، رأته طويلًا يشبه أمراء الحكايات.

دخلت نادين لجناح شديد الفخامة، كانت جميع أحجار الحوائط مخفية خلف أبسطة بديعة الجمال، وقد فرشت الأرض بالوسادات الحريرية، ورسم على الحائط لوحة متقنة الرسم، عرفت نادين فيما بعد أنها تخص الملك الفريد خلال أحد حروبه ضد المتمردين، وكتب أسفل اللوحة بلغة المملكة «الملك الفريد، حاكم مملكة المخلدين، من العام الستين بعد التوحيد، وحتى العام المئة وعشرة».

كانت الملكة مهدية جالسة وسط أربع من خادماتها، جميعهن يرتدين الملابس الحريرية، شعرت نادين بشيء خاطئ في ملامح الملكة مهدية، فقد ملأتها التجاعيد، على الرغم من أن مظهرها يجعلك تظن أنها لم

تتجاوز الخمسين، كان كل شيء فيها شابًا ما عدا ثنيات وجهها التي تصرفت كما لو كانت مطبوعة على وجه امرأة عجوز.

لم تعلق نادين بالطبع على هذه الملحوظة، بدا على الملكة السعادة فور رؤيتها، تأملت صدرها ومنحنياتها دون أي حرج، لاحظت نادين أن قوامها مختلف عن كل السيدات اللواتي رأتهن في هذا العالم، فأجسادهن تشبه الرجال حتى وإن ظهرت فيها معالم الأنوثة بعض الشيء.. حتى غالية كانت تعوض قلة انحناءات جسدها بالسلوك الأنثوي وبتعبيرات الوجه بشكل أكبر.

لاحظت نادين فيما بعد أن جمع الشعر للخلف بطريقة «ذيل الحصان» هنا من علامات الجمال.. كانت تحب أن تترك شعرها سائبًا للخلف، لذلك بدت مميزة عن خادمات الملكة، أشارت الملكة للخادمات بالانصراف، وقالت لغالية بصوت تعمدت أن يصدر عنها عاليًا:

- اذهبي يا غالية وحضري العشاء للأميرة نادين، واستدعي الأميرة دانية من غرفتها للترحيب بصديقتها الجديدة.

نظرت غالية للملكة في دهشة، لم تفهم حرفًا مما قيل، وكذلك نادين، لكن الملكة أشارت لكليهما بحزم حتى خرجت غالية مع الخادمات، وتركت نادين في حيرة.. قالت الملكة مبتسمة:

- غدًا سيكون الظهور الرسمي الأول للملك الناصر، ستبدأ منافسات التابعين على البقاء بحضور معظم فئات شعبه، ويجب أن يظهر الملك أمام الناس في صورة الملك الواثق، وأن يخرس كل الألسنة التي تحدثت عن رجولته بالسوء، لذلك سيظهر بجوار محبوبته التي تقرب له من جهة الأم.

لم تفهم نادين ما قالت الملكة؛ فما زالت اللهجة غريبة عليها، أكملت الملكة:

- أنتِ! ستقومين بهذا الدور.

لم تتمالك نادين نفسها من الحيرة، طلبت منها الملكة الجلوس على مقعد مقابل لها، كان أبسط من مقعد الملكة الذي وضع بجوار فراشها الواسع. قامت الملكة بتناول قارورة بها سائل أحمر اللون، ووضعت منه القليل في كوب فخاري، وناولته لنادين، نظرت نادين للكوب، وقد عرفت محتواه من الشكل والرائحة. كان نبيذًا أحمر، تذكرت أنها جربته مرة مع خيري حين كانت على علاقة به.. ارتشفت منه بهدوء، وبدأت تسمع للملكة وهي تقول:

- لا يمكنني ائتمان أي أميرة على سر الملك، وعدم رغبته في النساء، لا تعرفه إلا مبهجة واحدة وغالية، وإن تكلمت إحداهن لقتلتها في الحال، لكن الأميرات دماؤهن غالية، ولكل منهن ظهير وعائلة يمكنها أن تحميها.. قطاع الحكم يعج بالأميرات وبنات الحاشية.

بدأت نادين تفهم ما ترمي إليه الملكة، وسألتها في همس لم يخلُ من احترام:

- مولاتي تقصد أنني سأمثل أمام الحاشية والشعب دور أميرة تقرب للملك من طرفك؟ لأنني بلا عائلة معروفة ويمكن التخلص مني إن حاولت إفشاء أسرار الملك؟

أومأت الملكة برأسها، فقالت نادين مستفهمة:

- وبالطبع إن حاولت الهرب سيتم ذبحي دون علم أو اهتمام أحد؟

ردت الملكة وهي تنهض لتنظر من شرفتها على الساحة الخلفية للقصر:

- بالضبط.. ظهورك جاء لنا في الوقت المناسب، فأنتِ أجمل من أي أميرة لدينا، وليس لديكِ أهل، مناسبة تمامًا لما أريده.

نهضت نادين بدون إذن ووقفت بجوار الملكة، راقبت الساحة الخلفية القصر، كانت عربات التابعين تنزلهم ليبدأوا في تنظيف الحديقة، ثم تنظيف القصر نفسه، كانت تعلم أن ياسين وسطهم الآن، لكنها لن تراه في القصر، فهي ستنتقل مع الملكة للقصر المجاور، فهذه قوانين المملكة، لا احتكاك بين الحاشية والتابعين..

كانت نادين تعلم أنه لا خيار لها سوى المماطلة في هذه الحكاية، سألت وهي تفكر:

- وماذا إن رفض الأمير صحبتي؟

قالت الملكة ضاحكة:

- بالطبع سيرفضك، فهو لم يقبل أي مبهجة لتبيت معه، لكنكِ سترافقينه أمام الحاشية والشعب فقط، وسأقنعه بالموافقة على هذا الادعاء.. انظري إلى مدافن السابقين.

شردت «نادين» ببصرها نحو ركنٍ من ساحة القصر، كانت تظن هذه الشواهد في البداية مجرد مبانٍ للزينة، فلم تكن تشبه شواهد القبور التي تعرفها في عالمها الأصلي، كانت عبارة عن قباب فضية اللون تعكس أشعة الشمس بشكل بديع.. عرفت فيما بعد أن أكبر هذه القباب يدفن فيها الملوك، والباقي يدفن فيها الأمراء وأفراد العائلة الملكية، وأن الذهبية منها للملكات والأميرات..

همست الملكة بلهجة ماكرة:

- ألا تحلمين بأن يتم دفنك وسط هؤلاء؟

كادت نادين أن تسخر من عرض الملكة المغري، لكنها لم ترد.. فقالت الملكة هامسةً في مكر:

- الصدفة جاءت بكِ إلى القصر كغريبة، لا عليك سوى إبهار الملك بجمالك، وكتمان سره الوحيد الذي لا يعرفه أحد في هذا العالم سوانا.. أمامك فرصة للحياة كملكة، اغتنميها.

أدركت «نادين» أنه لا خيار ثالث أمامها؛ إما الحياة كملكة في زمانٍ ومكانٍ غريبين عنها، وإما القتل في الحال.. فأحنت رأسها للملكة كأنها ترتدي تاجًا وهميًا لا يراه أحد سواهما.

لفت نظر نادين قبة فضية شديدة الصغر عما حولها، فسألت الملكة عنها لتجيب الأخيرة قائلة:

- هذه مقبرة ابني الأكبر، الأمير يزن، الأخ الأكبر للناصر.. مات صغيرًا بمرضٍ نادر، كان غلامًا مغامرًا يحب التجول بين القطاعات المختلفة، حتى عاد إلينا يومًا محملًا بحمى لم نعرف من أين التقطها، ولا كيف نعالجه، كانت مقاومة جسده للأمراض ضعيفة، وهكذا مات.

بدا على الملكة التعب، دخلت عليها في هذا الوقت سيدة بيضاء، ترتدي ملابس شديدة الحشمة، وتجمع شعرها للخلف، شبهتها نادين في سرها بـ«أبلة الناظرة».. عرفت على الفور أن هذه الأميرة دانية زوجة الأمير أنسي.. نظرت دانية نحو نادين التي نظرت نحوها هي الأخرى، قالت الأميرة دانية وهي تضغط على حروفها:

- مولاتي، هل أنتِ متأكدة؟

ردت الملكة في حزم:

- لو خرج هذا السر من صدرك ستطردين أنت و«أنسي» من القصر.

بدا على دانية الفزع.. فاصطحبت نادين معها نحو القصر البديل بهدوء ليتم إخلاء هذا القصر.. قالت لها وهما يتمشيان بين أروقة القصر:

- أمرتني الملكة بأن أخبرك كل شيء عن المملكة، لا أعلم من أين أتيتي، ولا أهتم لذلك.. باختصار شديد أنا الأميرة دانية زوجة الأمير أنسي ابن عم الملك الناصر، والنائب السابق للملك الفريد..

سألتها نادين:

- ولماذا تم عزل الأمير أنسي بعد وفاة الملك الفريد؟ وأين والده عم الملك الناصر؟

لم ترد الأميرة دانية، أكملت حديثها قائلة:

- لا أحد يعرف مشكلة الملك مع النساء، ولا حتى زوجي..

قاطعتها نادين مستغلة ما سمعته من الملكة:

- لا تتجاهلي أسئلتي، هذه أوامر!

بدأت دانية تنزل سلالم الطابق الثاني من القصر، كانت الدرجات أكبر من الدرجات التي اعتادتها نادين في عالمها، لكنها كانت تعلم أن كل هذا وضع مؤقت حتى تهرب مع ياسين من القصر.. قالت دانية:

- لا أحد يعرف سبب عزل زوجي من نيابة الملك، لكننا نثق في قراراته بالطبع.. أما والد الأمير أنسي فهو الملك العطاء، وقد كان الأخ الأكبر للملك الفريد والوريث الشرعي للحكم.

سألت نادين عن سبب وفاة الملك العطّاء، فردت دانية في دهشة وهي تخرج من بوابة القصر الأمامية:

- ومن قال أنه مات أصلًا؟ لقد اعتزل الحياة وأقام في قطاع الزهاد، صحيح أن الزيارات منقطعة لكن أخباره تصل للأمير أنسي أولًا بأول.

همت نادين أن تسأل لكن دانية قاطعتها وقد قرأت ما في رأسها:

- أما عن سبب اعتزاله الحياة فلا أعتقد أنه يخصك، وإن سألتي الملكة لقالت لكي الكلام نفسه. لا تصدقي نفسك!

قالت نادين في حرج:

- كنت سأسألك عن غالية، كبيرة المبهجات.. لقد ذكرت لي أنها ليست خادمة هنا.

قالت دانية وهي تشير لها نحو قصر فخم لكنه أصغر حجمًا من القصر الرئيسي:

- غانية كانت حاكمة قطاع النواقص. لكن الملك الفريد علم أنها تتآمر مع بعض المتمردين على حكمه، فأسرها في القصر، وقام بتعيين ابنها الأمير «جعفر بن غالية» مكانها.. ولولا فكرة المبهجات لحكم عليها بالإعدام.

سألت نادين في حيرة:

- جعفر بن غالية؟ ألا أب له؟

قالت دانية مقلدةً صوت نادين:

- لا أب له، هذه حقيقة.

عرفت نادين الكثير من الأمور في جولتها مع دانية، عرفت أن دانية هي ابنة سليمان الراشد النائب الحالي للملك الناصر ونائب الملك الموحد في السابق، وهو رجل عجوز جدًا لكنه لايزال بكامل قوته الجسدية والعقلية، فبرغم أن عمره اقترب من التسعين، إلا أن مظهره لم يتجاوز الستين من العمر؛ وقد ائتمنه الملك الناصر على نيابة الحكم وعلى قيادة الجيش كذلك.. وقد أبعده الملك الفريد عن القصر طيلة فترة حكمه، حتى أعاده الناصر.. كانت حيرة دانية كبيرة فيما يخص منصب النائب الذي سُلِب من زوجها وذهب لأبيها.

عرفت كذلك بموضوع الغرفة المحرمة، والتي لا يعرف أحد حتى الآن محتواها، نظرت إليها من خارج القصر فوجدت شرفتها مغلقة بأسياخ معدنية.. وأن الجنود يسكنون في نفس القطاع بجوار قصر الحكم، وأن جميعهم يدينون بالولاء للقائد سليمان الراشد؛ لأنه من أبطال المملكة، وآخر من تبقى من عصر الملك الموحد.

كانت دانية قد حذرتها من ألا تنال إعجاب الملك، فقد تعود مرة أخرى لتصبح خادمة في القصر، أو يتم إعدامها.. وقد عرفت نادين أن الخادمات جميعهن مباحات لحراس الملك، فأي حارس يريد خادمة يطلب الإذن من الملك، وغالبًا ما يحصل عليه، وتصبح الخادمة ملكًا له، إما يتزوجها أو يستخدمها لإبهاجه.. كانت دانية تتحدث بمكر شديد، وقد أدركت نادين أنها ستكون مؤرقًا لفترتها المؤقتة داخل القصر.

قالت دانية بلهجتها الماكرة:

- سأحكي لكي قصة أيتها الغريبة.. كان هناك حارس شديد القوة يدعى صخر، طلب الإذن من الملك الفريد في خادمة، حين رأت الخادمة بنيانه رحبت به.. فلما نالها ماتت بين يديه من شدة

قوته، فعاقبه الملك بنفيه وسط التابعين، صحيح أن كل شيء تم بموافقة الخادمة، لكن الحرس غير مضمونين على الإطلاق.. لا مفر لديكِ سوى إبهار ملكنا الجديد: الملك الناصر بن الفريد من الموحد.

مر اليوم سريعًا على «نادين إمام»، سألت نفسها عن مصير خيري وياقوت وبركة، الثلاثة الذين انفصلوا عنهم سريعًا في هذا العالم، بحثت حولها في القصر، لكن بالفعل كانت القواعد صارمة، فهي لم ترَ رجالًا إلا من أقارب الملك من الأمراء. حاولت دانية تقديمها للبعض على أنها الأميرة الجديدة: قريبة الملكة «مهدية»، والمرشحة المحتملة لتصير ملكة لمملكة المخلدين.. لكن «نادين» ادعت أنا مرهقة ولا تستطيع التعرف على أحد، وأجلت كل شيء للغد، حيث التجمع الأكبر ومنافسات التابعين.

في نهاية اليوم توجهت نادين إلى جناح أكثر فخامة من الغرفة الضيقة التي سكنتها في ليلتها الأولى، شعرت في الجناح بروح ياسين تدب فيه، لم تعرف إن كان هو من نظفه أم أن هذا مجرد حدس كاذب.. جلست على فراش مريح، شكرت الظروف في سرها على وضع الملك تجاه النساء. فلولا هذا الوضع لاختاروا له أي أميرة جاهزة، ولرموها وسط الخدم أو تحت أجساد الحراس أو جنود الجيش.

لم تستطع النوم، ظلت تفكر في المسرحية الهزلية المطلوب منها تأديتها لحين ظهور ياسين وهروبهما سويًا من هذا القصر.. تعجبت من حظها في هذا العالم، فهو أفضل كثيرًا من حظها في عالمها الأصلي، في أقل من يوم تصبح مرشحة لأن تكون ملكة..

توقفت أفكارها عند هذه النقطة، وقد تذكرت تحذير دانية لها بألا تبهر الملك، نهضت ونظرت نحو مرآة ضخمة تحتل منتصف غرفتها، كانت

المرآة بيضاوية الشكل بحجم الحائط، بدأت تطالع جسدها وهي تتحسس تفاصيله، كانت تحب هذه الفترة من يومها، حين تنتهي من كل الأعمال وتقف أمام مرآتها لتكافئ نفسها على ما نالته من حظ في الجمال، كانت تحرص على ممارسة الرياضة حتى تحصل على هذا القوام المضبوط، والذي يبدأ بصدرٍ مشدود مرتفع، وبطن مستوية ومنحنى سفلي يجذب أشد الرجال.

سمعت صوت خطوات تقترب من الغرفة، عادت لفراشها واستكانت في هدوء، مثلت أنها تتصرف بعادية، شمت رائحة جسدها بعفوية، تعجبت من ذلك السائل الذي حصلت عليه من غالية.. كان مفعوله أفضل من أي شيء جربته في السابق.. لم تعرف تركيبته لكن غالية قالت أنه «عطر ملكي»..

دخل عليها شاب في العشرين من عمره، ممتلئ الجسد بعض الشيء كان في نفس طول نادين، أي أنه قصير القامة بالنسبة لرجل.. كان قمحي اللون أقرب للسمار، ووجهه مليء بالبثور.. لم تعرف نادين هوية هذا الغلام غريب الهيئة، كانت ملابسه بسيطة، لذلك لم تخمن نادين أنه من الحاشية.. لم يطلب الإذن للدخول.. لذلك فقد خمنت نادين للمرة الثانية أن لديه سلطة ما، أو معزة خاصة لدى الملك الناصر أو الملكة مهدية.. جذب الشاب مقعدًا من أحد أركان الغرفة، كانت المقاعد في مملكة المخلدين بثلاثة أرجل فقط، وغير مريحة تمامًا، فإما النوم في الفراش أو الاستلقاء على وسائد أرضية، ولكن فكرة الجلوس لم تكن مستساغة لفترات طويلة.

- أنتِ الأميرة الجديدة هنا؟

بدأ الشاب حديثه، كانت نادين لتظن أنه الأمير أنسي زوج دانية، لولا أن الجميع قد وصفه بالطول والقوة والوسامة، عكس هذا الفتى الذي يشبه المراهقين في عالمها.. أومأت برأسها إيجابًا دون أن ترد.

- هل أعطلك عن شيء؟

- لا أعلم من أنت، هذا كل الموضوع.

ابتسم الشاب كاشفًا عن أسنان بيضاء، وقال:

- أنا جندي من جنود التوحيد، قطعت الأميال بين قطاعات المملكه حتى نصبح تحت راية واحدة، راية الملك الموحد.. كما كنت الحارس الوحيد للملك الفريد ابن الموحد، أنا من حميته ضد من تمرد ضده، وأنا من تلى عليه الوصية يوم وفاته.. والآن أنا...

قاطعته نادين معترضة:

- كيف حضرت معارك التوحيد وهي حسب ما سمعت تعود لأكثر من مئة عام، وكيف تحرس الملك الفريد بجسدك هذا؟ من أنت؟

خلع الشاب ملابسه، أغمضت نادين عينيها في فزع، لكنه طمأنها.. كان جزعه ممتلئًا بالشحوم، لكن مرسوم عليه وشم أسود غريب الشكل. كان يشبه الخريطة أو انطريق المرسوم، وقد أحيطت هذه الخريطة بالكثير من الوحوش غريبة الشكل، ورسومات لبعض الأسلحة، أما الظهر فقد كان الرسم عليه عبارة عن جثث رجال متكدسة فوق بعضها البعض.. لم تفهم نادين أي شيء مما يحدث.

- لماذا رفضتِ الهروب من القصر مع ذلك التاجر المزعوم؟

ردت نادين بصدق:

- لأنني في مكان لا أعرف عنه شيئًا، فقد نشأت بعيدة عن هذا القطاع ولا أعرف الكثير عن المملكة، سأكون مختلة إن هربت في عالم لا أعرفه.. سأرى الحقيقة من وجهة نظر واحدة.. ولن أستطيع التعايش.

ارتدى الشاب ملابسه وقال:

- أنا أعمل قاتلًا مأجورًا، وكلما قتلت رجلًا رسمته صريعًا على ظهري.

أكمل حديثه وهو يخرج سيفه من غمده:

- لقد استأجرني الملك الناصر لقتلك!

ضحكت نادين وقالت دون اكتراث بالسيف:

- أنت جندي، وحارس وقاتل، ولو تركت لك الحديث طيلة الليل لقلت لي أنك كل شيء في هذه المملكة.. في حين أنك لست سوى الملك الناصر نفسه!

بدا على الشاب الارتباك، كانت نادين وقتها قد تأكدت أن تخمينها صحيح. وأن الملك أراد أن يبهر نادين.. كانت نادين تدرك أن ذكاءها الأنثوي هو سلاحها الوحيد في كلا العالمين، لذلك ابتسمت للملك وقالت بإعجاب وهي تحاول انتقاء الكلمات بسبب لهجة أهل المملكة الغريبة عليها:

- جميل الوشم، ما معناه؟

رد الملك الناصر ببساطة:

- هذه الرسمة قديمة جدًا، معلقة على سقف المكتبة الخاصة بالمملكة.. أعتقد أنها تعويذة خاصة بالحماية أثناء الحروب،

كانت مرسومة على جزع أبي الملك الفريد، ومن قبله جدي الملك الموحد.. ويقال إن أعمارهم المديدة كانت بسبب هذه التعويذة.

سألته نادين باهتمام:

- وأين توجد هذه المكتبة؟

همس الملك مستنكرًا:

- أحقًا لا تعرفين شيئًا عن مملكة المخلدين؟ ظننت أن أمي تبالغ.

كان الانطباع الأول الذي تركه الملك في نفس نادين أنه أقل بكثير من المكانة المفروضة عليه، وأنه لا يبجل والده كثيرًا، وإنما يقدس جده الموحد تقديسًا. وهذا شعور ترسخ لديها من حديث جميع الحاشية فيما بعد، فيبدو أن الملك الفريد كانت له مساوئ كبيرة مقارنة بالجد الأكبر الملك الموحد..

سألت نادين الملك الناصر بشكل واضح:

- هل يمكن أن تقتلني فعلًا إن لم أنل إعجابك؟

تناول الملك كوبًا من النبيذ الأحمر الذي رأت نادين مثله عند الملكة مهدية، ثم التقط ثمرة فاكهة من الطبق أمامه. كانت الفواكه مختلفة في الشكل عما تعرفه نادين في عالمها، وقال:

- لا أعرف، غالبًا سأترك أمرك لأمي، وغالبًا ستقتلك.. أمام الجميع أنتِ الأميرة الجديدة، ولكن في جناحي أنتِ مبهجتي.

بدا على نادين الخوف، فضحك الملك وقال:

- لا تقلقي، إبهاجي ليس صعبًا، يكفي أن تسمعي لما أؤلفه من حكايات وتضحكين على دعاباتي ولا تفشي أيًا من أسراري.

اندهشت نادين من حديث الملك، وسألت في تردد:

- هل صحيح أنك لا تشتهي النساء؟

أومأ الملك برأسه مجيبًا.. وقال مستدركًا:

- ولا أشتهي الرجال كذلك.. سأخبرك بسري الذي لا يعرفه أحد سوى معلمي الذي حكمت عليه بعدم الحديث نهائيًا مع أحد بعد أن عرفه، فإن تحدث قتلته في الحال.

اعتدلت نادين في اهتمام، وأنصتت جيدًا للملك الذي نظر بعيدًا حتى يخفي خجله وقال:

- المعلم أخبرني أنني غريب، فأنا أشتهي نفسي.. أحب النظر لجسدي في المرآة، أرى أنني أهم وأعظم من أن يمسني شخص آخر.. وفي نفس الوقت لا أريد طباعي في شخص آخر.. أنا الملك الناصر!

أدركت نادين أن هذه مرحلة عالية من النرجسية، لكنها لم تعلق ولم تحكم على الملك، أومأت في اهتمام وقالت في مكر:

- لكن الملك الناصر يمكنه الاستفادة من صديقة تكتم أسراره وتمثل دور الملكة المفتونة بزوجها؟

رد الملك بعدم اهتمام:

- سأفكر في عرضك هذا.

خافت نادين من أن يملها الملك، فهو مكتف بنفسه جنسيًا ولا يهوى الصحبة، حتى حيلة شهرزاد الشهيرة لن تنطلي عليه، فهو يؤدي دور الملك والمبهجة معًا.. فكرت فيما يمكن أن يثير اهتمامه، وقالت وهي تمد يدها نحو كوب فخاري آخر، وتملأه بالنبيذ:

- سنلعب لعبة قد تنال إعجابك، غدًا سأظهر كأميرتك.. أليس كذلك؟

أومأ الملك برأسه إيجابًا فقالت نادين:

- سنختبر مدى قدرتك على التأليف والحكي، ستنسج قصة كاملة عن الماضي الخاص بي، وكيف تعرفنا على بعض وكيف أحب كلٌّ منا الآخر، وإذا صدقتك الحاشية سأقر لك بالموهبة.

بدا على الملك السعادة بهذا العرض، فأكملت نادين قائلةً:

- سنشاهد منافسات التابعين سويًا، وحين تجد تابعًا لا تعرفه ستؤلف عن ماضيه قصة ترويها عليّ في جناحك ليلًا.. ستخمن تاريخ هذا الشخص بالكامل، وسأقول لك رأيي فيما ينسج خيالك.

كانت شخصية الملك غريبة على «نادين»، فهو الأول من بني جنسه ممن يزهدون فيها، صحيح أن هذا الزهد صفعة قوية لأنوثتها، لكنها أحبت هذا الشعور، طلبت منه أن تنام بمفردها هذه الليلة، ووعدته في الغد أن تنقل إقامتها للجناح الخاص به في الطابق الثالث من القصر.. نامت نادين بهدوء، تنتظر الغد بتفاؤل غير مبرر، فهي مؤمنة أن ياسين سيتصرف ويجد لها طريق العودة في الغد.

ارتاح الملك في الحكي، تحدث عن المسؤولية التي لا تعنيه، وعن المنصب الذي لا يحبه، سهرت نادين مع الملك الناصر حتى الصباح، حديث طويل في جناح مظلم مشبع برائحة مسك، وزجاجتي نبيذ فارغتين هما حصيلة الليلة، لم تتصور أن يعجب الملك الناصر ببعض الأغنيات من عالمها، كما لم يتصور أن تراه نادين شخصًا ممتعًا.. في النهاية كلاهما ربح صديقًا جديدًا بأهواء مختلفة، ومن عالم مختلف تمامًا.

لم تعرف أن ياسين في نفس الوقت لم يذق طعم النوم، هو الأسير في قطاع التابعين، فقد أتى مشرف التابعين له في العنبر ليصطحبه إلى مكانٍ خالٍ، ظن ياسين أن المشرف سيقوم بتهريبه حتى لا يلاقي صخر.. لكنه اكتشف أن المشرف سيقوم بتدريبه سريعًا على حمل السيف والقتال.. لم يكن جسد ياسين ولا عقله صالحين لهذا النوع من النزال، لكن المشرف أراد أن يسكت ضميره تجاه هذا الشاب النحيل الغريب عن هذا العالم.

حاول ياسين مجاراة المشرف في تعلم المبارزة، لكن السيف كان ثقيلاً، كما أن ياسين قد افتقد نظارته الطبية التي تمنع عنه صداع ضعف النظر . أدرك المشرف من اللحظة الأولى أن محاولاته كالرسم على الماء؛ لا طائل منها.. حاول المشرف توظيف نحولة ياسين لإكسابه مرونة في الحركة، لاقت الفكرة استحسان ياسين، لكن المشرف كان يعرف أن هذه المرونة لن تجدي مع صخر الذي سينهي القتال بضربة واحدة من سيفه.

لم تضف محاولة المشرف لياسين الكثير من مهارات القتال، فقط جعله يألف السيف والتحرك به، وعلمه كيفية الطعن بنصل السيف.. ظل المشرف مع ياسين حتى أشرقت الشمس، فطلب من ياسين أن يأكل جيدًا، وتمنى له الحظ في مبارزة صخر، الذي شارك في معظم حروب المملكة وأنقذ الملك الفريد أكثر من مرة.

غاب النوم عن عيني ياسين كما توقع.. مضى الليل سريعًا، راجع ياسين جميع قراراته الماضية، شعر براحة لانتهائه من هذا العالم المرهق جسديًا ونفسيًا لروحه، لم يعنه سوى نادين وباقي الرفاق الذين لا يعرف لهم مصيرًا..

وحين أتى الصباح شعر ياسين كأنه الناقوس الذي يعلن اقتراب أجله. مر اليوم سريعًا على ياسين، عرف أن نزاله مع صخر سيكون الأخير. فالشعب والحاشية يريدون رؤية هذا القتال الغريب الذي سيجمع أحد الأبطال السابقين للمملكة مع شاب غريب وفد إليها من مكانٍ لا يعلمه أحد.. «الجميع متعطش لرؤية صخر وهو يتفنن في إذلال منافسه حتى قتله»، كانت هذه الجملة ستجذب ياسين للمشاهدة، لولا أن كلمة «منافسه» تعود عليه.. تناول الإفطار دون تفكير في محتواه. عكس الأمس.. وقد عرف في وقت لاحق من اليوم أن أول مبارزة جمعت العجوز بصاحب العصا. وقد نجح العجوز في النجاة حين ضرب صاحب العصا في مكان إعاقته، وتحامل على سنه ونجح في الإجهاز على منافسه بالحيلة.

دخل «ياسين الهواري» ساحة القتال الخاصة بالتابعين. كان يعلم أن جسده النحيل وعرجته الخفيفة يثيران السخرية في نفس الجمهور، الجمهور الذي حضر ليرى نزالًا لا تحسم نتيجته إلا بالقتل.. فقد «ياسين» إدراكه لكل ما يحدث حوله. هو ليس ابن هذا العالم، ولا يعرف حتى الآن كيف انتقل إلى هنا.

لم يلحظ محبوبته «نادين» التي سافرت معه من عالمه الأصلي، وقد ارتدت مثل الأميرات وجلست بجوار ملك غريب الأطوار، تراقب ياسين في صمت، كانت حلبة النزال عبارة عن مساحة شاسعة بيضاوية الشكل، محاطة بالمقاعد من كل جهة، وقد تم تخصيص ما يشبه المقصورة لأجل الملك وحاشيته.. نظر ياسين نحو منافسه الذي يفوقه الضعف في الطول والعرض.. فكر كيف يقتله وهو لا يستطيع حمل السيف من الأساس.. حينها أدرك أنها النهاية.

لمح ياسين مشرف التابعين واقفًا وسط ساحة القتال، توجه إليه ياسين وهمس له بعبارات الامتنان على التدريب الليلي، لكن مشرف التابعين

تجاهل ياسين وادعى أنه لا يعرفه.. ففهم ياسين أن خدمة المشرفين كانت خارج حدود مهنته.. كان مشرف التابعين هو من يدير القتال بين كل تابع وآخر، ويكرر قواعد النزال كل مرة:

- القاعدة بسيطة، من يريد النجاة يجب أن يقتل الآخر.

انسحب مشرف التابعين من المشهد، كانت الشمس حارقة على قدمي ياسين، في أي موقف آخر ومع أي منافس آخر كان ياسين سيفكر في معضلة أخلاقية بخصوص القتل، لكن مع منافسه لا يوجد احتمال سوى وفاته.. كان صخر قد كشف عن نصفه العلوي، وارتدى بنطلونًا من الكتان ربطه بحبل سميك حول وسطه، كان أصلع الرأس أسمر اللون، وقد امتلأ جسده بالعضلات التي نقش عليها الزمن الكثير من المعارك التي خلفت الكثير من الندوب. في حين كان ياسين يرتدي ملابسه كاملة، حصل عليها من مخزن ملابس التابعين، كان منظر القتال غير متكافئ بالمرة.. وقد أثار منظر ياسين سخرية الحاشية وسخط الشعب الذين راحوا يلقون عليه اللعنات.

التقط ياسين سيفًا من مشرف التابعين، وكذلك فعل صخر، أشار مشرف التابعين نحو حدود الحلبة المحاطة بسور من الخشب، وقال إن هناك المزيد من الأسلحة عند السور، إذا لزم الأمر.. طلب مشرف التابعين من كليهما أن يصافح الآخر، مد ياسين يده بتردد نحو صخر، لكن الأخير بصق عليها ليضحك الحاشية، ويزيد من حماس المتفرجين العاديين.

كان ياسين في حالة انفصال تام عن الواقع، تجنب النظر في عيني صخر حتى لا يسقط صريعًا من الفزع... بدأ القتال مع انسحاب مشرف التابعين من الساحة.. انقض صخر سريعًا على ياسين فركله بقدمه في

بطنه، تراجع ياسين عدة خطوات للخلف حتى سقط على ظهره، شعر بوجع شديد في معدته، لكنه نجح في التمسك بسيفه، اقترب صخر من ياسين في ثقة، لكن الأخير ملأ كف يده بالرمال وألقاها على وجه صخر حتى يكسب الثواني لينهض.. نجحت خطة ياسين، لكنها أثارت ضحك الجميع من مظهره الهزلي وهو يحاول الفرار من خصم لا مفر منه.

ضحك كل من بالمقصورة عدا نادين، التي كان قلبها قد توقف خوفًا على ياسين، ليس فقط لكونه حبيبها، ولكن لأنه تذكرتها الوحيدة للعودة لعالمها.. وفي نفس الوقت كان سلمان الراشد نائب الملك الناصر وقائد الجيش يراقب ياسين باهتمام حقيقي..

حاول ياسين مبارزة صخر بالطرق التقليدية، لكن ضربات صخر كانت قوية، ولولا أن ياسين قد أمسك السيف بكلتا يديه لسقط في الحال، كان صخر يضعف من ياسين ولا يريد قتله، فلو شاء لفعل في الحال.. شعر صخر بالضجر فانطلق بسيفه مسرعًا تجاه ياسين، لكن ياسين تفاداه في اللحظات الأخيرة، كاد صخر أن يسقط أرضًا لكنه تماسك، استغل ياسين لحظة الترنح التي فقد فيها صخر توازنه، وأحدث جرحًا صغيرًا في الرباط الخلفي لركبته، شعر صخر بألم عظيم، لم يتوقع أن تكون هذه الطعنة التي تبدو بسيطة مؤثرة..

أدرك ياسين في هذه اللحظة أن تفوقه الحقيقي في هذا العالم بسبب عقله، وأن المعرفة هي سيفه الحقيقي، كان يعلم أن طعن الرباط الخلفي للركبة سيؤلم خصمه ويبطئ حركته.. لكن صخر تحامل على ألمه وعاود الهجوم مجددًا، نجحت هجمته هذه المرة وأصاب الذراع الأيسر لياسين، والذي شعر بحرقة شديدة وألم يسري في الجسد كله.. كان الجرح نافذًا، وقد أسال دمًا أغرق الرمال أسفل قدم ياسين اليسرى.. عرف ياسين في هذه اللحظة أن السيف فقد أهميته، فهو لن يستطيع حمله بيد واحدة..

ركض في منظر مضحك للجميع نحو السور الخشبي، بحثًا عن سلاح أكثر ملاءمة، في حين وقف صخر متظاهرًا بالتماسك، وراح يرفع يديه للجمهور وينحني للحاشية، حتى يحصل على المزيد من التشجيع، وكان له ما أراد.

خلع ياسين رداءه العلوي كاشفًا عن جزع نحيل زاد من ضحك الجمهور، ضمد جرح ذراعه بردائه، ثم تناول درعًا معدنية خفيفة الوزن، وخنجرًا صغيرًا ثبته في حذائه الجلدي المتآكل.. حاول ياسين التباطؤ فيما يفعل حتى ينزف منافسه أكثر وأكثر، ويبدأ مخدر الجسم في الانحسار وإفساح المجال للألم..

كان الجميع ساخرًا من منظر ياسين ومحاولاته المستميتة في تجنب ضربات صخر، من خلال الدرع التي كادت أن تتحطم بسبب قوة سيف صخر، لكن القائد سليمان الراشد كان يتابع هذا الشاب الغريب، وكيف يستعمل عقله في قتال لا يعترف بالعقل..

كان ياسين يتفادى الضربات في يأس، ويحاول من حين لآخر أن يدفع الرمال بقدمه لتلويث جرح خصمه أكثر وأكثر.. كانت ضربات صخر على الدرع مدوية، وبعد كل ضربة ينظر حوله للجمهور ساخرًا، طالبًا منهم صراخًا أعلى.. أدرك ياسين هذا النمط، فانتظر بعد ضربة لصخر على درع ياسين، واستغل انشغال صخر مع الجمهور وألقى بالدرع بكامل قوته على صخر، فأصاب الدرع فك صخر، وسقط الأخير على ركبتيه، استغل ياسين هذا السقوط، وتحرك في خفة على الأرض مستغلًا جسده النحيل، أخرج الخنجر بسرعة، حتى لاح له وتر أكيليس البارز في كاحل صخر، فجرح كلا القدمين من عند هذا الوتر، وحين استوعب صخر ما فعله ياسين، استدار وألقى بكامل جسده فوقه.

كان صخر يصرخ ألمًا وغضبًا من هذا الشاب النحيل الذي جعله غير قادر على النهوض، أدرك صخر أنه إن أفلت ياسين من قبضته سيموت، لأنه لن يستطيع مجاراة حركته أبدًا، شلت حركة ياسين أسفل جسد صخر، الذي انهال بلكمات غاضبة على وجهه، حاول ياسين أن يفلت من خصمه، لكنه فشل تمامًا في الفرار، أمسك صخر بقبضة ياسين، وضربها مجردًا إياه من خنجره.

حاول ياسين الفرار مجددًا، لكن غريمه كان قويًا ويائسًا في نفس الوقت، وقد جعله الألم في قدميه كالوحش الجائع المتمكن من فريسته.. وجه لياسين ضربتين بالرأس، ثم وضع يده السميكة على فم ياسين ليقطع عنه النفس.. لم يتحمل جسد ياسين أكثر من هذا. فغاب ياسين عن الوعي تمامًا، وقد أدرك أنها نهاية وجوده في هذا العالم الذي لم يحتمل قواعده.

نهض صخر من فوق جسد خصمه، نظر نحو مشرف التابعين الذي بدا عليه الحزن، ونظر نحو الجمهور المتحمس لهذا اللقاء الذي خرج عن توقعاتهم، زحف صخر بصعوبة حتى بلغ سيفه، وعاد مرة أخرى ليعتلي ياسين الذي كان غائبًا عن الوعي تمامًا.. نظرت نادين في فزع نحو ياسين وهو ساكن تمامًا، توقف قلبها عن النبض، لم تستطع إظهار مشاعرها. شعرت أنها ستموت إن رحل ياسين الهامد الآن أسفل خصمه.. وقد ثبت صخر نصل سيفه على رقبة ياسين، وبدأ في تحريك النصل؛ معلنًا نهاية مبكرة لهذا الغريب.

٧- أنقص النواقص

حين افترق خيري زاهر عن صديقه ياسين الهواري ونادبن توقع ألا يراهما لمدة طويلة، كان أسرعهم إدراكًا لوجودهم في عالم جديد فرص العودة منه معدومة تمامًا.. كما أدرك أن حظوظه في النجاة داخل هذا العالم تكمن في التحرك بمفرده، أو على الأقل بدون بركة وجثة ياقوت.

استغل خيري انشغال بركة في حمل والده، وضربه على رأسه من الخلف بكعب المسدس الخاص بياقوت.. وتركهما جسدين أحدهما ينبض بالروح ويفتقدها الآخر.. وبدأ التحرك في صحراء المملكة.. قابل رجلًا يرعى الأغنام، كان الرجل لئيمًا يريد من خيري العمل لديه في الرعي حتى يدله على طريق العودة.. لكن خيري استغل انبهار الراعي بسلسلة المفاتيح الخاصة به، وأقنعه أنها جالبة للحظ.. فأعطاه الراعي ملبسًا قماشيًا واسعًا يشبه ملابس أهل القطاع، واصطحبه معه للسوق الذي يقيمه النواقص في قطاعهم، فهم أهل تجارة، والقطاع هو أنسب مكان في المملكة للعمل.

كان ذكاء خيري في إدراك قواعد العالم أسرع من رفاقه السابقين، عرف أن هذه الرحلة جردته حياته الأصلية، لكنها أهدت له فرصة

جديدة.. فرصة الحياة في عالم لا يعرف الخزي أو العار، فلا صح هنا ولا خطأ إلا ما يريده خيري، كانت فلسفته في الحياة أقرب للتحقق في مملكة المخلدين عن عالمه الأصلي.

لم يفتقد خيري أشخاصًا من عالمه السابق، كان اشتياقه للرفاهية التكنولوجية وسهولة العصر، فهو يفتقد السيارة أكثر من أبيه، ويفتقد هاتفه المحمول الذي عطب تمامًا وأصبح قطعة من الخردة أكثر مما يفتقد أصدقاء المقهى.. لكنه أدرك نقطة قوته في هذا العالم؛ وهي الذكاء والمعرفة.. فهو قد جاء من مكانٍ يسبق هذا العالم بسنوات كثيرة، لم يشغل باله أنه لم يدرس مملكة المخلدين في مناهج التاريخ التي مر عليها خلال مسيرته التعليمية، ولم يدرس نفسه بمعرفة في أي بلد يكون، هو يريد التعايش ومحاولة تلبية شهواته التي قضى سنواته الاثنتين والعشرين الماضية خادمًا لها.

كان قطاع النواقص مبهرًا بالنسبة له عما عرفه لاحقًا عن باقي القطاعات، كانت جميع البيوت فيه من الأحجار المتراصة والملتصقة بمادة بنائية بدائية تشبه الأسمنت، حتى بيوت الفقراء تم بناؤها على نفس الطريقة، ففقراء النواقص هم موظفو المملكة ومحاسبوها ومهندسوها، لذلك لديهم من العملات ما يعينهم على المعيشة، ولا يجعلهم يبيعون حريتهم في قطاع التابعين نظير النوم وملء البطون.

تجوَّل خيري داخل السوق، كانت البضاعة الرائجة هي الأقمشة والتحف، وقد تعجب من مهارة أهل القطاع في غزل القطع القماشية، وكذلك في نحت التماثيل المختلفة وكتابة العبارات عليها، لم يحتج خيري وقتًا لفهم لهجة أهل القطاع والتعامل معهم، وقد عرف كذلك سر تسمية قطاع النواقص بهذا الاسم..

فمنذ سنوات بعيدة، وقبل توحيد المملكة كان هناك ثلاثة قطاعات فقط؛ الزهاد والكاملين والنواقص قبل تسميته.. وقد كان حاكم النواقص قد سمح فيه بممارسة جميع أشكال التجارة، وكذلك جميع ألوان اللهو المختلفة، فأنفق على الحانات وبيوت البغاء، وكذلك على المسارح التي تتاجر بالمعاقين وذوي الأشكال المختلفة.. لم يكن لديه مشكلة مع الترفيه، وقد عرف أنه كان يربي فتيات القطاع بنفسه على إمتاع الرجال.. وحين حاول شيخ الكاملين آنذاك نصحه لم يتقبل منه.. فاحتكما للزهاد، لكنهم كانوا بلا حاكم كعادتهم، وإن أجمعوا على أن كل قطاع حر فيما يفعل.. حتى وإن كان القطاع لا يطبق قواعد العقيدة الكاملة التي يدين بها أهل مملكة المخلدين جميعًا.

لم يستطع الكاملون وقتها سوى إطلاق هذه التسمية، ولم يعترض عليها أهل النواقص.. بل وجد حاكمهم الشجاعة الكافية للاعتراف أن كل البشر نواقص..

ومع مرور الزمن وتولية الملك الفريد.. حاول الكاملون السيطرة على قطاع النواقص، لكن الفريد كان يحب غالية ويثق في ذكائها وقدرتها على الإدارة، فاعتذر عن طلب شيخ الكاملين بعزلها، وحكم باستمرار نشاط القطاع.. فمن يريد اللهو والمجون فليتجرد من كماله ويذهب إلى غالية.. عرف خيري كذلك أن غالية الآن أسيرة لدى الملك الناصر بن الفريد.. وأن ابنها الأمير «جعفر بن غالية»، هو الذي يحكم الآن.

تجوَّل خيري في السوق، كان عبارة عن أقسام، وكل قسم به عربات صغيرة تجرها الحيوانات، وقد عرض كل تاجر بضاعته على عربته وحولها.. كان السوق منظمًا يشرف عليه جنود الأمن في المملكة، وهم

رتبة أقل من المحاربين، وقد عينهم الملك الناصر نفسه، تجول خيري في قسم الأطعمة، كانت العربات مفترشة بالمخبوزات البسيطة وبعض الطيور التي كان منظرها غريبًا عليه، وكذلك البيض الذي كان حجمه أكبر مما اعتاده في عالمه.. لمح تاجرًا بسيطًا يعنف لصًا حقير المظهر، فتدخل خيري بعد أن أدرك أن اللص حاول سرقة رغيف من الخبز، أقنع خيري التاجر أنه سيأخذ اللص ويسلمه لجنود الأمن..

- أرجوك دعني أرحل؛ فلديَّ أطفال لأربيهم.

لم يقبل خيري على توسلات اللص، تظاهر بضربه أمام التاجر حتى انسحب به خارج السوق:

- بالتأكيد لن أسلمك للجنود.. أنت تسرق في المكان الخطأ، سنسرق من تجار الأقمشة.

- لكن هؤلاء التجار يدفعون يدًا لجنود الأمن حتى يبقوا بجوار حوانيتهم، ومنهم من يؤجر حراسًا إضافيين.

أخرج خيري مسدس ياقوت، وقد قرر تطبيق نفس خطة ياسين للغش في الامتحان، وهي إبعاد الأنظار عنه مستغلًا صوت طلقة المسدس العالية، علم اللص كيف يستعمل المسدس، وأمره أن يضرب طلقة منه، اقتنع اللص بسهولة أن هذا المسدس مجرد أداة لإطلاق الأصوات المرتفعة.. ثم يخفيه عن أنظار الجميع، وينتظره في مكانٍ بعيد عن السوق، فيأخذ نصيبه من السرقة، ويسترد خيري مسدسه ثانيةً.

استغل خيري لهجته الغريبة، وتظاهر أنه تاجر غريب جاء لمملكة المخلدين ليشتري أقمشة لزوجته، دخل على أكبر الحوانيت.. كانت لديه نظرية أن المتاجر الكبيرة برغم تأمينها العالي، إلا أن هذا التأمين يخلق حالة مزيفة من الشعور بالأمان المطلق.

لم يشك «العم راتب» مالك المتجر، الذي عرف خيري في وقت متأخر من اليوم أنه أغنى رجال القطاع، وأن أكثر من ثلث السوق باسمه، لكنه يحب الجلوس والبيع بنفسه.. وقد أسمى نفسه العم، لأنه بلا أولاد وجميع ورثته المستقبليين من أولاد أخيه الوحيد، وهم من يشرفون على تجارته الآن.. كان «العم راتب» دميم الخلقة يرتدي الملابس الحريرية المزدانة بالفضة، ويصبغ شعره بلونٍ بني لا يليق بتجاعيد وجهه العجوز، الذي يشي بعمر تجاوز الخمسين.. تحدث خيري مع العم راتب عن الأقمشة، وطلب منه أن يرشح له أفخم نوع لديه. ناوله العم راتب قطعة من القماش، كان ملمسها شديد النعومة، وقد انسابت بين يدي خيري، حاول إخفاء إبهاره، وقد ماطل العم راتب منتظرًا من اللص أن يطلق المسدس.

حدث كل شيء في ثوانٍ، أطلق اللص المسدس في جهة، تعجب رواد السوق من هذا الصوت الغريب، ظنوا أنها ظاهرة طبيعية غريبة عنهم، لم يفهم أحد سببًا لهذا الدوي سوى خيري الذي توقع الأمر، فانسحب بسرعة وسط الزحام هاربًا بقطعة القماش، تعمد ألا يهرب ركضًا بين الناس، وأن يستغل الزحام وملابسه التي تشبه ملابس النواقص وأن يتحرك بينهم خارجًا من السوق، قابل اللص، فأخذ منه السلاح وأعطاه نصف قطع القماش الحريرية، تعجب اللص، فهو لم يتوقع أن يحصل على مكافأة، لكن خيري كان نزيهًا معه.

كانت الشمس قد اقتربت من المغيب.. سأل خيري عن مكان لتناول الطعام والراحة من السير.. كان يريد أن يأكل ثم يفكر بهدوءٍ فيما سيفعل لاحقًا، دله البعض على أكثر من حانة، لكن لفت نظره الحديث عن «حانة الصفوة»، وهي أشهر حانات قطاع النواقص، فالمشروبات هناك مؤثرة في العقول، والأسعار غالية لا يقدر عليها سوى صفوة التجار، كما أن راقصات الحانة وعاهراتها جميعهن من المبهجات السابقات للملك،

والتي استغنت عنهن غالية، فترسلهن لتلك الحانة التي كانت ملكها ثم انتقلت لصاحبتها، والتي أصبحت مالكة الحانة الحالية..

المالكة الحالية للحانة تدعى «عامرة»، وهي أول من استقبل خيري حين جلس وتحدث بلكنته الغريبة.. كانت سيدة بدينة في الخمسين من عمرها، رحبت بخيري، دون المزيد من الأسئلة، دعته لمشروب على حساب الحانة، كان يدرك أنها تريد عرض الشراب عليه حتى يطلب منه المزيد..

جاء الساقي بملامح متجهمة، كان أصلع الرأس أسمر اللون ذا جسد مليء بعض الشيء، لا يصدر عنه أي انفعال.. وضع المشروب أمام خيري وهو ينظر له في ثبات، فقالت عامرة وهي تناوله الكأس:

- لا أعرف له اسمًا.. كان من جنود الملك الفريد وقد خاف أن يشترك في إحدى المعارك، فأخرجوه من الجيش.

سألها خيري باهتمام:

- ولماذا لا يتكلم.

ردت عامرة ضاحكة:

- هذا جزاء من يغادر الجيش.. العقيدة الكاملة تمنع قتل الجنود المتخاذلين..

مالت على خيري هامسةً:

- لكنها لا تمنع قطع ألسنتهم حتى لا يفشوا أسرار الجيش!

ضحكت عامرة دون سبب واضح.. شرب خيري، وقد لاحظ نظرات «عامرة» المتأملة لعضلاته المفتولة ولحيته الحليقة، وعظام ترقوته.. كان يعلم ما يبهر النساء فيه، تعمد ألا يقول لها الكثير من المجاملات، وأن

يظل محتفظًا بشخصيته الغامضة مع بعض من أدب الحديث.. نظرت «عامرة» نحو الكيس القماشي الذي يحمله «خيري»، وقد استعاره من أحد تجار السوق بعد هروبه، حيث أخفى بداخله عملاته الوحيدة في هذا العالم؛ الثوب الثمين، ومسدس ياقوت.

أنا أملك البيت المجاور للحانة، هو بيت واسع قسمته لغرف أؤجرها لضيوف القطاع.. وسكنتُ أنا إحداها، فأنا لا أحب الوحدة بعد وفاة زوجي، كان تاجرًا من أكبر التجار، بعت كل أملاكه واشتريت هذه الحانة من غالية قبل أن يتم أسرها في قصر الحكم.

فهم خيري أنها تعرض عليه تأجير غرفة لديها، طلب منها أن يطلع على غرفته، لم يخبرها أنه مفلس، ولن يضحي بالثوب من أجل السكن.. كان ينوي البيات عندها والهروب صباحًا.

تحرك خيري خارجًا من الحانة، وقد ترك طاولته فارغة، كان المكان واسعًا، وجميع من فيه يبدو عليهم الثراء.. حتى العاملون في الحانة كان يبدو عليهم يسر الحال، كانت المشاعل خافتة بشكل شاعري، تحرك خلف «عامرة» وهو يحكم الإمساك بكيسه القماشي.. تأمل شعرها الأسود المموج، كان متأكدًا أنه مصبوغ كحال معظم الكهول في هذا القطاع، كما كان جسدها الممتلئ يشي ببقايا أنوثة قليلة، وقد أدرك من طريقة تزينها وتعطرها أنها لا تزال تشعر بأنوثتها بشكلٍ أو بآخر.. برغم تقدمها في العمر.

دخل خيري الغرفة، وتعمد غلق الباب عليه مع «عامرة».. كانت الغرفة بسيطة لكنها نظيفة، تليق بتاجر وافد على القطاع كما أخبرها، تظاهر خيري أنه ينظر أسفل الفراش للتأكد من عدم وجود حشرات، لكنه كان يريد عرض جسده أمام «عامرة».. وبدون أي مقدمات خلع ثوبه الذي

اتسخ أمامها مستعرضًا عضلاته، يكاد خيري يقسم أنه قد سمع دقات قلبها في هذا الوقت، وصوت أنفاسها الذي ارتفع.. وكانت عيناها لا تفارق تقسيمة صدره.. قال خيري في براءة:

- لقد اتسخ ثوبي ولم أكن أنوي البيات في القطاع.. هل يمكنني استعارة ثوب من أثواب زوجك الراحل؟

وافقت «عامرة» وعادت له بثوب أفضل من الذي كان معه.. أخبرها كاذبًا أنه من تجار السلاح في قطاع الحكم، كانت قصته ساذجة لكنها صدقتها لأنها تريد ذلك.. تعمد الاقتراب منها وهو يتناول الثوب، كادت أن تلمس جزعه المكشوف لكنها تراجعت في اللحظات الأخيرة، همس في أذنها بطريقة ساحرة:

- لقد سرقت أموالي اليوم في السوق، لكن معي ثوب اشتريته، يمكنني المبيت لديك، وتأخذينه.

همست «عامرة»..

- إقامتك وسهرك وسقياك الليلة عندي.

لم يطمع في أكثر من هذا، وقد عزم على الهروب في الصباح من هذه العجوز الراغبة في امتصاص شبابه دون رحمة.. انحنى مجددًا أمامها ليضع كيسه القماشي أسفل الفراش، أخبرها بأنه يخاف من سرقة الثوب.. لحق بها نحو الحانة مجددًا، وقد قرر الراحة ليومه وتأجيل الخطط للغد.

كانت مشروبات الحانة أقرب للجعة التي يعرفها خيري جيدًا، استسلم للشراب، وللمسات «عامرة» وهي جالسة إلى جواره، حاول إلهاء نفسه بالخمر عن تخيلها، وبعد ساعة تقريبًا انطفأت جميع المشاعل في

الحانة إلا مشعل في وسطها، وظهرت راقصة ممشوقة القوام، ذات شعر مموج، وترتدي زيًا حريريًا فضفاضًا، وقد بدأت تخلع أجزاءه واحدًا تلو الآخر، جذبت أنظار الجالسين رجالاً ونساءً.. كانت تتمايل بجسدها أمام الجميع.. مالت «عامرة» على أذن خيري قائلة:

- «وديدة» هي أجمل راقصة لديَّ، لا تتعرى إلا للصفوة فقط.. مثلك.

تمايلت وديدة على ألحان وترية، لم تكن جذابة لأذن خيري، لكنها خلفية مناسبة لرقص وديدة، علم خيري فيما بعد أن معظم رواد الحانة يأتون لمشاهدتها، حتى وإن رأوها أكثر من مرة. فهذا الجسد الخمري وهذه المنحنيات الدقيقة ووجهها الذي يمثل مع كل حركة بأنوثة لا يمكن الزهد فيه.

خطفت «وديدة» قلب خيري من اللحظة الأولى، تمنى لو أنه يحتكم على وديدة في مكان واحد، وقد أدرك أن نادين ذات المنحنيات الكبيرة نسبيًا ليست هي ذوقه، أما وديدة فهي المثال الحقيقي للفتاة، جسد كأنما يشي بعبقرية الخالق وعظيم التكوين، هي معيار حقيقي للفتنة كما وصفها في عقله.

انتهت الفقرة، وانسحبت التخت الموسيقي، وأضيئت المشاعل من جديد.. فكر خيري كيف سيكلمها ويحاول استمالتها، كان وقعها في رأسه أشد من الخمر، وأشد من حديث مالكة الحانة «عامرة»، التي لم تتوقف عن الكلام منذ أن جلست إلى جواره تداعب ذراعه بيدها.

قطع تفكير خيري دخول «العم راتب» الحانة، وخلفه ثلاثة من حرسه.. لمح «العم راتب» خيري، فتذكر وجهه على الفور، وقد أمر حراسه الأشداء بالإمساك به، نهض خيري مسرعًا، ركض وسط دهشة رواد الحانة نحو

بيت «عامرة» ليحضر كيسه القماشي، فبداخله ميزته الوحيدة عن جميع أهل المملكة؛ المسدس، ذلك السلاح الذي لا يفرق بين قوي وضعيف، فهو يحطم جميع موازين القوى، وسيقلب الآية على هؤلاء الحراس في الحال.

أثناء جري خيري تمنى أن يكون ياقوت قد عمَّر المسدس بالطلقات، سيكفيه ثلاث للقضاء على مطارديه والهروب من الحانة.

كان خيري أسرع من الحراس ضخام الجثة.. يجري وهو على يقين أنهم لو أمسكوه لفتكوا به في الحال.. وصل إلى غرفته، كسر الباب الضعيف بكتفه.. انحنى بسرعة أسفل الفراش ليحضر المسدس من الكيس القماشي، وقد سمع خطوات الحراس مدويًا قريبًا في الردهة المؤدية للغرفة.

كادت الدهشة أن تأكل ملامحه، لقد اختفى الكيس القماشي تمامًا.

٨- أنا والكاملون

خاض بركة كابوس طويل، كابوس انتقل فيه عبر الزمان والمكان لعالم آخر مع والده وذلك المهندس الذي كان يلاعبه في الموقع وشابين لا يعرفهما، كابوس مات فيه والده، وضل فيه بركة طريقه في صحراء لا بشر فيها.. لكن المشكلة أن بركة حين أفاق أدرك أن كابوسه كان حقيقيًا.

كانت مهارات التواصل والحديث لدى بركة في أسوأ أحوالها، على الرغم من ذكائه بالنسبة لمصابي «متلازمة داون»، إلا أنه وسط البشر كان بطيء الفهم بعض الشيء، وصاحب إدراك ضعيف في معظم الأمور.

كان يتحدث مع نفسه كثيرًا، حين يتكلم مع ذات لا يكون بطيء الاستيعاب، فإيقاعه الداخلي مضبوط تمامًا. كان يتمنى لو يستطيع توصيل ما في رأسه للناس دون أن يملوا تلغثمه في الكلام، ولا مخارج حروفه السيئة.. كانت هذه معضلة حياته.. أن ينتظره أحد حتى يبوح بما في نفسه، حتى والده الذي عرف العالم كله عنه الصبر، لم يكن ليطيق أن يكمل بركة جملة واحدة ويفهمها، كان يهز رأسه حتى يصمت الولد، مما زاد انعزال بركة انعزالًا.

نظر بركة حوله ليجد مجموعة من الرجال العابسين، يتوسطهم رجل كبير في السن، لكن يبدو عليه الصحة، كان هذا الشيخ أبيض البشرة، بدينًا تداري لحيته البيضاء لغدًا سميكًا، مال على بركة مطمئنًا، تسربت

رائحة عطر ثقيل يضعه على لحيته لأنف بركة، وحين لمسه مربتًا على كتفه، ارتجف جسد بركة كاملًا؛ في نوبة فزع، وبدأ يهذي باسم والده..

- اهدأ يا ابني، جميعنا معك.

استمر بركة في بكائه، وحين وجد أن أحدًا من الرجال ولا حتى العجوز يلقي بالًا له، كأنهم ينتظرون جفاف دمعاته وسكون صرخاته.. مما أسرع في هدوء بركة، وسؤاله عما حدث منذ أن انفصل عن ياسين وصديقته في الصحراء، ورحيله برفقة شاب طويل سرق مسدس أبيه الذي حمل بركة جثته على كتفيه.. قال الشيخ العجوز بصوت هادئ:

- لم نجد معك أنت ووالدك رجلًا ثالثًا، كان جثمان والدك هامدًا بلا روح، أما أنت فكنت متأثرًا بالشمس وقد فقدت وعيك.

اعتدل بركة في جلسته، كان جسده ممتلئًا، ويتميز بوجه طفل، على الرغم من اقترابه من عامه العشرين.. تناول بركة كوبًا فخاريًا من الماء وتجرعه كله مرة واحدة.. طلب الشيخ من أحد الرجال المحيطين به أن يحضر كوبًا آخر.. لاحظ بركة أن جميع الرجال يحملون سيوفًا في ملابسهم، على الرغم من أن مظهرهم لا يوحي أنهم حراس أو جنود.. لاحظ أنه قد أطال صمته، سأل الشيخ بلغته الثقيلة عن مكانه، خمّن الشيخ أنه كان معتوهًا بسبب طريقة حديثه، وقد أتاه الوعي حديثًا، تعامل معه كأنه طفل في جسد شاب يسأله.. فشرح له الشيخ عن مملكة المخلدين وقطاعاتها المختلفة، واختتم حديثه قائلًا:

- أما أنت فستعيش معنا في قطاع الكاملين.. نحن جماعة تحرص على عقيدة الكاملين، وهي مجموعة من التعليمات الأخلاقية التي تجعل من الإنسان شخصًا أفضل، حتى يصبح كاملًا مثلنا.. سنعلمك إياها بالتدريج، حتى يزيد الكاملين فردًا.

سأل بركة بحروف ثقيلة عن المكان الذي دفن فيه والده، فرد أحد الشباب:

- الكاملون لا يتعاملون مع الموتى.. موتى المملكة جميعًا يتم دفنهم في قطاع الزهاد، وقد أرسلنا جسد والدك هناك.

قال شاب آخر بلهجة ساخرة موجهًا الحديث لبركة:

- إلا إذا كنت من العائلة الملكية، فستدفن في قصر الناصر الملعون.

شعر بركة بالخوف من طريقة الشباب وحدتهم، وقد أدرك الشيخ ما يفكر فيه بركة، فنظر للشباب في حسم، وقال لبركة مطمئنًا:

- الحياة في قطاعنا أفضل من أي قطاع آخر، فلو كنت في قطاع آخر لتم نقلك لقطاع التابعين، حيث تخدم الملك حتى تموت على يد تابع آخر يعيش ليخدم الملك حتى يموت هو الآخر.. ولو كنت في قطاع النواقص والأنذال لتاجروا بجسدك وجعلوك خادمًا لشهواتهم المريضة.

همس بركة عن الوضع في القطاع الذي دفن فيه والده، لم يستطع نطق كلمة «الزهاد» بسبب قصر استيعابه، فقال الشيخ إن هذا القطاع سيعلمه التراخي والزهد في الحياة، ولكن مع الكاملين، سيفوز بالحياة وما بعدها كذلك.

لم يفهم بركة معظم ما قيل، كل ما عرفه أنه سيعيش في مملكة المخلدين ما تبقى له من عمر، وعليه أن يبحث عن عمل، وأن يتناسى حياته معتمدًا على والده. كانت المستجدات كثيرة ومتزاحمة، لم يستوعبها عقله جميعًا، شعر أن رأسه سينفجر من كثرة المعلومات، كان الشيخ ذكيًا بما فيه الكفاية ليدرك متى يتحدث مع بركة ومتى يتركه..

أحضر له كوبًا آخر من الماء وقال:

- أنا شيخ الكاملين.. أكبر أهل القطاع والمسؤول عن تقويم أهله، وأنت الآن في مسكني الخاص الملحق ببيت الكاملين، وبيت الكاملين هو المكان الذي يستقبل كل من يريد أن يتعلم عقيدتنا، وكذلك هو مقر حكم القطاع.

سأل بركة الشيخ إن كان هو الحاكم، فبدا على جميع الرجال من حوله الخوف.. وقال الشيخ ويده ترتجف:

- لا أمر ولا نهي في القطاع سوى للشريف الكامل، هو قائدنا وهو أعلم أهل القطاع بالعقيدة.

لاحظ بركة غياب النساء عن المسكن الخاص بالشيخ، وحين جاهر بملاحظته كاد أحد الشباب المتحمس أن يضربه، لكن الشيخ ضحك وأشار للشاب حتى يتراجع عن بركة، وقال له وهو يتأمل جلباب بركة المتسخ، والذي كان مظهره غريبًا عليه:

- ممنوع دخول النساء بيت الكاملين؛ فهم دنس له، لذلك أنا لم أتزوج في مسكني هذا حتى الآن.. ولذلك لا يقيم الشريف الكامل في البيت، لأنه يهوى النساء، وهذا لا ينتقص من الكاملين في شيء.

طلب الشيخ من أحد الشباب أن يأتي له بجلباب جديد، فخلعه على بركة وقال له:

- القاعدة الأهم وسط الكاملين هي الرحمة.. سنوفر لك من يرشد روحك للكمال، السيد مصباح.. وهذا الرجل المبجل لديه حظ من اسمه، فهو مصباح يرشد كل فقير ومحتاج، يعطف عليهم ويكون

هو طريقهم للكمال.. سيوفر لك مسكنًا وعملًا في أرضه، فهو المسؤول عن زراعة أرض الكاملين، ولتعلم أن الكاملين هم أمهر المزارعين في المملكة.

تحرك بركة بين طرق ومسالك قطاع الكاملين، كان الجو شديد الحرارة والطرقات وعرة لا تسير فيها أي عربات، الجميع يسير على قدميه، شعر بركة بحالة من الحزن والكآبة على وجوه جميع المارة من حوله، توقف لشرب المياه من إحدى الأواني المعلقة أمام بيت مبني من طين.. كانت جميع البيوت بسيطة مبنية من طين، وقد عمت رائحة روث الحيوانات أرجاء القطاع.

تذكر بركة وصف الشيخ له قبل أن يطلب منه مغادرة بيت الكاملين، ولا يعود إلا وقد آمن بالعقيدة:

- «ستسير في الطريق الرئيسي، وتسأل عن مزرعة السيد «مصباح».. وحين تقابله ستخبره أن شيخ الكاملين هو من أرسلك حتى يؤويك عنده في المزرعة، ونصيحة من أبيك الشيخ: لا تتحدث مع مصباح عن الملك وحاشيته ولا تذكر أي شيء عن الحكم، فقد كان والده من أسياد المملكة حتى قتله الملك الفريد واستولى على كل أراضيه، ولم يترك لولده مصباح سوى المزرعة التي ستعمل أنت فيها، وتذكر يا ولدي؛ الكمال قبل أي شيء».

كان بركة مثقلًا بالأخبار أكثر من الهموم، على الرغم من كثرتها.. لمح في الشارع بعض الشباب يضربون كهلًا، حاول أن يمنعهم لكن أحد الشباب نهره بعيدًا وهو يقول له إن هذا الرجل سرق ويجب أن يتلقى عقابه.. عرف فيما بعد أن مجموعة الشباب هؤلاء يعاقبون الناس في

الطرقات بتعليمات من شيخ الكاملين ومن الشريف الكامل ذاته، ويطلق عليهم الناس سرًا لقب «البهائم».

أكمل بركة مسيرته متوجهًا نحو مزرعة مصباح، لاحظ ارتفاع صوت الطيور في الشوارع، كانت الشوارع هادئة، حتى الحوانيت بسيطة، وكأن أهل هذا القطاع محكوم عليهم بالصمت..

وفجأة أوقفت بركة طفلة صغيرة، كان مظهرها مميزًا بسبب تشوه ناتج عن حريق قديم، احتل هذا التشوه أكثر من نصف وجهها ورقبتها.. نظرت الطفلة لجسد بركة الممتلئ وملامحه المنغولية، وقالت له بسعادة:

- يا عم، اليوم يوم حظك..

بدا على بركة عدم الفهم، فضحكت الطفلة، وهي تشير نحو خيمة كبيرة ملونة، تم نصبها في آخر الطريق، وقالت لبركة:

- مهنة العمر تنتظرك بالداخل، ستصبح غنيًا للأبد!

لم يستوعب بركة ما تقوله الفتاة بخصوص مهنة العمر، لكنه اعتاد أن يميز الأطفال حين يخفون الحقيقة، وكأن الأمر هبة بداخله، لكن هذه الطفلة لا تخدعه.. قد تكون ساذجة مثله، لكنها لا تخدعه.

نظر بركة نحو الخيمة التي أشارت نحوها الطفلة، ملونة ينبعث من داخلها الضحكات، وقد سمع صوتًا أنثويًا بالداخل، ووجد عشرات من الناس يقفون طوابير عليها، كانت هذه الخيمة غامضة بالنسبة له، فقد كانت عكس كل ما حولها في قطاع الكاملين.. اقترب نحوها مسحورًا، وصوت الفتاة يتردد في أذنيه «مهنة العمر تنتظرك بالداخل!».

٩- أبخس من ياقوت

كانت أغلب قطاعات مملكة المخلدين لا تملك حظًا من أساميها، فلا «قطاع الحكم» يجيد الحكم، ولا قطاع التابعين يخدم جميع القطاعات، حتى الكاملين والنواقص، كلاهما يشبه الآخر ويظن نفسه أفضل منه.. لكن «الزهاد» وحدهم من كان لهم النصيب الأكبر من مسمى قطاعهم.

واحة في قلب صحراء المملكة، الكثير من الأشجار والنخيل التي يمرح بينها أهل القطاع، كأنها حماية الأجداد لهم من حرارة الشمس.. من عجائب المملكة التي درسها «ياسين» أن كل قطاع لديه سمات طبيعية مختلفة تمامًا عما حوله برغم اقتراب المسافات، فالأجواء لدى الزهاد صحراوية، وعند الكاملين ريفية مبشرة للزراعة.

أما أهل القطاع، فقد صنعوا خيامهم الخضراء الموحدة بأنفسهم، يستعينون بالأقمشة التي يتسوقونها من قطاع النواقص.. يدفعون ثمنها بلحًا، فلا عملة هنا، ولا فقير أو غني، الجميع في خيام متساوية الحجم ومتطابقة الشكل، وخلف الخيام توجد المقابر البسيطة، والتي تم عزلها عن القطاع بسياج طويل من النخيل، فجميع أهالي المملكة يأتون لدفن موتاهم هنا، وقد زهدوا التعامل مع أغلبهم، كانوا قد اكتفوا بأنفسهم وانعزلوا عن الجميع منذ زمن.

لا زعيم لهذا القطاع.. فالناس يختارون زعيمًا حين يريدون من يمثلهم في حكم المملكة، أو حين يختلفون.. وهم لا يريدون زعامةً ولا شقاقًا.. لا يريدون إلا استنشاق روائح البخور والنباتات التي يحرقون أوراقها ويتجمعون في الخيام الكبيرة ليتمايلوا على بعض الألحان التي يرددها البعض، في حين يعزف البعض الآخر على آلات وترية.

كانت مواردهم محدودة، وهو الأمر الذي لم يجعلهم مطمعًا للباقين، خاصةً قطاع الكاملين الذي لا يبعد عنهم سوى مسافة صحراوية قصيرة.. كانوا زاهدين في تنمية مواردهم.. فقط البلح وبعض النباتات، ومياه تأتي من بئر في آخر المدينة.. لا يستعملون الدواب للمشي، هي تعيش وسطهم لكنهم لا يستفيدون من منافعها في شيء.. وكأنها من أهل القطاع.

يتوسط الواحة «قصر الأسلاف»، وهو بيت واسع أشبه بالقصر، مبني بالأحجار على طريقة الغرف الخاصة بقصر الحكم؛ له سياج يحيط به من النخيل العالي، والذي ظللت فروعه البيت من كل الجهات.. كثرت الأساطير حول هذا البيت، فمن الناس من يقول إن الملك الموحد بناه ليكون استراحته في القطاع.. ومنهم من قال إن البيت أقدم من عصر الملك الموحد، وأن الأسلاف نزلوا القطاع وبنوا بيوتهم من حوله.. لكن الحقيقة التي يقتنع بها جميع الزهاد أن هذا البيت مسكون، ولا يمكن أن يسكنه سوى شخص واحد لم يأتِ القطاع بعد.. الأمر الأشبه بالأساطير القديمة التي تتنبأ بظهور رجل صالح في نهاية الزمان.. لكن لأنهم الزهاد صدقوها.

في صباح يوم، استيقظ الزهاد على صوت جلبة أحدثها قدوم شباب الكاملين ومحاولة دخولهم القطاع لطلب المياه.. طلب الشاب مقابلة أكبر الزهاد سنًا كما جرى العرف.. فاستقبله الملك العطاء في خيمته..

العطّاء الذي كان حديثًا لأهل المملكة جميعًا منذ سنوات.. فهو أول ملك في التاريخ يزهد الحكم ويرفضه، وهو حتى الآن الوريث الشرعي للملك الموحد، فهو أكبر أبنائه.

لم يصدق أحد من أهل المملكة تخليه عن الحكم لأخيه الفريد.. ظنوا أنها خدعة ما، لكن سنوات مرت، ورحل الفريد وجاء ابنه الناصر.. والعطّاء مرت عليه السنوات، وأصبح عجوزًا هرمًا زاهدًا في كل شيء.. غير عابئ بولده الأميز أنسي، الذي طالما زاره في القطاع مطالبًا بحقهما في الحكم.

نظر العطّاء للشاب مستفهمًا، كانت من عادات الزهاد الاقتصاد في الكلام قدر الإمكان، فما يمكن فهم دون إشارة لا يشار له، وما يمكن شرحه بالإشارة لا يقال، وما يمكن أن يقال في كلمات أقل لا يحتمل الإسهاب..

- حفرنا لكم بئرًا خارج القطاع.. ادفنوا موتاكم وارحلوا.

نظر شباب الكاملين لبعضهم في تردد، حتى قال أحدهم:

- معنا جثمان لعجوز غريب عن المملكة بلا أهل، وجدناه في الصحراء التي تفصلنا عن قطاع الحكم.. كان معه ولده، آوينا الولد وأتيناكم بالعجوز.

نظر العطّاء نحو الشاب منتظرًا إكمال حديثه، فقال الشاب في رجاء:

- نريد أن تحضروا معنا الدفن.. نخشى أن يكون هذا الغريب من الزهاد فيلعننا إذ إننا لسنا من أهله.. أو يكون ساحرًا..

قاطعه العطّاء بهدوء:

- ألم يقل شيخ الكاملين إنكم لا تؤمنون بهذه الخرافات؟

بدا على الشباب الخجل، فابتسم لهم العطَّاء وقال:

- سنأتي معكم.

كان العطَّاء يحرص على حلق رأسه دائمًا وترك جزء من لحيته البيضاء، كان مريضًا يتحرك بصعوبة، فقد تجاوز عامه السبعين.. وقد حرص الزهاد على الترحيب به منذ اللحظة الأولى، فهو من اختارهم وليس العكس.. يتذكر يوم أتاهم بلا ملابس ولا حرس ولا مال.. بنوا له خيمة، وفصلوا له جلبابين، واحدة للعيش والأخرى للنوم.. كان الزهاد جماعة من الأخيار الصامتين، الكل من أجل الفرد، والفرد من أجل القطاع.

تحرك العطَّاء مع بعض من أهل قطاع الزهاد، رجالًا ونساء من كل الأعمار.. استنكر الكاملون في سرهم قدوم النساء في هذه المهمة الحساسة.. لكن الزهاد لا يفرقون بين أحد وآخر.. وقد كان هذه أحد أهم الخلافات بين الكاملين والزهاد.. كان الزهاد يشعرون أن الكاملين دائمًا ما يبحثون عن العداء، عن الكره.. تارةً مع الحاكم، وتارةً أخرى معهم، ومعظم الوقت مع النواقص.. وإن تركهم الجميع عاركوا أنفسهم وتقسموا فيما بينهم.

وقف الزهاد خلف العطَّاء على باب المقابر الحديدية، طلب العطَّاء من الكاملين الاقتراب، كانوا يحملون جثة ياقوت في لفافة قماشية خضراء اللون.. طلب منهم الكشف عن وجه الميت ليمسح بيده على وجهه.. لو كان الميت من الكاملين لرفضوا هذا التقليد، لكنهم وافقوا على ما طلب.

بدأ يهمس بكلمات غير مفهومة وهو يمسح على وجه ياقوت بيديه، فتح عينيه وأغلقها.. خمن العطَّاء أن هذا الرجل قد رأى كثيرًا من الحياة،

كان الزهاد يؤمنون أن تجاعيد الوجه تدل على ما رآه الشخص في حياته، وقسمات ياقوت تروي الكثير والكثير عنه.

كانت المدافن في قطاع الزهاد محاطة بسورٍ معدني طويل، يقال إن الزهاد قرأوا عليه كلمات معينة أشبه بالعزائم، والتي تحمي الجثامين من نباشي القبور أبد الدهر.. كما كانت القبور نفسها تُحفَر في الأرض، ويتم تثبيتها بحجر ضخم منقوش عليه عام الوفاة واسم المتوفي والقطاع الذي كان ينتمي إليه، ومحاسنه إن وجدت.. احتار الزهاد أين يدفنون ياقوت، فالمقابر مثل مملكتهم مقسمة لقطاعات خمسة.. لكن الملك العطَّاء أمر أن يُدفَن مع الزهاد، ويُنقَش على حجره عام الوفاة فقط.

رحل الكاملون تاركين للزهاد مهمة دفن هذا الغريب.. قاد العطَّاء الجنازة الخاصة بياقوت، كان جثمانه خفيفًا على الأعناق.. لاحظ أن الشمس قد هدأت تمامًا وغابت خلف غمامة عملاقة. كان الهواء في المقابر باردًا زيادة على المعتاد، وقد اختفت الحيوانات تمامًا. وانتصبت أوراق الأشجار المحيطة بالمقابر، والتي تظلل معظمها.

كان الملك العطَّاء هو القائد للموقف بحكم كونه الأكبر سنًا، لكنه ليس قائدًا للزهاد، وإن حاول التصرف من هذا المنطق طردوه من القطاع.. الزهاد لديهم إيمانٌ أعظم بأن قائدهم سيأتي بعد أحداث معينة، وأنهم يجب أن يبقوا تحت أمر القدر حتى يظهر.. فلا يفعلون أي شيء استثنائي، مهما كان تأثيره بسيطًا..

انحنى الملك على جثمان ياقوت، وفك الأقمشة الخضراء عنه، وقرر دفنه في موضع بعيد من مدافن الزهاد.. بدأ أحد الشباب في الحفر.. ووقف الباقونَ يرددون بعضًا من الأمنيات للمتوفى أن تصير حياته الأخرى أفضل.. بدأ شاب آخر يحفر كلمة «الغريب» بلغة مملكة المخلدين

وعام الوفاة على حجر تمهيداً لتثبيته فوق موقع الدفن، نزل أحد الشباب للحفرة، وطلب من الملك العطاء منحه جثة ياقوت حتى يدفنها.

لم يستوعب أي من الزهاد ما حدث في اللحظات التالية، اتسعت جميع العيون وخفقت القلوب في عنف.. فبدون أي مقدمات فتح ياقوت عينيه، وشهق شهقة عالية.



١٠- البعث

لم ينسَ ياسين بريق نصل السيف الذي حمله صخر وهو يعرج بصعوبة، متجهًا نحوه.. حينها فقد ياسين الوعي، حاول أن ينطق الشهادتين في سره لكن الأمر كان صعبًا..

تذكر سخريته من معلم اللغة العربية الذي كان يردد دائمًا «صعب جدًا تقدر تنطق الشهادتين قبل وفاتك، لو فنيت حياتك عاصي لسانك هيتلجم عنهم».. وقد صدق.

- «أوقفوا النزال.. فقد انتصر الغريب!»

زفرت نادين في ارتياح حين تدخل القائد سليمان الراشد لوقف القتال، شعرت كأن حجرًا قد أزيح عن صدرها، لم تظهر للملك الناصر خوفها، وكذلك ارتياحها لنجاته بأعجوبة..

لم يسمع ياسين هذه الجملة من حنجرة سليمان الراشد قائد الجيش، بل رُويَت له فيما بعد عن هذا المقاتل العجوز الذي أعجب به ونزل ساحة القتال بنفسه دون أمر من الملك الناصر لينقذ ياسين في اللحظات الأخيرة وقد لامس حد السيف عنقه وكاد ينحره.. نظر صخر نحو القائد وصاح فيه دون احترام:

- كيف انتصر هو غائب عن الوعي؟.. دعني أقتله وأنتصر!

نظر القائد سليمان لصخر الذي نزفت أوتار كاحليه بشدة وأصبح غير قادر على السير، وقال بصوت عالٍ كأنه يخاطب الملك:

- أخبرني عظمتك حين نكون في حالة الحرب..هل ستحتاج إلى رجل قوي لكنه لا يقدر على الوقوف لاستكمال القتال؟

كاد صخر أن يرد مدافعًا عن نفسه، وقد حاول النهوض لإثبات قوة تحمله.. لكن سليمان الراشد أخرج سيفه، وسحب نصله على رقبة صخر فجزها في لحظة، وأكمل حديثه كأنه لم يقتل شخصًا لتوه، وسط ذهول المتفرجين:

- أم سنحتاج جميعًا لرجل ذكي عرف كيف يتغلب على فارق الحجم بينه وبين خصمه، رجل يعرف أين يضرب ومتى يضرب؟

بدا على الملك الاقتناع، لكن الأمير أنسي قاطع حالة الهيمنة التي فرضها سليمان الراشد قائلًا:

- هل ستجند في الجيش شخصًا غريبًا عنا؟

رد سليمان دون تردد:

- الغريب يصبح منا في أيام، يتعلم طباعنا، يتزوج من بناتنا، وأنا لا أطلبه كجندي، بجسده هذا سيموت أول من يموت منا..

انحنى سليمان حاملًا ياسين فاقد الوعي وقال بصوت عالٍ:

- ولكن الآن لدينا مستشار جديد للجيش.

لم يكن ياسين الهواري ليصدق ما حدث، لولا أنه أفاق من غيبوبته ليجد نفسه في جناح القائد سليمان الراشد بنفسه، وهو من يضمد

جراحه، كان سليمان عجوزًا ذا جسدٍ ممشوق، يربي لحية بيضاء صغيرة منمقة تزيده وقارًا، وتظهر عروق ساعده التي كانت قوية يومًا ما، والمغطاة بالبثور التي تشي بعمرٍ مديد.. كان سليمان بارعًا في إيقاف النزيف وتضميد الجراح، استعمل خليطًا لزجًا من العشب، كانت رائحته سيئة، لكنه سكَّن آلام ياسين في لحظات، والذي ألجمت الصدمة لسانه، فهو يعرف القائد من كلام مشرف التابعين عنه..

- الضرب في أوتار الكاحل؛ مكان حساس ومكشوف ولا يمكن حمايته بدروع.. تصرفك أذكى من أن يصدر عن شخص عادي، أو حتى جندي.. هذا ذكاء لم أعهده سوى في الفرسان والقادة.

كاد ياسين أن يحكي عن بديهية الفكرة، وأن يروي المزيد عن أسطورة «أكيليس» ووتره المعروف.. لكنه آثر الصمت.. كان القائد مبهورًا بتفكير ياسين الذي لم يفعل شيئًا سوى الاستفادة من بعض المعلومات الطبية العامة التي يعرفها عن نقط الضعف في البدن..

- من اليوم ستكون مستشاري الخاص فيما يخص الحروب، ستدرب الجنود على فنون القتال، ستشرح لهم حركاتك.. جنودنا جميعًا مثل صخر الذي قتلته بذكائك...

قاطع ياسين حديث القائد للمرة الأولى:

- لكنني لم أقتله!

- جنودنا أقوياء لكن بلا عقل، ستكون أنت عقل الجيش.. ستدربهم وتضع لنا خطط الهجوم والدفاع.

سأل ياسين وهو يفكر في محبوبته:

- هل سأقيم في القصر؟

ضحك القائد سليمان وقال:

- لن نستطيع ائتمانك على الإقامة في قطاع الحكم من الأساس، وبالطبع لن تعود لتقيم مع التابعين بمكانتك الجديدة، فأنت حر من التبعية.

فكر قليلًا ثم قال مقترحًا:

- سأطلب استثناءًا من الملك للسماح لك بالإقامة في مساكن العلماء بقطاع التابعين.. ستقيم في المكتبة الملكية معهم، وتتعلم منهم الكثير عن المملكة ليلًا، وبالنهار ستكون مستشاري الخاص.

نهض القائد في إشارة لانتهاء الحديث، فنهض ياسين بصعوبة.. طلب القائد من أحد جنود اصطحاب ياسين الذي لم يفق بعد من تأثير ضربات صخر ولا ضربات القائد سليمان، الذي أنهى حديثه أثناء مغادرة لجناحه الفخم قائلًا:

- لدينا مهمة صعبة غدًا في الاجتماع مع الملك.

بدا على ياسين عدم الفهم، فقال القائد:

- يجب أن نضع خطة لمقاومة تمرد الفقراء على ملكنا، فكّر في حلٍ لهذه المعضلة حتى نلتقي غدًا.. أن نثبت هيبة ملكنا، دون أن نؤذي الناس!

تحرك ياسين في ردهات القصر رفقة الجندي المأمور من القائد سليمان، كان يتلفت حوله منبهرًا بالقصر الذي دخله تابعًا مرة، والآن هو مستشار قائد جيوش الملك..

تعجب من حظه في هذه المملكة، كان يفكر في مصير نادين الآن، وهل هي محظوظة مثله أم لا، ظل يتلفت باحثًا عنها وسط وجوه الأميرات والحاشية، لكنه لم يجدها.

كان قد تصور أن مساكن العلماء ستكون فخمة مريحة، لكنه اكتشف أنها مثل مساكن التابعين لكن في غرف منفصلة بدلًا من العنابر، وجد نفسه في غرفة شديدة الضيق والرطوبة، لا يوجد بها سوى فراش بسيط وكتاب وحيد تعمد العلماء وضعه له، علم فيما بعد أن معظم العلماء من أبناء قطاع الزهاد، وأن المتشددين في العقيدة الكاملة لا يحبون دخول المكتبة، ويرون أن ما فيها كله خاطئ، لأنه لم يصدر عن الشريف الكامل الذي لم يروه في حياتهم، ويعرفون أنه يسكن أحد قصور قطاعهم، ولا حتى عن شيخهم.

كان الكتاب مكتوبًا بخط اليد على أوراق بالية متناثرة، قرأه ياسين بصعوبة لأنه كان مختلفًا عن الخطوط العربية التي ألفتها عينه، كان عنوان الكتاب «الأثر».. فتح الكتاب وبدأ يقرأ فيه مستجديًا النوم..

علم ياسين فيما بعد من كبير العلماء، أن هذا الكتاب أو «الأثر» هو الأقدم، وهو يعود لأكثر من المئة عام بقليل.. يبدأ الكتاب متحدثًا عن الجد الأكبر، الملك «الموحد».. وقد ذكر في هذا «الأثر» أن حال المملكة قبل التوحيد كان غير مستقر.. فكل قطاع يحكم بهوى أصحابه الشخصي.. وقد أصبحت المملكة مطمعًا للمملكتين المجاورتين لها.

عرف ياسين أن العجائز كانوا يقتلون في السابق، ولم يكن هناك مكتبة ولا علوم في مملكة المخلدين، وقد تم تسميتهم كذلك نسبة لقوتهم البدنية التي اشتهروا بها بين الممالك، وقد أحاط بهم من الشرق «مملكة الرمليين»، وسموا كذلك بسبب لون بشرتهم الأصفر وملامحهم المتشابهة.. وهم أهل للعلم وتصميم الماكينات التي تسهل عليهم عمليات مثل الزراعة وغيرها.

أما المملكة التي تحيط المخلدين من الغرب فهي «مملكة نعوم»، ومكتوب أنها سميت كذلك؛ لأن أهلها لا يميلون للعمل الشاق، فأرضهم غنية بالمعادن التي يحتاجها الرمليون لتنفيذ أفكارهم العلمية، فينقلها المخلدون بقوتهم للرمليين، ويعيد الرمليون تصدير منتجاتهم المعدنية مثل فتحات التهوية والأسلحة المختلفة والمعادن المستخدمة في تأثيث البيوت.. في حين يتفرغ أهل نعوم للفنون والثقافة، وقد قرأ ياسين، كذلك أن لدى أهل «نعوم» مسرحًا حقيقيًا من ممثلين وفنانين مبدعين، وليس مسرحًا للمعاقين كحال مملكة المخلدين.

قام الملك الموحد بجمع جيش من كل القطاعات الثلاثة، الزهاد والكاملين والنواقص، واحتل القطاعات جميعها، وقام بتأسيس قطاعين آخرين، وهما قطاع الحكم وقطاع التابعين ليكونا عونًا له على توحيد المملكة.. وبدأ يعين على كل قطاع من الثلاثة القدامى حكامًا من أهل القطاع، يختارهم بنفسه.

كان القائد سليمان الراشد، أحد الجنود المخلصين للملك الموحد في أواخر أيامه، وقد كان الحارس الشخصي له حتى مات.. ومن بعد الموحد تولى الملك الفريد، والذي أقال سليمان الراشد دون إنكار فضله في تأسيس الجيش، وعيّن أنسي أميرًا ومساعدًا له، خلفًا لأبيه الملك العطّاء الذي زهد من الحكم.. وبعد وفاة الفريد عُرض على الملك العطّاء العودة ليأخذ حظه من الملك، لكنه رفض، فآلت السلطة لأكبر أبناء الفريد وهو الملك الناصر بن الفريد بن الموحد.

استيقظ ياسين قلقًا أكثر من مرة، لم يعرف كيف يحل معضلة تمرد الفقراء والتي لمسها بنفسه في قطاع الحكم، فالأهالي يرفضون دفع

الضرائب ويحتجون على أجورهم الزهيدة، وكذلك يحرضون التابعين على التمرد على نظام التبعية، كان الأمر أشبه بمشروع ثورة، لم يكن ياسين من المتعاطفين مع الفقراء أو الأغنياء، فهو لا يقسم العالم حسب المال، بل حسب الذكاء، وفي هذا العصر الأغنياء أكثر ذكاء، لأنه رأى أنهم يحتكرون المعرفة، وقد لاحظ أن العامة لا يعرفون عن تاريخهم أبعد من حروب التوحيد، فالمكتبة تعج بالكثير من الأسرار التي يسعى لكشفها.

بعد ساعة من التفكير سمع ياسين صوت طرقات على باب غرفته الضيقة، كان نفس الجندي الذي بعثه القائد الراشد ليوصله إلى قطاع التابعين والعلماء.. ركب ياسين خلفه الفرس، وقد عاهد القائد سليمان على تعلم ركوب الخيل بمفرده، كانت لديه فكرة عن الخيل بحكم عمله السابق القريب من الأهرامات، لكنه لم يجرؤ يومًا على امتطائها.

وصل لمقر اجتماع المجلس التوحيدي، وهو مجلس يُقام مرة في الشهر بين الملك ومجموعة من الوزراء والمستشارين وحكام القطاعات للحديث عن المشاكل التي تواجه المملكة في قطاعاتها الخمسة، لكن هذا المجلس كان طارئًا لحل مشكلة التمرد الذي بدأ في أواخر عهد الملك الفريد، وخمد قليلًا بوفاته، وحين لم يتغير الوضع في عهد الناصر عاد أكثر من ذي قبل.

عرف ياسين أن سكان قطاع الحكم من عامة الشعب والبسطاء والخدم قد داهموا الأسواق وسرقوا ما فيها، وهم يخططون لاقتحام القلعة المؤدية للقصر.. أو قطع طرق التجارة بين القطاعات وبعضها البعض.. أو هدم السوق الرئيسية في قطاع النواقص.

وقف ياسين خلف القائد سليمان الراشد، ذلك العجوز الذي كان جالسًا بجوار الملك مباشرةً، لم يفهم معظم الحضور سبب تواجد ياسين

وسطهم، لكن القائد شرح لهم أنه مستشاره الجديد، سهر ياسين يحضر لهذا اللقاء جيدًا مستعيدًا ما قرأه في علوم السياسة وفنون الحكم، وما عاصره من تحالفات وانفصالات.

كان جسده يشبه جسد الملك، وإن كان بطن الملك بارزًا أكثر، ولكن الضعف كان عاملًا مشتركًا بينهما.. نظر له أنسي، كان أقوى بكثير من ياسين؛ كان يشبه الفرسان، شعر طويل وجسد عريض منحوت يشي بالقوة. قال أنسي ساخرًا من أثر الجروح على وجه ياسين من مبارزة الأمس:

- هذا مستشار ينصح الجنود؟ لينصح نفسه أولًا!

ضحك الملك الناصر لدعابة ابن عمه أنسي.. لاحظ ياسين أن المقعد الآخر المجاور للملك على رأس الطاولة البيضاوية خال، ظل منتظرًا من يجلس عليه، لكنه عرف من القائد سليمان فيما بعد أن هذا كان مقعد الأمير يزن شقيق الملك الناصر، وقد أقسم والده الملك الفريد على حفظه خاليًا، تخليدًا لاسمه وذكراه.

كان المجلس يشمل حوالي عشرة أشخاص، من بينهم الأمير أنسي بصفته النائب السابق للملك الفريد وابن عم الملك الناصر، وواحد من أقوى وأهم أمراء المخلدين، وكذلك قائد الجيوش ومساعده الجديد، وكبير العلماء المسؤول عن المكتبة، والذي عرف ياسين فيما بعد أن لديه ذاكرة عبقرية تحفظ الشيء من أول مرة.. لذلك هو يحفظ جميع كتب المكتبة قديمها وحديثها، وكانت المكتبة نفسها عبارة عن أربعة مبان متراصة بجوار بعضها البعض بين مسكن التابعين ومسكن العلماء.. وقد امتلأت جميعها برفوف الكتب ومقاعد خاصة للدراسة، وكانت مقتصرة على طبقة الحكم والعلماء.

وفي نهاية الطاولة يجلس جعفر ابن غالية حاكم قطاع النواقص، بملامحه الحادة ووجهه العبوس وشاربه السميك بُني اللون، كان يتزين بثلاثة أقراط فضية على جانب وجهه الأيمن، ويضفر شعره المنسدل على ظهره.

يقابله شيخ الكاملين بلحيته الطويلة وملامحه العجوز الصارمة؛ مندوبًا عن الشريف الكامل حاكم قطاع الكاملين، وقد عرف ياسين فيما بعد أن هذا الشريف الكامل نادرًا ما يظهر، لدرجة أن البعض قد اعتبره أسطورة غير موجود في الواقع.

وفي نهاية الطاولة لمح مقعدًا خاليًا آخر.. لكن هذه المرة كان المقعد خاصًا بحاكم قطاع الزهاد الذي لم يستقروا عليه بعد، فهم ينتظرون تحقق نبوءة تخدم عقيدة الزهد التي يعتمدون عليها في المعيشة، وحتى الآن يرفضون حاكمًا يمثلهم في المجلس التوحيدي.

كان جعفر بن غالية أشبه بوزير المالية، فهو المسؤول الأول عن أموال الدولة وتنظيم أمور التجارة مع مملكة الرمليين وإرسال العمال لهم، والطلبة للتعلم عندهم، وكذلك يستورد المعادن من مملكة نعوم.. وكذلك هو الذي يقوم بحساب الضرائب والتخطيط لطريقة جمعها من أجل بناء المملكة وإقامة المشاريع على أرضها.. وهو أيضًا من يحدد سعر كل سلعة داخل الأسواق في المملكة.

كان القائد سليمان الراشد المسؤول عن إدارة الجيش والجنود، ورحلات الاستكشاف والنهب من القرى الصغيرة المجاورة، والتي لا تتبع المملكتين الشرقية والغربية المجاورتين لملكة المخلدين، بالإضافة لتحكمه في جنود الأمن الذين يحققون العدالة في البلاد.

أما كبير العلماء، فهو رجل مسن يتحدث بصعوبة بالغة، وهو المسؤول عن الفصل في أمور العامة التي تحتاج قاضيًا.. وكذلك هو أمين المكتبة الملكية في قطاع التابعين.. وهو يصف العلم وتطبيقاته بـ«السحر».. فهو يساعده على إنجاز الكثير دون مجهود يذكر.. ولديه معتقد في أن إخفاء هذا العلم أو السحر عن العامة أمر مفيد للجميع.. فالمعرفة إن انتشرت زادت المعارضة، وقلت سيطرة الملك على البلاد، وهو ما وافق عليه الملك الناصر.

شعر ياسين أن الملك لا يبالي بكل ما يحدث، وأنه يشرد بعينيه كثيرًا عن الاجتماع.. بدأ جعفر بن غالية الحديث محييًا الملك، ومتمنيًا له الكمال في الحياة:

- جلالتك السوق مشتعلة، لا يمكن خفض الأسعار، بل يجب زيادتها جميعًا، التجار من الممالك المجاورة يزيدون علينا أسعار المحاصيل والأقمشة، ولا يمكن للمملكة أن تتحمل فارق السعر وحدها.

بدا على الملك الحيرة، قال سليمان الراشد بقوة:

- سنطلق عليهم الجنود، ومن يرفض السعر يسجن مع التابعين.

قال أنسي ساخرًا:

- وهناك ننفق على طعامهم أكثر مما أنفقنا، ويزداد غضب الناس.

تدخل ياسين في الحديث دون إذن قائلًا:

- وماذا إن أطلقنا شائعة حول غلاء أكبر بكثير مما ننوي تطبيقه؟

بدا على معظم الجالسين استنكار حديث ياسين، بمن فيهم القائد سليمان نفسه.. عقب الملك مبديًا عدم الرضا عن الفكرة، وموجهًا حديثه لسليمان الراشد:

- قل لطفلك المدلل إن الناس سيثورون إن زاد السعر بمقدار طفيف، فما باله بالكبير؟!

بدا على الأمير جعفر الاهتمام بما قاله ياسين فطلب منه أن يشرح أكثر وجهة نظره، فقال الهواري بخجل:

- إذا قلت للناس إن السعر سيزيد مثلًا ثلاث عملات، سيثورون بالتأكيد ويغضبون منك.

أكمل حديثه وهو يشير للملك:

- ولكن حين يخرج الملك عليهم ويقول إنه تفاوض مع الممالك المجاورة، وأن الغلاء سيُطبق بمقدار عملة واحدة فقط.. حينها سيرضون عن ملكهم الرحيم الذي تفاوض من أجلهم، ونكون قد طبقنا الزيادة التي كنا نطمح لها من الأساس.

بدا على الجميع استحسان الفكرة، فيما عدا أنسي الذي نظر نحو ياسين في غل.. كان ياسين سعيدًا وهو يطبق معهم أفكاره المعاصرة، كان على يقين أن رفاق الرحلة متفوقون بالمعرفة والعلم اللذين اكتسباهما من العالم الأصلي، فيما عدا بركة بالطبع.

قال أنسي في مكر: .

- هذه مشكلة الأسعار، ماذا عن حركة التمرد نفسها، إنهم يحرضون ضد نظام الحكم، ونظام التابعين، ويريدون القضاء على حكام القطاعات وأن يكون الحكم بين يدي الناس.

قال الملك في هدوء:

- هذه ليست أفكار العامة، هناك أحد المهندسين أو الموظفين هو من يحرضهم على ذلك.

قال القائد سليمان مندفعًا:

- فلنقبض عليهم جميعًا، ونحقق معهم، ونهددهم بالتهجم على بيوتهم.

رد شيخ الكاملين معترضًا:

- هذا ليس من عقيدتنا، لسنا من نفعل هذا يا قائد الجيش.

شعر شيخ الكاملين أنه قد بالغ في الدفاع عن المتمردين، فأردف محسنًا من موقفه:

- لن نؤذي سوى من حرض ضد ملكنا!

قال الملك بعصبية وهو يلقي محتويات الطاولة بعيدًا عنه:

- وكيف نعرف من يحرض ضدنا؟

تدخل ياسين مرةً أخرى:

- سينزل القائد سليمان للتحدث مع المتمردين، هو رجل ذو شعبية.. وسيحاول التفاوض معهم بلسان الملك.

رد أنسي ساخرًا:

- ملك يفاوض العامة؟! أتمزح أيها الغريب؟

بدا على القائد الذهول من اقتراح ياسين، ظن أنه يضحي به، لكن الملك كان مهتمًا بسماع ياسين هذه المرة، فقال ياسين وهو يتأمل رد فعل الجالسين على ما سيقول:

- سيحاول أن يفاوضهم، لكن تجمهر الناس وتشتت رغباته سيمنعهم عن ذلك، وهنا سيقترح القائد على الناس تكوين وفد من خمسة أشخاص يتفاوضون بأسمائهم، ولكن يجب أن يظهر هذا الوفد خلال اليوم.

بدا على الملك فهم خطة ياسين وقال وهو منبهر بالخطة:

- وبالطبع لن يجدوا وقتًا للتفكير، وأول الأسماء التي ستخطر على بالهم للتفاوض بأسمائهم هم من حرضوهم بالأساس.. حينها نقوم بإعدامهم أمام الجميع.. عبقري أيها الغريب!

سأل جعفر بمكر:

- أين تعلمت كل هذا يا ابن الصحراء؟

تلعثم ياسين في الرد، لكن شيخ الكاملين أنقذه حين فكر في تبعات خطة ياسين وقال:

- وهل ستخمد ثورة الناس حين يموت قادة التمرد؟ أم ستشتعل أكثر؟

فكر ياسين لدقائق وقال:

- الخوف.. الخوف هو المحرك الرئيسي لجميع الأفعال الإنسانية.. ماذا لو قلبنا خوفهم ضدهم.. فبدلًا من أن يخافوا بطش الملك أو سجنه يخافوا على ما يملكون بالفعل؟

سأل أحد الوزراء المجهولون بالنسبة لياسين:

- لكنهم فقراء، ومعظمهم ليس له أسرة، وليس لديهم ما يخافون عليه!

بدأ ياسين يشعر بالارتياح وهدأت نبضات قلبه، راح يجول بين الجالسين دون إذن منه أو اعتراض منهم:

- لنجعلهم يملكون ما يخافون عليه إذًا.. سنعطيهم صكوكًا لملكية الأراضي التي يزرعونها أو يعيشون عليها.

نهض الملك غاضبًا وقال:

- يبدو أن خيالك قد سرح منك هذه المرة.. أتريدني أن أبيع أملاكي للعامة؟ وبدون مقابل!

كان الجميع يؤيدون الملك، وينظرون نحو سليمان الراشد الذي بدا عليه الحرج.. شعر ياسين أن سليمان الراشد سيطرده من الاجتماع في أي لحظة من الآن فقال للملك الناصر مستدركًا:

- لن تنفق قرشًا أكثر من ثمن الحبر الذي تصاغ به صكوك ملكية الناس للأراضي.. ستحصل على المحاصيل كاملةً لتضعها في خزائنك، ولن تدفع أكثر من أجور المزارعين الزهيدة.. وهم سيصمتون لأن لديهم الوعد بالحصول على الأرض يومًا ما.

نظر جعفر بن غالية حاكم النواقص نحو شيخ الكاملين وعقب ساخرًا:

- أتريدنا أن نفعل مثل شيخنا، ونوهم الناس بكمالٍ غير موجود!

رد شيخ الكاملين بغضب:

- الأفضل أن نغرقهم في الشهوات عن الأعمال الصالحة.. أليس هذا غرضك؟

ضرب الملك على الطاولة أمامه بحزم، استعمل خاتم والده ليصنع دويًا على خشب الطاولة وقال:

- كفاكم شجارًا وتعلموا من هذا الغريب.

نهض الملك ووقف بجوار القائد سليمان الراشد، وضع يده فوق رأسه وقال:

- لولا تدخلك في اللحظة الأخيرة من نزال التابعين، لخسرت المملكة مستشارًا عظيمًا.

شعر ياسين بالفخر مما سمعه من فم الملك، حتى وإن كان شابًا قصيرًا لا يشبه صورة الملوك في خياله.

بعد أيام من التنقل بين قطاع الحكم وقطاع العلماء كان ياسين قد اعتاد الحياة كمستشار للجنود، لكن الأسئلة كانت تكثر في عقله، وقد انتقل من حالة الذهول لحالة الحيرة، ومن الانبهار للتعجب؛ وقد حدث نفسه: «ترى أين نادين وخيري الآن؟ وفي أي عصر تاريخي نحن؟ أنا لم أسمع يومًا عن مملكة المخلدين ولا عن تقسيم العالم بهذه الطريقة؟ هل هذا تاريخ لم يدون أم أنني أحلم؟».

استمرت مناجاته حتى وصل أعلى مبنى حجري بسيط اتخذه سليمان الراشد مقرًا لقيادة الجيش، حيث وقف سليمان وياسين يراقبان ساحة تدريب الجنود الشاسة، والملحقة بقطاع الحكم، كان الجند حوالي عشرين ألف مقاتل، معظمهم سمر البشرة وأقوياء البدن، وقد تأكد ياسين أن القوة هي السمة المميزة للمخلدين، وأن جنودها هم الأقوياء.. لذلك فإن بقية الممالك تخافهم برغم نقص الموارد لديهم.

قال الراشد في قلق:

- الجند أقوياء، لكنهم يقاتلون لأجل مجدهم الشخصي، يريدون أن تسطر أسماؤهم في التاريخ.. لذلك لا يخافون الموت، وهذا عيب في الحرب.. يلزم للمقاتل بعضًا من الخوف يكسبه حكمة في المعركة.

كانت التدريبات عنيفة بحق، كان الجنود يخرجون بجراح وندوب ستظهر كعلامات على أجسادهم.. كانت المملكة في حالة سلم، لذا كانت

التدريبات متنفسًا عما بداخلهم من شهوة للقتال ورغبة في تحرير الطاقة الكامنة بداخلهم.

قال ياسين بهدوء:

- سيدي القائد، من رأيي المتواضع أن الجندي يقوم على ثلاثة: القوة فالذكاء فالعقيدة.

سأل سليمان عن كيفية تنمية العنصرين الثاني والثالث.. ابتسم ياسين في ثقة:

- العقيدة الكاملة لن تصلح مع هؤلاء.. هي عقيدة صعب الالتزام بها، والجندي يريد أن يغرق في شهواته، فهو مهدد بالموت في أي لحظة.. لن نحرمه حلاوة الحياة على طول الخط وفي النهاية نحرمه منها.

سأل سليمان في فزع:

- هل تريدنا أن نسطر لهم عقيدة جديدة؟

ضحك ياسين وقال:

- الأمر ليس بهذه البساطة.. فقط سنطلب من شيخ الكاملين إعفاء الجنود من السعي نحو الكمال مقابل قتالهم لأجل المملكة، فمن يحارب باسم الملك الناصر هو معصوم من الخطأ.. وهذا سيزيد عدد المتقدمين للجيش هربًا من هذه العقيدة الكاملة.

بدا على سليمان الاستحسان، نظر نحو ياسين ليسأله عن نقطة الذكاء، لكنه وجد ياسين قد هبط المبنى سريعًا ودخل وسط الجنود وقد بدأ يخطب فيهم بثقة.. حينها لم يدرك ياسين عند أي نقطة قد تحول من ذلك الفتى الجبان النحيل لهذا الشخص الواثق، هل حين أدرك مكر

العجوز الذي يريد قتله؟ أم حين بارز صخر؟ أم حين أدرك أنه يجب أن يكون مسؤولًا في المملكة كي لا يدهس تحت الأقدام.. قال ياسين محدثًا نفسه وهو يدور بين الجنود «أبوس إيدك إهدا، الناس دي لو حست إنك خايف هتموت.. حلمك بيتحقق يا هواري ولقيت مكان يقدر ذكاءك، اغتنم الفرصة».

توجه ياسين نحو جندي قوي، طلب منه سلاحه.. كان الجند مأمورين بطاعته حتى وإن استنكروا الأمر فقد نفذوه.

أراكم تضربون الأجزاء المكشوفة من الجسد، كالصدر والرأس.. ألا يرتدي الجند الخوذ والدروع في الحرب؟ لماذا تهدرون طاقتكم عليها؟

لحق القائد سليمان بياسين الذي أكمل حديثه قائلًا:

- لنضرب النقط المكشوفة إذًا..

أشار نحو موضع تقريبي للشريان الفخذي وقال:

- جرح واحد صحيح في الفخذ يعادل ثلاث ضربات على درع لن تقله قوة.

قال سليمان في حزم:

- دعهم يرتاحون الآن، فهذا وقت الطعام، إن لم يأكلوا أكلوا بعضهم!

ضحك بعض الجنود، ربت سليمان على أكتاف البعض.. لكن ياسين سأل باهتمام:

- أين حرس الملك من هؤلاء؟

بدا على سليمان الدهشة، وسأل ياسين عن سبب سؤاله، فرد:

- حرس الملك يجب أن يأكلوا مع الملك.

نظر له سليمان غاضبًا، أمسك ياسين من كتفيه وهزه قائلًا:

- لقد تحملت حماقتك طيلة اليوم، ولكن ما تطلبه ضد نظام المملكة كليًا!

قال ياسين بهدوء وهو يبعد يدي القائد سليمان من عليه:

- الحرس إن أكلوا مع الملك أحبوه بالفعل، واعتبروه منهم، وليس مجرد آمر ناهٍ لهم.. حينها لن يحرسوه فقط.. بل سيموتون دونه.

نظر القائد مفكرًا، وقال لياسين:

- إن أقنعت الملك بفكرتك نفذها.

×××

بعد يومين طلب ياسين لقاء الملك الناصر في جناحه.. كان الملك نائمًا على بطنه يحادث نفسه، كان ياسين قد سمع أنه يؤلف الحكايات ويتخيل أبطالها وقد تجسدوا أمامه.. تعجب ياسين من النقوش والوشوم على ظهر الملك، وقد ظهر فيها مجموعة من الرجال صرعى متكدسين فوق بعضهم البعض..

لم يستئذن ياسين وقد بدأ يدلك ظهر الملك، وقال له اقتراحه.. ضحك الملك، بدا وكأنه في مزاجٍ جيد، وقال لياسين:

- سآكل معهم.. ولكن أريدك في أمرٍ أهم.

اعتدل الملك ليكتشف ياسين أنه عارٍ تمامًا، فضحك الملك وقال:

- لا تقلق، فكلانا لا يشتهي الرجال.

همس الملك لياسين قائلًا:

- ألاحظ أنك تتلفت كلما دخلت القصر.. هل تبحث عن شيء معين؟

لم يعرف ياسين بما يرد، فهو لم يدرك بعد وضع نادين في المملكة.. خاف أن يغضب الملك، فقال الناصر بهدوء:

- نادين أخبرتني أنكما إخوة، وقد تربيتما سويًا.

زفر ياسين ارتياحًا، لكن زفرته لم تطل حين قال الملك:

- لا تقلق، سأتزوج من أختك. وستصبح هي ملكة المخلدين الجديدة بعد أمي.. ولكن سنخفي تمامًا إخوتكم؛ فهي أمام الحاشية أميرة من أقارب والدتي، وأنت في نظر الجميع مجرد تابع أصبح موظفًا عندي.

سقط قلب ياسين في قدمه، لم يعرف بمَ يرد على حاكم المملكة وهو يخبره أنه سيتزوج حبيبته الوحيدة.. شعر ياسين أن لسانه ملجم، لاحظ الملك أن صمته قد طال، فقال مبتسمًا:

- وبعد وفاة القائد سليمان العجوز ستصبح أنت مساعد الملك.. هذه هي الصفقة.

لم يرد ياسين للمرة الثانية، سأله الملك عما ألم به من صدمة، فهمس ياسين ببضع كلمات لم يفهمها كلاهما.. فأكمل الملك حديثه دون اكتراث:

- لكن هناك أمرًا يجب إنجازه أولًا..

صمت ياسين مستمعًا باهتمام للملك الذي أردف قائلًا:

- هناك جاسوس في المجلس التوحيدي.. ينقل جميع أخبارنا للممالك الأخرى، ويحضّر لانقلاب ضدنا..

- وكيف عرفت بوجوده؟

- لقد انتشر خبر وفاة أبي الملك الفريد قبل أن نعلنه بين العوام.

سأله ياسين:

- هل تشك في أحد؟

- قد يكون جعفر بن غالية وشيخ الكاملين وأنسي، وكذلك قائدك سليمان الراشد.. صراحةً لم أعد أثق إلا فيك، لا لسبب سوى أن الأخبار كانت تتسرب قبل ظهورك.

صمت ياسين، كانت الصدمات تتوالى ضده، قال الملك وهو يمسك بخنجر ويجرح ذراعه بنفسه كما اعتاد لتخفيف الضغط عنه:

- دورك أن تعرف ذلك الجاسوس الذي يريد التخلص مني.. وتقتله!

١١- ملكة جديدة

كانت نادين قد اعتادت الحياة في قصر الملك الموحد، حتى إنها نسيت حياتها الأصلية في بيتها البسيط مع أمها وإخوتها البنات، حرصت على متابعة أخبار ياسين، وتفوقه وسط مستشاري الملك، ونجاحه في وأد التمرد والقبض على المحرضين ضد الناصر بحيلة «الوفد» المزعوم.

وقد عرفت نادين من الملك الناصر الصفقة التي أجراها مع ياسين حول إخفاء حقيقة أنهما إخوة.. سخرت منه في سرها، لأنه بشكلٍ غير مباشر أصبح يقول الحقيقة دون أن يشعر.

كان يوم نادين مملًا، يبدأ بالجلوس مع الأميرة دانية لتعلمها أكثر عن المملكة وطريقة إدارتها، وكيفية التعامل مع زوجات الأمراء في القصر.. ينتهي الصباح بإفطار مقتضب الحديث مع الملكة مهدية في حديقة القصر؛ حتى تظهر أمام الجميع في صورة القريبة من الملكة، لم تستطع نادين منع نفسها من الشعور بالانقباض كلما رأت الملكة مهدية، بجسدها الكهل وملامحها المسنة، لم تفهم مرضها ولم تقرأ عنه إبان دراسة التمريض.

اعتادت أن تقضي باقي اليوم مع صديقتها الوحيدة في القصر، غالية.. تلك التي تتلهف لاجتماع المجلس التوحيدي حتى ترى ولدها جعفر من خلال نافذة غرفتها.. كان قلب نادين ينخلع كلما رأت ياسين

في الحديقة. وقد فرض الملك الناصر نظامًا صارمًا يمنع احتكاك نساء الحاشية بالرجال الأغراب عنهن، وكذلك بالتابعين. كما أن الناصر حال دائمًا بين لقاء نادين وياسين، كان يخشى أن ينكشف أمر نادين، وأنها مجرد غريبة عن المملكة، وليست قريبة له.

تعلمت نادين من غالية كيف تسعد أي رجل مهما كان صعبًا، ظنت غالية أن عقد الملك ستفك بفضل جسد نادين الحريري.. لم تعلم حقيقة الملك مثلما علمتها نادين.. لكنها كانت تستمع من باب اكتساب الخبرة، على أمل أن تعود لعالمها وتتزوج من ياسين الذي تحبه وتخلص له.

تعرفت أيضًا على خدع أنثوية لم تخطر على بالها يومًا، وقد أدركت مدى براعة غالية، وتعلمت كذلك كيف تستخدم كل تفصيلة في جسدها لتسعد الرجل، أما المعلومات التي كانت جاهلة بها تمامًا؛ فهي نقط ضعف الرجال، وكيف يمكن إغواؤهم.. فكرت أن تجرب بعضًا مما تعلمته على الملك الناصر لعلها تفك عقدته، لكنها تذكرت ياسين فتوقفت على الفور.

بعد أيام، وأثناء تناولها الإفطار مع والدة الناصر، جاءت الملكة مهدية في جناحها، ونهضت في حركة مفاجئة، وأحضرت تاجها.. ووضعته على رأس نادين.. وقالت بانبهار:

- التاج مضبوط على رأسك، كأنكِ ولدتي لتصبحي ملكة.

ضحكت نادين في سرها، فلو سردت على الملكة مهدية أحداث حياتها السابقة لما صدقت منها حرفًا.. اكتفت بالصمت، كانت تماطل حتى يتمكن ياسين من تهريبها، ولكن كيف يهربان وسط هذا الكم من الحراس الشخصيين للملك الناصر وجنوده!

قالت الملكة مهدية وهي تنظر في مرآتها متأملة تجاعيد وجهها الدقيق:

- أنا لا أكبرك بفارق كبير.. لكن بعد رحيل ابني الأكبر الأمير يزن أصابني الحزن، حتى انتقل إلى وجهي وأصبح وجه عجوز خالٍ من الحياة.

ردت نادين في حرج:

- وجهك بديع يا مولاتي.

ردت الملكة وهي تتحسس على أصابعها وتشاهد نفسها في المرآة:

- كنت أجمل بنات المخلدين..

- الجمال جمال الروح.

- روحي رحلت مع يزن.

- كيف رحل؟

- لا يهم، المهم أننا بلا ملك حقيقي.

- ولكن الناصر...

- الناصر ليس يزن.. الناصر هو الناصر، الطفل الأصغر المدلل الكسول، هو أمير عظيم، لكنه ليس ملكًا، يزن كان ليصير حاكمًا عادلًا، لا يسلم أذنيه لمستشار غريب لا نعرف له منشأ!

لم ترد نادين.. شعرت بالإهانة، أشارت لها الملكة مهدية بالرحيل، وقبل أن تغادر قالت الملكة:

- بعد خمسة أيام من الآن سيتم زفافك على الناصر.. لن نقيم حفلًا كبيرًا احترامًا للملك الفريد الذي لم تمر على وفاته أكثر من أسابيع.. سنكتفي بعرس صغير في حديقة القصر، فنستدعي

فريق المسرح وفريق الموسيقى من قطاع النواقص، وستكلف غالية باستقدام راقصة أو اثنتين.

شعرت نادين بالفزع، فقالت في خوف:

- هذا احتفال كبير يا مولاتي.. لا داعي للتعجل على الزفاف.

أعادت الملكة رأسها للخلف وقالت:

- أنت لا تعرفين شيئًا عن احتفالات الملوك؛ يوم زفافي أحضر الفريد فرقةً غنائية خصيصًا من مملكة نعوم، كما جاء بعض المهندسين من مملكة الرمليين فأضاءوا القصر بمشاعلٍ ونيران بيضاء لا أعلم حتى الآن من أين أتوا بها.

حاولت نادين النقاش في موعد الزفاف، لكن الملكة لم ترد، فقط أغمضت عينيها وتوقفت عن الرد ففهمت نادين الرسالة ورحلت.

كان الملك الناصر قد باع عقله لياسين نهارًا، وقد أولاه أموره الشخصية بجانب مسؤوليته كمشرف على الجيش.. واكتسب الهواري ثقةً عظيمة بعد أن أنقذه من تمرد الفقراء دون أن يكلفه عملةً واحدةً من خزانة المملكة.. وقد أحدث خبر الصكوك دويًا عظيمًا بين فقراء المملكة.. فقد أصبحوا يملكون الأراضي، صحيح أنها مجرد ملكية ورقية، لكنها أكسبتهم شعورًا بالانتماء.

لم تدرك نادين أن حبيبها ياسين هو السبب في تخلف الملك عن الغداء معها، فهو من اقترح عليه تناول الوجبة مع حراسه حتى يقوي علاقتهم به، وقد شعر الملك بأهمية هذا القرار، وتأثيره على ملامح الحراس، وقد أدرك ياسين أن الناصر يُحَب ولا يُهَاب؛ فلا سبب لديه حتى يخافه

حراسه، وإذا لم يحبوه انقلبوا عليه مع أول إشارة تأتيهم من أي خائن، ولكن الناصر ملامحه بسيطة، وقامته قصيرة.. يبدو كواحد من عامة الشعب، لذلك يسهل عليهم أن يحبوه.

فكر الناصر أن يجعل حاشيته يتخلون عن أملاكهم للفقراء مثلما فعل هو في أراضي المملكة العامة، لكن ياسين نهاه عن ذلك حتى لا يحارب على أكثر من جبهة.. فحربه الآن مع خصم لا يعرفه أيهما، وهو من يخطط للانقلاب على حكمه من المجلس التوحيدي، كما أشار أحد الجواسيس على الملك.

لاحظت نادين تغيب الملك الناصر عن تدريبات القتال التي يمرنه عليها القائد سليمان الراشد بنفسه، مما أثار حفيظة القائد.. لكنها علمت لاحقًا أن ياسين أشار على الملك الناصر بعدم جدوى تعلم القتال، فكلاهما لا يمتلك الجسد للقتال، وأن القوة الحقيقية في المعرفة.. لذلك كانا يستثمران الوقت في قطاع التابعين والعلماء، وتحديدًا داخل مبنى المكتبة.. وقد شعر حكيم المكتبة بأهميته مجددًا بعد أن عاد يوجه الملك مرة أخرى وهو كبير..

- هل قرأت كتاب «الأثر» أيها الغريب؟

سأل الحكيم ياسين عن الكتاب الذي وجده في غرفته الصغيرة الملحقة بمساكن العلماء، فرد ياسين في مكر:

- قرأته من المنتصف.. منذ حرب التوحيد.

رد الملك الناصر مصححًا:

- إذًا فقد قرأته من البداية.. فتاريخنا يبدأ مع التوحيد.

علق ياسين في مكر:

- مستحيل، هذا الكتاب مقطوع من البداية.. هذه ليست حضارة مئة عام فقط!

رد الحكيم:

- ما قبل الملك الموحد لا يهم!

- كيف لا يهم، من لا يعرف ماضيه لا يعرف مستقبله.

قال الناصر في سذاجة:

- لقد أحرق جدي كل الكتب التي تؤرخ لما قبل عصره.

عقب ياسين:

- وماذا عن العجائز، أحاديث الأولين.. الأساطير؟ الحكايات؟ هل أحرق جدك الألسنة والعقول كذلك؟

بدا على الملك الناصر الغضب من طريقة حديث ياسين، أدرك الأخير أنه قد تجاوز الحد المسموح له، كان يريد السؤال عن الأديان، وما حالها في هذا العالم، فمستحيل أن تكون عقيدة الكاملين هذه هي الديانة الوحيدة هنا.. لكنه لم يشأ صدامًا آخر مع الملك، كان لديه فضول لمعرفة جغرافيا المملكة، فقال للحكيم:

- صف لي المملكة كموقع، أريد أن أعرف أين نحن؟ فإن كنا غائبين عن التاريخ.. فمستحيل أن نتخلف عن الجغرافيا.

رد الحكيم مقتبسًا من كتاب قد قرأه في وصف المملكة:

- مملكتنا بين ثلاثة بحار ومنطقة جبلية.. بحر شرقي يفصلنا عن مملكة الرمليين، وبحر غربي يفصلنا عن مملكة نعوم، وبحر واسع في الشمال ممتد إلى ما لا نهاية، ومنطقة جبلية في الجنوب

لم يتمكن أحدنا عبورها.

حاول ياسين أن يتذكر أي البقاع الجغرافية تشبه ما وصفه الحكيم في عالمه الأصلي.. لكنه لم يجد.. هل الحكيم مخطئ؟ أم أن هذه المملكة غير موجودة زمنًا ولا مكانًا؟ هل ياسين نفسه يحلم؟ مستحيل! ولكن كيف تكون مملكة بهذه المواصفات على كوكب الأرض.. كم سنة انتقلها ياسين نحو الماضي؟ كل هذه أسئلة لم يجد لها الهواري إجابة!

سأل ياسين ببراءة:

- لا أريد أن أعرف التاريخ، ولكن سؤالًا من الحاضر يؤرقني..

نظر له الناصر والحكيم في اهتمام، فقال:

- ما تاريخ الغرفة المحرمة؟ وماذا يوجد بداخلها؟

جلست نادين في فراشها الحريري الوثير، كان خماسي الشكل وليس مستطيلًا كما اعتادت في عالمها الأصلي.. كان الفراش الخماسي حكرًا على طبقة الحكم.. حتى وقت قريب كانت تظن أن مصطلح «وسادة من ريش نعام» هذا مجرد مصطلح بلاغي يدل على الترف، لكنها أدركت أنه حقيقي تمامًا.. وكذلك أدركت مدى دقة مصطلح «ولد وفي فمه ملعقة من الذهب»، وقد أكلت بإحدى هذه الملاعق على الطاولة الملكية في الوليمة الأسبوعية التي يقدمها الملك لحاشيته من الأمراء والوزراء ومسؤولي المملكة.

كانت إجراءات الزفاف تسير على نحو سريع، لم تصدقه نادين.. والملكة مهدية لم تترك تفصيلة صغيرة إلا ووقفت عندها؛ بدايةً من الطعام البسيط المقدم للمدعوين، مرورًا بأشكال وألوان الراقصات

التي ستحضرهن عامرة من بنات النواقص، وكذلك المنشدين الذين سيحضرون من قطاع الزهاد ليباركوا العرس، وكذلك شيخ الكاملين الذي سيعلن الزواج بنفسه.

حاولت إحدى الأميرات تكوين صداقة مع نادين، فأهدتها قلادة ماسية، وبعض الملابس الجلدية المفصلة بعناية.. لكن نادين أدركت أن كل هذا غرضه معرفة سر الملك الذي منعه زواج الأميرات المقيمات في القصر.. وكانت تدرك أن حياتها في هذا السر، لذلك لم تفرط فيه أبدًا.

أما في جناح الملك، فقد بدا الأمر عبثيًا، فنادين في ملابس النوم، تطلق شعرها ومفاتنها أمام رجل غريب عنها ولا تحبه، فقط لأنها تدرك أنها لا يشتهيها.. في حين يقف الملك أمام المرآة متأملًا نفسه بعناية.. يظل يتحسس نفسه ويمدح في تفاصيله، وقد ابتاع مرآة خصيصًا تبرز أدق تفاصيله، لم تكن تفاصيله هي الأجمل، خصوصًا مع الخطوط البيضاء التي ظهرت في بعض الأماكن من ذراعه وبطنه، وبعض الترهلات التي احتلتها كذلك.. لكنه كان يحب نفسه لأنها نفسه.

كان الملك ينتهي من تأمل حاله، ثم ينام بجوار نادين التي لا تعلم بم يجب أن تشعر، أتفرح لأنها لم تُمَس حتى الآن وقد ادخرت نفسها لياسين، أم تحزن لأن هناك رجلًا مكتمل الذكورة ينام جوارها ويرى منها ما لم يرَ رجلًا في الحياة دون أن يستثار.. صحيح أن عرضها مستور، لكن أنوثتها جريحة.

ما هون عليها الأمر هو أن الملك استلطفها كصديق، وأدمن كلٌ منهما صحبة الآخر.. حكى الناصر لها عن انبهاره بياسين الذي لا يزال يظنه أخاها، وعن مخاوفه من طمع أنسي وجعفر بن غالية في الحكم، وعن شكوكه في المؤامرة التي تحاك ضده، كان يحكي لها كل ليلة قصة

أسطورية من تأليفه، قصصًا من ممالك الرمليين ونعوم، قصصًا عن وحوش أسطورة تطير وتضرب البشر..

كذلك نادين راحت تسرد عليه قصص الأفلام العربية أو الأجنبية التي شاهدتها في الماضي كأنها من تأليفها هي الأخرى، ظنت أنه سينبهر بهذه الحكايات الجديدة.. لكنه لم يعجب بإحداها، لم تعرف نادين إن كان السبب ذوقه الغريب في القصص، أم أنها ليست بارعة في الحكي.

وفي إحدى الليالي تأخر الملك داخل قاعة الحكم، خمنت أن هناك أمرًا عظيمًا يواجهه، تخيلت طريقة ياسين في الحديث، هذا النحيل عبقري، بالتأكيد يبهر الجميع بحديثه مثلما فعل معها وجعلها تنسى خيري بأمواله وجسده المفتول..

كانت على يقين أنه يخطط لتهريبها من القصر قبل الزفاف، فهو بالتأكيد لا يعلم علة الملك، ويظن أن الزواج سيكون حقيقيًا، وأن بياتها في الجناح وراءه الكثير..

سمعت صوت خطوات، ظنت أنه الملك، لكنها فوجئت بإحدى الخادمات، تعتذر عن قدومها للجناح الملكي في هذا الوقت، لتخبرها أن الملك يريدها في قاعة الحكم.

غطت نادين نصف شعرها بوشاح حريري من مقتنيات الملكة مهدية، ثم ارتدت فستانًا حريريًا بسيطًا، كانت لديها تعليمات بألا تتجول سوى بالفساتين داخل القصر، حتى لا تفقد هيبتها.. تجولت في الردهة وتأملت الجدران المزخرفة بالنقوش، ونظرت نحو النوافذ المغطاة بأسياخ حديدية.. حتى وصلت إلى قاعة الحكم، وحين دخلت فوجئت بياسين جالسًا مع خطيبها الناصر..

- أخوكِ يقترح عليّ أن تنزلي السوق.

أحنت نادين رأسها في الأرض، خافت إن نظرت نحو ياسين أن يشعر الملك بما يدور أو أن تفضحها النظرات.

قال ياسين شارحًا وجهة نظره وهو يتجنب النظر لنادين.. كانت هذه المرة الأولى التي يراها بدون حجاب، وبملابس تكشف رقبتها.

- مولاتي ستنزل السوق مرتين قبل الزفاف، ستشترين قطعة قماش من أي سيدة بسيطة، لترتديها كوشاح يوم الزفاف.

بدا على نادين عدم الفهم، فقال الملك شارحًا فكرة ياسين في فخر كأنها فكرته:

- الناس بعد مشروع صكوك الملكية للأراضي أصبحوا راضين، لكن لا يزال الحاجز بيني وبينهم كبيرًا، ولا يمكن أن أحطمه من يوم وليلة.

أكمل ياسين بهدوء:

- ولكن الأميرة الجديدة إن انتشرت عنها الشائعات أنها تحب الشعب والبسطاء منه، ستنهار الحواجز بين الملك وشعبه، وهذا سيجعل أعداءه يفكرون ألف مرة قبل أن ينقلبوا عليه.

أومأت نادين برأسها موافقةً دون نقاش، تعجبت من طريقة ياسين الجديدة في الحديث، بدا واثقًا هادئًا يعرف ما يفعله، بدا وكأنه قد وجد نفسه في دور مساعد الملك.

أدركت نادين أنها على خطأ صباح اليوم التالي، حين وجدت ياسين في كامل أناقته، وقد ارتدى زيًا جلديًا يشبه الأمراء، كان في انتظارها داخل الحديقة، ركبت نادين عربة الملكة مهدية التي تشبه الحنطور، ساعدها ياسين على الصعود وركب إلى جوارها محافظًا على مسافة كبيرة بينه

بينها.. طلب من سائق العربة التحرك، نظر ياسين نحو فارسين من حرس الملك، ناداهما بالاسم وطلب منهما في ود أن يتبعا العربة في طريقها للسوق.

التقطت أنف ياسين رائحة غريبة لروث الخيل الذي يجر العربة، سأل السائق فرد الأخير:

- محاصيل الكاملين الملاعين.. يضعون عليها مواد تجعلها سامة وضارة بالخيول حتى تنبت أسرع.. أرجو أن تنقل هذه الشكوى للملك أيها المستشار.

فلتت ابتسامة من نادين حين لمحت ياسين وقد تقمص دور مستشار الجنود ومساعد الملك جيدًا.. همست في أذنه:

- ممكن تفهمني الفيلم ده كله إيه لازمته؟ عايزين نتنيل نرجع!

رد ياسين في حيرة وهو ينظر نحو السائق حتى لا يتأكد أنه يسترق السمع:

- أنا مش فاهم أي حاجة، لا عارف إحنا فين في التاريخ، ولا في أنهي مكان في العالم.. المملكة دي مش موجودة في أي حاجة درسناها!

- بس كلامهم شبه كلامنا، وعاداتهم قريبة.

قال ياسين ساخرًا:

- عايزة تبقي ملكة يا بنت نجوى؟

- قال يعني إنت اللي مساعد ملك؟ الناس دي عبط ولا إيه مش عارفة؟

مرت العربة فوق جزء غير مستوٍ من الطريق، فشعر ياسين بألم في مجلسه، اعتذر السائق، بعد أن وبخه ياسين، التفت نحو نادين ورد ياسين بلهجة جادة:

- المعرفة يا نادين.. إحنا سابقين الناس دي بحضارة وعلم وثقافة وكمية خبرات.. الناس دي متأخرة في التكنولوجيا، معندهمش أخبار الممالك اللي جنبهم، حتى تاريخهم محرومين منه.. طبيعي أي حد فينا يظهر ويبقى مميز وسطهم.. حتى الواد بركة.

قالت نادين مستدركة:

- صحيح متعرفش حاجة عن خيري وبركة؟

أشار برأسه نفيًا، نظر خارج العربة ليجد أنهم قد وصلوا السوق، فقال:

- أنا اقترحت موضوع السوق ده عشان أعرف أتكلم معاكي.. انزلي اشتري قماشة خضرا، من البنت الصغيرة دي.. أنا زرعت بصاصين في كل مكان في السوق يتكلموا عنك.

لم تفهم نادين سبب حرصه على هذا التصرف؛ فهو مفيد لها في حالة البقاء في هذه المملكة، ولكن العودة ستكون خلال أيام، فما النفع من ذهابها للسوق وحب الناس.. نفذت ما قاله على عجل، وجدت حولها الكثير من المنافقين ممن عرفوها دون أن يروها، وقد مدحوا تواضع الملكة.. صعدت العربة سريعًا وسط هتافات من ناس لا تعرفهم بالمجد للأميرة الجديدة.. صعدت العربة لتجد ياسين يضحك وهو يتناول قطعة من الخبز قد أحضرها معه من إفطاره مع العلماء..

- غلابة الناس دول، ما بيصدقوا يتعلقوا بأي حد.

ردت نادين في عصبية:

- إحنا ليه منهربش دلوقتي.. مش أنت لقيت حل لموضوع الرجوع؟

أومأ ياسين برأسه على استحياء، لم يكن متأكدًا من خطة الرجوع، لكنه كان قد خطط جيدًا للهرب، فقال:

- صعب نهرب دلوقتي، الحرس حوالينا والملك مكلفهم يمنعونا من الهروب، لأنه متوقع الخطوة دي.. بس مستحيل يتوقعها يوم الزفاف.

- وهنهرب إزاي من قلب القصر؟

- هنهرب وسط الحفلة، أنا درست فتحات التهوية كويس يوم ما كنت بحط فيها الريحة.. الأنابيب في جناح الملك واسعة جدًا وهتعرفي تتحركي جواها بسهولة، حتى وإنتي لابسة الفستان.. هتطلعي على أي كرسي وتطلعي الفتحة من السقف.

- وهتحرك في أنهي اتجاه؟

- هتتحركي يمين في اتجاه حركة الهواء، بعدها يمين تاني.. وهتنزلي على تحت.

قالت نادين إمام معترضة:

- دي على ارتفاع تلات أدوار، أنت عايز تموتني؟

رد ياسين وهو ينظر ليجد أنهما قد وصلا لقصر الناصر الذي فتحت أبوابه أمامهما:

- الفتحة فيها سلم بنطلع وننزل منه عشان نثبت العطور في الأنابيب.. أنا هكون مستنيكي تحت أكيد، واتفقت مع مشرف التابعين يجهز لنا عربة نهرب فيها.

أمسكت نادين بيد ياسين قائلة:

- ياسين أوعدني أرجع لأهلي!

كانت هذه المرة الأولى التي يكذب فيها، لم تكن لديه أي فكرة عن كيفية الرجوع ولا أي خطة بعد الهروب من قصر الناصر، لكنه قال بلهجة بدت صادقة:

- أوعدك.

قاطع حديثهما صياح أحد الحرس راكضًا نحو ياسين، وحين رآه قال في فزع:

- سيدي المستشار.. القائد سليمان الراشد يريدك في الحال.

رد ياسين بلا مبالاة:

- سأوصل الملكة الجديدة لجناح الملك وآتي خلفك.

رد الحارس في فزع:

- لا يوجد وقت، القائد ليس بخير.. لقد قتل خادمه الشخصي!

١٢- حانة الصفوة

التف الحرس حول خيري الذي اكتشف اختفاء سلاحه، كان يدرك أن الخمر سيخفف من وطأة الضرب الذي سيتعرض له، وقف الحراس الثلاثة مترددين من الهجوم عليه، فجسده المعضل وذراعاه المنفوختان قد يعطيان انطباعًا زائفًا عن كونه فارسًا أو محاربًا، لذلك حاول أن يكسب بعض الدقائق عن طريق مراوغتهم ومحاولة إبعادهم عنه حتى يفكر في طريقة للهرب.. كانت النافذة الوحيدة في الغرفة ضيقة، لا يمر منها رأس إنسان بالغ.. اقترب الحراس وبدأوا يضربون خيري بعصيانهم..

- توقفوا!

كانت هذه «عامرة» مالكة الحانة، وقد أمرت الحراس بحزم كأنهم خدم لها.. الأغرب أن الحراس قد أطاعوها، فأردفت قائلة:

- لقد عرفت من سيدكم ما فعله هذا الوافد، ومنحته ثمن الثوب مشروبات يتناولها في الحانة.. ضيفي ليس لصًا.. لقد أخذ الثوب بالخطأ وأخبرني بهذا، وكان ينوي إعادته صباحًا.

تراجع الحراس عن خيري، وعادوا للحانة، حيث سيدهم القانع بهذه الصفقة.. نظرت له عامرة من أعلى إلى أسفل وقالت:

- لقد أخفيت الكيس في غرفتي خوفًا عليه من السرقة، أما وإن كان مسروقًا فلن أعيده إليك.

ثم تذكر عامرة المسدس، فخمن خيري أنها لم تفتح الكيس بعد، ولو فتحته لما أدركت أن ما رأته هو سلاح يستخدم للقتل.

- سأعطيك الكيس، ولتبع الثوب غدًا لتدفع ثمن إقامتك وثمن ما شربته عندي.

- أريد أن أعمل هنا.

- ليست لدي وظائف.

- سأقدم المشروبات للزبائن.

- الساقي يقدم المشروبات بعد تجهيزها

- هذا يأخذ من وقت الساقي وتركيزه.. كما أن هذا الساقي شديد التجهم، لا يتحدث ولا يبتسم، سيفسد مزاج الزبائن كما فعل معي.. لكن الزبون سيسعد حين يرى شخصًا في هيئتي يقدم له طلباته ويجامله في الحديث والضحك.. شخص يبدو عليه الوجاهة لدرجة أن سيدتهم «عامرة» صدقتهم أنه من الصفوة.

اقتربت عامرة من خيري وقالت وهي تتحسس عضلاته المنتفخة:

- سيدتهم وسيدتك عامرة لا تزال تصدق أنك من الصفوة.

فهم خيري تلميحها، فتظاهر بالتعب وطلب منها المبيت بمضرة، بعد أن استرد الكيس واطمأن أنها لم تلحظ المسدس المدسوس وسط الثوب الحريري.

أما اليوم التالي فكان مزدحمًا بالأحداث، تجوَّل خيري في السوق ليبيع الثوب الحريري.. واشترى لنفسه بعض الملابس البسيطة؛ كانوا يرتدون قمصانًا كتانية فضفاضة بلا أزرار، مزينة بخيوط صفراء اللون، وبناطيل قماشية واسعة أيضًا. لم يدرك أنه وسيم في هذا العالم لهذه الدرجة، فقد لاطفته سيدتان في الصباح وكذلك فعل أحد التجار.

حين عاد للحانة أدرك أن الساقي الأخرس قد أبدى استياءه من مقاسمة مهنته معه، فهو يريد أجره كاملًا، فاقترح خيري أن يظل أجره ثابتًا ويكتفي بالإكرامية من الزبائن، وقد اعتمد على لباقته في الحصول عليها.. علم فيما بعد أن هذا الساقي قد باع جسده للكريمة حتى ألفته وكفت عن اشتهائه وتمييزه عن الباقين، فعزم على تعلم الدرس جيدًا، وقرر ألا يدع عامرة تقربه لفترة طويلة.

لكنه تعرف على الراقصة الفاتنة وديدة، والتي تسرق القلوب قبل العيون حين تتمايل على المسرح.. ظل منبهرًا بها، فبسبب عيشها في قصر الملك الفريد لا تزال لها طباع الأميرات، تتحدث عن غالية باحترام شديد، فهي من علمتها كيف تفتن الرجال، ولقنتها درسًا مهمًا عن كون الأنوثة سلوكًا قبل أن تكون جسدًا مضبوطًا ووجهًا حسنًا.

لم تنبهر وديدة بوسامة خيري عكس الجميع، فقد رأت من الأمراء والحكام ما رأت، فقط انبهرت بكونه غريبًا عن هذا العالم، لا يعرف أبسط قواعده، ويتحدث بلهجة جديدة على الآذان، كان خيري ينجح في المراوغة كلما سُئِلَ عن منشأه.

من اللحظة الأولى أدرك خيري أنه يهيم بوديدة.. كان يراقبها في كل حركة لها قبل فقرتها، يشاهدها وهي تتدرب على الرقص والتمايل..

ينظر لها بإعجاب حقيقي، وكانت هذه المرة الأولى التي تبادل وديدة فيها إعجابًا مع شخص.. كان لديها فضول جم تجاه ذلك الغريب، وقد لاحظت عامرة هذه المراقبة، وكذلك لاحظ جميع رواد الحانة وعامليها بوادر قصة الحب.

عرف أن جميع الصفوة يريدون النيل من وديدة زواجًا أو فراشًا، حتى ساقي الحانة، والذي تبادل معه العداء منذ اللحظة الأولى، يبدو أنه غريب مثله ولديه ماضٍ في قطاع التابعين.. أدرك خيري أن نجاته في هذا القطاع تعتمد على ابتعاده عن وديدة، فهذه الراقصة مطمع لجميع الزبائن، وهو نفسه مطمع لمالكة المكان، بالتأكيد لن ينجح إذا ما ترك نفسه لقلبه المأسور بهذه الشقراء.. فقرر دهس قلبه، والتخلي عنها.

لمح خيري طبول الفرقة التي تعزف الموسيقى حين ترقص وديدة، علم لاحقًا أن العازفين يأتون من مسرح المعاقين المجاور للحانة لإحياء فقرة وديدة والعودة لمسرحهم مرة أخرى، سرح بخياله حين سمع لفظ «المسرح».. لكنه اكتشف أنه مجرد بيت واسع يفترش رواده الأرض ويقف في منتصفه مجموعة من الممثلين يؤدون بعض الحركات والنصوص البسيطة، فجميعهم من ذوي الإعاقات والأشكال الغريبة، والجمهور لا يأتي إلا ليضحك على مناظرهم ويسخر من أشكالهم وطريقة حركتهم.. وعلى الرغم من بساطة المسرح إلا أن جميع أهل النواقص يرتادونه، فهو وسيلة التسلية الرخيصة، وكذلك فإن الكثير من أهل النواقص لا يحبون الحانات ولا يشربون الخمر، فهم لا يزالون على العقيدة الكاملة المتوسطة التي لا تدفعهم للتشدد كأهل قطاع الكاملين.

اقترب خيري من الطبول، تذكر ورشة تعليم عزف الطبلة التي حضرها منذ سنوات بعيدة.. بدأ يعزف لحنًا راقصًا، استنكره رواد

الحانة في البداية، لكنهم أحبوه مع الوقت.. فقررت عامرة تثبيت هذه الفقرة قبل رقصة وديدة.. مما زاد حقد الساقي الأخرس عليه.

انقلبت الحانة رأسًا على عقب فور وصول حاكم قطاع النواقص وهو الأمير جعفر بن غالية..

كان لجعفر حضور لا يقل إبهارًا عن والدته، وقد ورث عنها سمار البشرة وجمال الملامح، وحرص على الظهور بأقراطه الفضية الثلاثة، كما لو كانت حسنات لامعة على جانب وجهه الأيمن، وشعره البني المضفر للخلف.. كان لديه هوس بشاربه السميك الذي زانه وزاده وسامة ورجولة.. خمن خيري فيما بعدُ أن هذا الشارب هو تعويض لهيبته الناقصة كونه حتى هذه اللحظة بلا أب، وينادي باسم أمه؛ على الرغم من كونه مسؤولًا عن قطاع كامل، ويقترب من مكانة أمراء المملكة، أما جعفر فلم يشبه أحدًا سواه.

قيل عنه إنه ابن الملك الفريد، وأن غالية لم تقتل بعد أسرها بفضل هذا السر، وقيل إنه ابن القائد سليمان الراشد، وقيل إن ابن الشريف الكامل أو شيخ الكاملين؛ فقد كانت أمه مطمعًا لكل من بالمملكة.

كان اليوم هو يومُ الضرائب.. وكان جعفر رفيقًا بعامرة في جمع الضريبة لأنها آخر ما تبقى من أثر أمه التي لم تهتز مكانتها لديه، فهو لم يلمها قط على كونه بلا أب، كان يقدر ضعف أمه البشري ويتصالح معه.

لم تشغل عامرة لدى جعفر فراغ الأمومة فحسب، بل كانت المصدر الرئيسي لتلبية شهواته، فهي من تختار له المشروب حسب حالته المزاجية، وتصطفي له النساء، وتشعر به قبل أن يمل إحداهن.. فتغيرها له على الفور.

لم يتجاوز بن غالية الأربعين من عمره.. وكان محبوبًا بين النواقص، فهو لا يتشدد في العقيدة مثل شيخ الكاملين، ولا يقسو في جمع المال ويطبق نظام التابعين مثل الناصر ورجاله.. وهو حاكم له رأي وكلمة حتى وإن ظل تابعًا لقطاع الحكم، عكس الزهاد الذين تركوا السياسة لنسل الملك الموحد.

سبب آخر جعله محبوبًا بين أهله منذ طفولته، وهو تعبه، كان قبل ذلك يعرف أنه مريض بشكل يكاد يقتله، وقد تعاطف الجميع معه لذلك.. حتى شفي دون سبب واضح.

تعجب جعفر من مهنة خيري الجديدة عليه، سأله عن منشأه ولم يهتم لسماع إجابة.. فقد انخرط في مشروبه، وسأل عامرة عن سبب تأخر ظهور وديدة على المسرح.. كان يحب رقصها ولا يشتهيها كأنثى على الرغم من عدم معارضتها له كونه حاكمًا.

لكن وديدة لم تكن ذات رغبة الفراش، سمع خيري شائعات عن برودها، وأن جعفر كان السبب في طردها من فريق المبهجات الخاص بالملك الفريد من قبل..

هدأت أنوار المسرح، وعزفت الموسيقى؛ كانت اللوحة مجهزة تمامًا، الورق في مكانه، والبرواز على الحائط.. فقط ينقص وديدة لتكمل المنظر البديع.. تأخر ظهورها عكس عادتها، نظر الرواد لبعض في دهشة، شعرت عامرة بالغضب من تلك الراقصة التي بدأت تشعر بقيمتها وتتأخر عن الفقرة الخاصة بها.. فتوجهت بخطوات سريعة غاضبة نحو غرفة وديدة وهي تفكر كم تخصم من أجرها اليومي.

استمرت الفرقة بالعزف، ولكن بلحنٍ هادئ عكس اللحن الثائر الذي يحرك المشاعر حين تتراقص عليه وديدة.. ولكن حتى هذا العزف الهادئ تم قطعه بصوت صرخة طويلة من«عامرة»، التي شقت سكون الحانة، بعد أن دخلت غرفة الراقصة وديدة لتجدها غارقة في دمها الذي يسيل من جرح عميق في عنق كان يشتهيه الرجال.

١٣- الحُكْم للجمهور

توجه بركة مسحورًا نحو الخيمة، لاحظ أن عددًا من الشباب المتزمت أو «البهائم».. وقف وسط الصفوف المصطفة أمام الخيمة، ظن أن الدخول بالدور، لكنه سريعًا ما أدرك أن هناك رجلًا يقف أمام فتحة الخيمة فيختار من يدخل ومن ينتظر بالخارج.. كانت ملابس هذا الرجل مختلفة عن ملابس أهل القطاع، فمعظمهم يرتدي الجلباب أو الملابس البسيطة، لكن هذا الرجل كان يرتدي ملابس ملونة مثل الخيمة الضخمة التي يقف على بابها، وفور أن لمح بركة اخترق الزحام واجتذبه من يده قائلًا:

- تعال أيها المحظوظ.

لم يفهم بركة ما يحدث له، كيف أصبح محظوظًا خلال دقائق، وكيف اجتذبه الرجل سريعًا وتحققت نبوءة الطفلة.. تحرك بعد أن دفعه الرجل لداخل الخيمة، كاد أن يتعثر في طفلٍ صغير داخل الخيمة، نظر له ليعتذر فاكتشف أنه قزم قد تجاوز الأربعين من العمر.

وجد بركة نفسه داخل خيمة بعض الأطفال من ممتلئي الجسد، وأكثر من شاب أسمر البشرة.. لم يفهم ما يحدث في هذه الخيمة، ظل واقفًا في طابور داخل الخيمة، كانت متسعة من الداخل بشكلٍ أكبر مما كان يتوقع، ظل يتحرك في الطابور حتى وصل إلى سيدة تخطت الستين

من عمرها، لكنها تصبغ شعرها باللون الأصفر الفاتح، تضع الكثير من مساحيق التجميل، بدا عليها الانبهار حين لمحت بركة.. طلبت منه أن يؤدي بعض الحركات الاستعراضية والرقصات أو القفز بشكل مضحك، أو يمثل بعض المشاعر كالألم والضحك والحزن.. لم يفهم بركة ما تريده هذه السيدة في النهاية، لكنه كان يطيعها بعد ثوانٍ من الاستيعاب.

صفقت السيدة بيديها بعد كل حركة يؤديها بركة، ظن أنها معجبة به في حين أنها كانت تهمس لمساعديها داخل الخيمة أن بركة مثالي للمهمة التي تريده فيها.. طلبت من بركة الجلوس في ركن من الخيمة والانتظار حتى تنتهي من عملها وتجلس معه لتشرح له ما تريد.

كانت السيدة عصبية مع الجميع، لكنها حين تنظر في عيني بركة تتحول للوداعة، وهو الأمر الذي أثار ريبته، ترى ماذا تريد هذه السيدة وماذا تفعل في قطاع الكاملين الذي فهم أن جميع من فيه يلتزم بالقواعد، ويعتبرون النساء فئةً أقل.

انتظر بركة بالساعات، وقد جلس في ركنٍ الخيمة، لاحظ أن رائحة البخور تملأ المكان، وأن جميع العاملين يرتدون زيًا موحدًا، لاحظ كذلك أن السيدة ذات المساحيق -والتي اتضح أنها زعيمة هذا المكان- تطلب من جميع الواقفين في الطابور داخل الخيمة أن يفعلوا مثلما طلبت من بركة. بعض الحركات والمشاعر، لكنها لم تتحمس لأحد مثلما تحمست له.

انفض الجمع، ولم يتبقَ إلا العاملون من ذوي الملابس الموحدة، وقفت السيدة الستينية أمام لوح زجاجي ضخم الحجم، تضبط مساحيق تجميلها، نظرت لبركة من خلال انعكاس اللوح وقالت له:

- اتبعني أيها المحظوظ.

نظر بركة نحو انعكاسه على لوح الزجاج، لم يكن يرى في نفسه ما يراه الآخرون، كان يعتبر ملامحه التي يبدو عليها شيء من البله أمرًا عاديًا، كذلك قامته القصيرة وقوامه البدين.. لم يرَ نفسه يومًا يستحق السخرية ولا التعجب من مظهره، كان يريدهم أن يروا نفسه كما يراها.

تبع السيدة الستينية نحو ركن من أركان الخيمة.. حاول ألا يطيل النظر لوجهها، والذي كان غريبًا عليه بسبب ما تضعه من المساحيق.. وفي النهاية قالت:

- يبدو أنها المرة الأولى لك في خيمتنا.. باختصار هذه الخيمة تطوف بين القطاعات لتبحث عن الموهوبين أمثالك، نجمعهم في المسرح الكبير في قطاع «النواقص»، حتى يأتي جميع أبناء المملكة لمشاهدة العروض.

استفهم بركة كيف أن الشريف الكامل يتركهم ليختاروا الناس في قطاع الكاملين، وقد فهم أن مثل هذه الأمور الترفيهية ممنوعة هنا، ضحكت وهي تربت على كتفي بركة:

- يبدو أنك لا زلت ساذجًا.. لا يوجد كاملون في الدنيا، عقيدة الكاملين هي غاية لا يدركها أحد.

أتعرف ماذا حدث حين رأى شيخ الكاملين بعض الفضة؟ انهارت كل أخلاقياته، وأصبح فجأة من الكمال أن تسمح لغيرك من النواقص بالعمل على أرضك، بل وتوفر لهم الحماية كذلك.

هؤلاء ممن يدعون الأخلاق، لا يطبقون قواعدهم إلا على الفقراء، ولكن حين تظهر الفضة على الطاولة، فلا تتحدث إلا عن فضيلة الإنفاق.

حاول بركة أن يفهم طبيعة عمله معها، فردت بلهجة بديهية:

- ستخرج للجمهور على المسرح مع زملائك من ذوي الأجساد الغريبة والمشوهة، وبعض الأقزام كذلك، تؤدون بعض العروض البسيطة، ترقصون وتغنون، سنحفظكم بعض الجمل المضحكة لتسخروا بها من بعض.. يضحك الناس، يدفعون لنا الفضة.. نعطيكم رواتبكم.. لا أحد يخسر في لعبة المسرح.

فهم بركة أخيرًا لماذا كان يلقبه الجميع بالمحظوظ، ولماذا تمسكت به هذه السيدة دون غيره.. كان هذا بسبب اختلافه الوحيد عن البشر، وإعاقته التي تجعل مظهره وطريقة حديثه مضحكة لمن لا يفهمها.. عرضت عليه عملتين من الفضة، وأخبرته أن هاتين العملتين سيضمنان له سكنًا وطعامًا لمدة شهر حتى ينتقل بشكلٍ نهائي لمقر المسرح في قطاع النواقص، لكنه لم يرد عليها من الأساس، انسحب في هدوء كما يفعل دائمًا حين يرفض أمرًا ولا يقدر على المواجهة.. ظلت السيدة تناديه حتى ملت منه، خرج من الخيمة بخطوات بطيئة، وسمع في الخلفية صوت صراخها عليه ولعنها لوالديه اللذين أنجبا شخصًا بهذا الغباء.

حين خرج شعر ببرودة تجتاح جسده، سأل أحد المارة عن مزرعة «مصباح»، وبالطبع نسي وصف شيخ الكاملين له، أرشده الناس نحو المزرعة التي طرق بوابتها الخشبية بكل قوة.. وجلس منتظرًا من يجيب.. عاود الطرق ليظهر له شاب في الثلاثين من عمره، كان دميم الوجه عابس القسمات لا يضحك أبدًا، سأل بركة عمن يكون فحكى له بركة قصته بصعوبة.. لم يرد الشاب وفتح الباب له، وقال وهو يشير نحو تقسيمة المزرعة من الداخل:

- أنا الكامل مصباح، صاحب هذه المزرعة.. البيت على طرف المزرعة يخصني أنا وزوجتي وأبنائي، لن تقربه بأي حال من

الأحوال، وإن اقتربت منه قتلتك بلا تردد.. ستبيت ليلتك في غرفة بناها الحارس القديم وسط الأرض قبل أن يرحل.

أومأ بركة برأسه متفهمًا، فأكمل مصباح قائلًا:

- وظيفتك ليلًا أن تحرس المزرعة إذا تسلل أحد لسرقة المحصول، ستنادي على أي من شباب الكاملين الذين يطوفون الشارع ليلًا، وهم سيقبضون على السارق.. كما أنك ستنهض إن سمعت صراخ الحيوانات، فإن كان صراخها شديدًا ذبحتها بسكين ستجده في غرفتك حتى نستفيد من لحمها قبل أن يتجلط الدم به.. وفي الصباح ستساعدني في إحضار الماء لري المحصول.

تذكر بركة منظر العملات الفضية في يد السيدة التي تطوف بحثًا عن ممثلين بالمسرح، فسأل مصباح عن الأجر.. فرد مصباح ساخرًا:

- العمل عندي مقابل الطعام والنوم.. فلو وجدت عملًا في هذا القطاع مقابل المال اترك المزرعة.. وحينها لا تأتي لطلب الإذن بالرحيل.. فأنا من يطلب منك ذلك.

دخل بركة في غرفة ضيقة، كانت رائحتها هي مزيج من العطن وروث البهائم؛ كانت مجاورة لحظيرة بسيطة التصميم تسكنها البهائم. لكن بركة من شدة تعبه نام، نام دون أن يفكر في أي شيء.

استيقظ صباحًا على صوت مصباح الذي تبدلت ملامحه الهادئة عن الأمس، وقد تحول لرب عمل قاس، أمر بركة بإحضار المياه في أوعية ضخمة عبر النهر في نهاية الطريق، لم تكن المسافة كبيرة لكن الحمل كان ثقيلًا.. في البداية كان نصف المياه يتساقط من بركة أثناء حمله للوعاء، لكنه مع الوقت تعلم الكمية المناسبة وطريقة الحمل الأفضل كي لا يخسر المياه.

حاول أن يقنع مصباح بشق قناة صغيرة توصل المياه، كونه قريبًا من النهر، لكن مصباح لم يفهم ما يريده بركة بسبب تعقيد الفكرة بالنسبة له، وكذلك بسبب مخارج الحروف لديه.

مرَّ اليوم بطيئًا، لم يكد ينام حتى استيقظ في صباح اليوم التالي على صوت مصباح يعده اليوم بمهمة أسهل.. وهي إطعام الحيوانات بدلًا من زوجة مصباح المريضة.. وفي اليوم التالي طلب منه إحضار المياه ثانيةً، مرت الأيام بطيئة على بركة، كانت المعاناة تأكل من صحته، حتى إنه توقف عن الحديث نهائيًا، كان ينفذ أوامر مصباح مثل حيوان مطيع، عرض عليه مصباح في يوم إجازته أن يذهب معه إلى بيت الكاملين للتعلم عن العقيدة، لكن بركة لم يرد، ظل نائمًا في غرفته، لاحظ تورم قدميه، وحرارته مرتفعة، لكن الإصابة بالبرد كانت رفاهية في هذا العالم الذي لا يرحم، وخاصةً هذا القطاع الذي لا مكان للفقراء فيه.

كان قد سمع من أحد شباب الكاملين أثناء مروره في الطريق أن العقيدة تلزم من يبحث عن الكمال بأن يعطف على الفقير، فسخر منهما في سره، فمصباح يظن أنه يقترب من الكمال حين يعطف عليه بهذا العمل المميت، وبعض لقيمات الخبز القديم وبقايا طعامه هو وأسرته الذي يلقيه لبركة على أرضية غرفته الحقيرة.. كان يقضي ليلته في البكاء حتى يتعب فينام، ويستيقظ ناسيًا، لتذكر دموعه الجافة على وجنتيه بأسباب بكائه.

كان يظن أن حياته في كنف ياقوت صعبة، لكنه الآن أدرك الصعوبة الحقيقية.. صحيح أن كوابيس ياقوت لم تعد تأتيه في المنام، لكنه افتقدها، افتقد أن يحمل هم ياقوت نائمًا، فيعوله أبوه في كل شيء مقابل النوم إلى جواره وبعض الإهانات الصغيرة.

مرت الأيام عليه متشابهة، كان قد نسي تقريبًا كل شيء عن ماضيه، وكذلك لم يستطع الاندماج مع واقعه الحالي.. وقد زهد التواصل مع كل من فيه، حتى الأطفال الذين كانوا يقذفونه بالحجارة ملوا صمته وقلة تفاعله معهم، وكذلك فعل مصباح الذي أصبح يحترمه أكثر بسبب سكونه التام.. فقد أدرك أن السباب والعنف لن يجديا معه، فهو الآن جسد ينفذ الأمر للحفاظ على نفسه من الموت، يفعل ما يؤمر به دون تفكير وبلا روح.

كان معظم أهل القطاع قد اجتمعوا في ساحة خالية، تم تثبيت منصة عالية في هذه الساحة، وقد تم تقييد امرأة على عمود من الخشب، ووضع أسفلها الكثير من عيدان القش سمع بركة همسات من الناس أن هذه «محاكمة علنية»، لمح بركة بجوار المرأة المقيدة طفلة صغيرة تشبهها تمامًا، لكنها لم تتجاوز الخامسة من عمرها.. وقد وقف على المنصة شيخ الكاملين الذي استقبل بركة في هذا العالم وإلى جواره حارسان اثنان من شباب الكاملين اللذين رآهما بركة بصحبته من قبل.

علم أن هذه المحاكمة لم تقم في القطاع منذ سنين، فقد أصبح الجميع فيه قريبين من الكمال.. لكنهم الآن قد ضبطوا عاهرة معها ابنة قد جاءت بدون زواج، وهذا مخالف لعقيدة الكاملين التي تنص على الجهر بالرغبة في الإنجاب، كانت تلك العاهرة تخفي ابنتها في بيتها وتدعي الشرف على الجميع، حتى لمحتها إحدى الجارات الفضوليات وأبلغت الشباب عنها، وعلى الفور دعا الشيخ لإقامة محاكمة علنية.

وسط الجموع يراقب ما يحدث في ترقب، كانت المتهمة شديدة الجمال، شعرها أحمر اللون ووجهها لم يخلُ من نمشٍ محبب لمن يراه، وقد شابهتها ابنتها كثيرًا.. علم فيما بعد أن هذه العاهرة تدعى «بهيرة»،

وأنها قد أسمت ابنتها على اسمها كذلك.. لكنها كانت منهارة من البكاء، وصرخت في الجموع:

- نعم هذه ابنتي من الحرام، أتريدون مفاجأة؟ نعم لا زلتُ أعمل في البغاء سرًا، لن أفصح عمن يأتيني ليلًا منكم، ولكن يكفي أن تعلموا أن معظمكم زبائن عندي.. اقتلوني أنا وابنتي كي نظل جرحًا في وجوهكم.

قاطعها شيخ الكاملين مكلمًا الجمع:

- القواعد يجب أن تطبق كما تعلمنا من الشريف الكامل.. سيتم إعدامك ونتبنى نحن البنت.

قاطعته العاهرة صارخةً:

- وأين هو الآن؟ لماذا لم نره منذ أن وعينا على هذا العالم، لماذا نتعامل معك دونه؟ وأين القواعد التي تقولون عنها، لماذا نتعلمها مع المواقف ولا نتعلمها كمنهج؟!

ضحك الناس مما تقول وسخروا منها، سبها البعض كذلك.. ضربها أحد شباب الكاملين على ظهرها فأخمد ثورتها، قال شيخ الكاملين مصطنعًا الحكمة:

- سنضطر لإعدامك إذا لم يظهر لها والد.. هذا هو القانون.

فكر بركة بفطرته في الموقف الذي حدث معه منذ أيام داخل الخيمة، حاول أن يجمع كلماته ويضبط مخارج حروفه وقال بتلقائية وبحسن نية:

- هل يمكن أن نعتبرها من النواقص الذين دفعوا لك المال من أجل ترك خيمتهم؟

نظر له الجميع في ذهول ممزوج بدهشة، كأنه قال جملة محرمة.. تجاوز الشريف عنها وأشار لبركة إشارة تدل على أنه مجنون، وأنه سيغفر له ما قال..

- والآن، يجب أن تخبرينا عن والدها حتى يعترف بابنته ويتلقى العار لما تبقى من حياته ويخرج من الكاملية، وتفلتي من حكم الإعدام!

ردت العاهرة بثبات:

- جميعكم والدها.

ذهل الجموع من الرد، ونظر لها شيخ الكاملين، لوهلة شعر بركة أنه هي من يطلق الحكم وأن شيخ الكاملين هو المقيد في العمود الخشبي.. نظر شيخ الكاملين لها وقال بلهجة حاسمة:

- من حقك اختيار طريقة إعدامك، إما أن أخنقك بكيس من الكتان، أو يتم حرقك!

كانت لهجة أهل المملكة عسيرة، لكن بركة حاول إدراك معظمه.. لكنه كان يفهم مستعينًا بإشارة الشيخ نحو الأشياء.. نظر جميع الجمهور لبعضهم، لم يقدر أحد الرجال على الاعتراف بالابنة.. حينها أمر الشيخ بوضع الكيس الخانق على رأس العاهرة، حاولت الابنة التحرك لإنقاذ أمها لكن أحد الشباب أمسك بها.. بدأ كلاهما في الصراخ، فزع بركة من نظرات الناس المتشفية أكثر من صراخ الأم وابنتها، لم يشعر بنفسه إلا وهو يقول بصوت شق زخم الموقف:

- أنا الأب.. اتركوها.

تحوّلت الأنظار نحوه مرةً أخرى، لكن بركة كان أسرع من الجميع، تحرك بجسده الممتلئ وصعد المنصة بطريقة أثارت سخرية وضحك الجميع على شكله، ونزع الكيسين عن وجه العاهرة.. نظر له الشيخ محذرًا وقال:

- أنت جئت منذ أيام إلى قطاعنا، والطفلة عمرها يقارب الخمس سنوات.. كيف تكون أنت الأب!

قال بركة محاولًا استجماع كلماته:

- لقد زارتني هي..

حاول استجماع كلماته وقال:

- زارتني في قطاع النواقص..

عصر رأسه متذكرًا ما رآه في يومه الأول:

- كنت أمثل على المسرح هناك..

نظرت له العاهرة في دهشة لا تقل عن دهشة شيخ الكاملين..

- وهي أتتني، أتتني لتثني على أدائي.. ومن يومها وهي معي.

بدا على الجميع الذهول، كان يدرك أنه لن يستطيع سرد الأحداث أفضل من هذا.. استجمع ما تبقى لديه من طاقة في الحديث والكذب وقال:

- قضينا وقتًا طويلًا، أعطيتها أموال المسرح.. وصارت رفيقتي، وحين حملت في الطفلة اختلفنا.. وأنا الآن رجعت!

لم ينتظر ليعرف إن كانت قصته قد تم تصديقها أم لا.. انحنى لينتزع الطفلة من أحد الحراس، ثم توجه نحو الأم وفك قيدها، أحاط

كتفها بذراعه، كانت أطول منه فبدا منظره مضحكًا، لكنه أنزلها ورحل وسط دهشة الجموع.

أوقفته صرخة من شيخ الكاملين:

- طبقًا للقواعد، فأنت قد خرجت من العقيدة الكاملة للأبد.. وهذا معناه أنك لن تجد من يعينك في عملٍ لديه، أو يتحدث معك في هذا القطاع.. أنت الآن من المنبوذين!

لم يعبأ بركة بما قاله الشيخ، كان منبوذًا وليبقَ، أكمل سيره مع العاهرة التي فجأة أصبحت زوجته دون أن تستوعب الموقف بشكل كامل، توقف بركة حين أردف الشيخ صارخًا في غضب:

- هل أنت متأكد من قرارك أيها الوافد؟ فوفقًا للعقيدة الكاملة وعملًا بمبادئها.. أحكم عليك بالأسر داخل قطاع الكاملين وعدم السماح لك بمغادرته أنت وأسرتك للأبد!

١٤- زاهد جديد

- هل أنت بخير؟ لقد بدوت لنا ميتًا.

لم يرد ياقوت، كانت الصدمة قد ألجمت لسانه، لا يستره إلا قطعة قماشية.. قال في صوت وهن:

- من أنتم؟ وأين أنا؟

لم يعرف أحد من الزهاد الرد عليه.. طلب الملك العطَّاء من أحد الشباب كسوته بجلباب أخضر وإحضاره لخيمته.. استسلم ياقوت للشاب، حاول أن يتذكر ما حدث قبل أن يفقد الوعي لكنه لم يستطع، لم يتذكر حتى وجود ياسين في الموقع، كان يعرف أن ما مر به غيبُوبة سكر، ولم تكن حادثة الدفن الخطأ هذه الأولى له، فقد تعرض لها حين كان في الأربعين من عمره وقت أن كان يسكن الجبل هاربًا من الشرطة.. دائمًا ما كان يستيقظ في الوقت المناسب.

جلس في خيمة الملك العطَّاء الذي كان متفهمًا لحالة فقدان الذاكرة، وقرأ عنه حين كان مراهقًا يتلقى العلم من مكتبة قطاع الحكم على يد حكيم المملكة، كان يعلم أن البشر حين يتعرضون لحوادث قاسية مثل الإغماء أو موت أحد الأقربين، فإنهم ينسون ما مروا به قبل الحادث.

راح العطّاء يشرح لياقوت كل ما قد يجول في ذهنه عن هذا العالم: فأدرك واقعه دون أن يدرك ما الذي أدى إلى هذا.. كان يظن أنه في واحة على الطريق الصحراوي، أو في أحد النجوع النائية في مصر، أو حتى في عنبر داخل مستشفى الأمراض العقلية.. لكنه مع الوقت وكلما حكى العطّاء عن المملكة أو القطاع أدرك خطأ هذا التصور.. وكلما عصر ذاكرته داهمه صداع شديد.. فيتراجع عن الفكرة.

قدم العطّاء لياقوت طبقًا فخاريًا بسيطًا به ثمرتان من البلح.. لم يشعر الحرج حين قال للعطّاء إنه لا يزال جائعًا، فقال العطّاء متكلمًا عن نفسه:

- حين جئت إلى هذا القطاع منذ حوالي أربعين سنة أو أكثر.. كنت ولي عهد مملكة المخلدين، والحاكم القادم من بعد أبي الملك الموحد.. كان جسدي أضخم من هذا بكثير، وقد نشأت وسط أهل لم يروا فيَّ إلا مشروع ملك جديد، يجب أن أتعلم فنون القتال وأن آكل حتى تمتلئ بطني.. كانت حياتي بلا معنى؛ حالي كحال أخي الملك الفريد وولده الناصر الذي حكم من بعده.. كبرت وتزوجت من إحدى الأميرات، وأنجبت ولدي الوحيد الأمير «أنسي».. حتى جاء يوم لا لقب له في ذاكرتي سوى «يوم الشؤم».

بدا على ياقوت الاهتمام وهو يسمع تاريخ الملك العطّاء الذي قال:

- مررت يومها على جناح أنسي الصغير الملحق بجناحي لأطمئن أنه نائم، تسللت لفراش زوجتي، تموضعت بين قدميها وبدأت أداعبها كما تحب، وحين اندمجنا وأصبح الجسدان كتلة واحدة بروح تذوب عشقًا..

طرق باب جناحي سليمان الراشد قائد الجيش الحالي، وقتها كان لا يزال شابًا من صغار الجنود، لكن أبي الموحد قد أولاه مسؤولية تدريبي.. ارتديت ما يسترني وفتحت الباب، خمنت أن ثمة مصيبة قد حدثت، لكن سليمان كان يريدني أن أنزل للتمرين العسكري، وحين أخبرته أن الوقت متأخر، وألمحت له أنني في لحظة حميمية رد بشكلٍ بارد:

- وحين تقوم الحرب على المملكة في عهدك.. سنعتذر للأعداء بسبب راحة قائدنا؟، نزلت معه بعد أن ارتديت ملابسي العسكرية، ركبنا الخيل لا أدري إلى أين، حتى أشار إلى قطاع التابعين والعلماء، لم أفهم وكيف سيدربني وسط التابعين، يومها سألني إن كنت في حرب، هل سأقتل رجلًا أعزل، فرفضت الفكرة من الأساس.

لم أفهم مناسبة السؤال حتى فهمت ما يريدني الراشد أن أفعل، فقد أمر مشرف التابعين بإيقاظ عشرة من أقواهم وتسليحهم، وطلب مني مبارزتهم حتى الموت، فالتدريبات بالسيوف الخشبية لم تعد تجدي.. حينها سألته إن كان أبي الموحد يعرف ما نفعل، فرد أن الموحد هو من أمر بهذا.. فالتابعون موجودون لإعداد الأمراء.

طلب مني أن أغطي وجهي بقناع قماشي حتى لا يعرفوا من أنا، ووضعني في حلبة النزال، وزاد بأني واحد من الجواسيس، وأنهم إن قتلوني أو جرحوني بأي شكل سينالون حريتهم على الفور.. أراد أن يضعني في مبارزة مع عشرة لا يريدون في العالم سوى قتلي.

بدا على ياقوت الاهتمام وقد نسى كل شيء، تأمل وجه العطاء المكتظ بالتجاعيد:

- حاولت أن أوقف القتال.. لكن سليمان الراشد لم يضع أمامي خيارًا آخر، استخدمت كل ما علمني إياه لمبارزة هؤلاء العشرة من

التابعين.. كان خدش واحد في جسدي يعني الفشل.. علاوة على احتمالية أن أتعرض للقتل.. بارزتهم بكل ما لديَّ من قوة وحيلة.. بدأت أجهز على الواحد تلو الآخر، أجز عنق واحد، وأشق بطن آخر، وأمزق ساعد الثالث.

صمت العطَّاء ثم قال وهو يقاوم دموعه:

- وجدت أسفل قدمي عشرة من القتلى، كانوا يحلمون بالحرية منذ دقائق، قتلتهم حتى أعيش أنا وأحتفظ بأحقيتي في ولاية العهد.. أدركت حينها الدرس الحقيقي من هذا التدريب العسكري، الزعامة تعني القتل، انسَ من أنت حتى تهيمن على الآخرين.. سوف يسلبك كرسي العرش كل ما هو غالٍ في روحك، وحين تفقد آدميتك تنال الحكم.

حينها فقط قررت الزهد في كل شيء، لم أتحدث مع سليمان الراشد، عدت على خيلي وحيدًا، قبلت رأس أنسي وتمنيت ألا يحكم أبدًا ولا يسود أحدًا، وجئت إلى القطاع هنا.. احتضنني الزهاد كما لو كنت غائبًا قد عاد، ولكن بشرط وحيد، أن أنسى من كنت، وأسلم أمري فيمن سأكون.. هذه عقيدة الزهاد، وهذا ما أردته بالضبط.

بدأ ياقوت يستوعب الموقف، أدرك أنه وسط مجموعة بلا قائد، وأن العطَّاء يتصرف بحكم كونه أكبرهم سنًا، عرف كذلك أن الزهاد لديهم مشكلة مع الأعمار، فأغلبهم يموت شابًا، وكون الشخص قد وصل لعمره الذي تجاوز الستين، أو لعمر العطَّاء الذي تجاوز الثمانين فهي معجزة تستحق الامتنان.. عرف أن أغلبهم يموتون شبابًا بسبب نفس المرض الذي لا علاج له.

عرف أنهم بلا حاكم ولا أي طموحات سياسية خارج قطاعهم، هم فقط يحملون نبوءة أحد الأسلاف الذي قال: «لن يحدث لكم الصلاح إلا حين يحكمكم من هو أكثركم إثمًا، وحتى يأتي يومه ستبقون بلا مرشد».

سمع ياقوت صوت دقات طبول مرتفع، فعرف من العطَّاء أن الزهاد لديهم طقس غريب في نهاية كل أسبوع، فهم يقومون بتقطير عصير البلح المتخمر لشهور، ويصنعون منه «عرق البلح».. وهو مشروب كان يعرفه جيدًا، لما له من تأثير مُسكِر للعقل.. فإذا ما شربوا تجمعوا في الواحة وراحوا يرقصون بين خيامهم على دقات طبول معينة، وينشدون منادين على أسلافهم كي يهدونهم إلى الصلاح والخير.. وما دون ذلك من أيام الأسبوع يجلسون للتأمل وجمع البلح من فوق النخل، ودفن موتاهم وموتى باقي القطاعات دون أي عمل أو نشاط آخر.. حتى الأقمشة الخضراء التي يصنعون منها الخيام والملابس فتأتيهم هدايا من قطاع النواقص كمكافأة لهم على دفن الأموات.

كانت الدقات تقترب بشكل مزعج، شعر ياقوت أن العطَّاء متفاجئ مثله، وقد قال:

- هذه المرة الأولى التي يحتفلون فيها بالقرب من خيمتي.

شعر ياقوت بقلق مما يحدث، كانت دقات الطبول عالية بالفعل، كادت أن تخرم أذنه.. سمع صوت إحدى فتيات الزهاد تستأذن للدخول في خيمة العطَّاء، فأذن لها العطَّاء.. كانت الفتاة شديدة الجمال، سمراء ذات لون برونزي، وقوام مشدود، وأصابع طويلة وعينين واسعتين، لكن ياقوت لاحظ اصفرارًا طفيفًا في عينيها.. لكنه لم يعلق، قالت الفتاة للعطَّاء بلهجة مؤدبة:

- الزهاد في الخارج يريدون الضيف الجديد معهم.. فقد رأى أحد الشباب رؤى في نومه تخصه.

بدا على ياقوت الدهشة مما تقول الفتاة، أي رؤى التي رآها فيه هؤلاء الزهاد.. أكملت الفتاة حديثها بلهجة واثقة:

- يبدو أنه سيصير الحاكم الجديد لنا.. لكن يجب أن نتأكد أنه أكثرنا إثمًا.

لم يفهم ياقوت ما يحدث، كانت ردة فعل العطّاء عادية جدًا.. سأل الفتاة بهدوء:

- وكيف سنتأكد أنه حاكمنا الجديد؟

ردت الفتاة:

- كما رويَّ عن الأسلاف.. يجب على الحاكم أن يدخل قصر الأسلاف، فإن دخل وخرج حيًا حكم الزهاد.

ضحك ياقوت من بساطة الشرط وسخر منه، قال للفتاة إنه يمكنه الدخول والخروج من القصر بسهولة.. أدرك العطّاء أنه لا يفهم حقًا ما سيعيشه خلال الساعات المقبلة فقال لياقوت:

- خلال العام الماضي فقط دخل قصر الأسلاف أكثر من خمسين شخصًا تنبأ بهم الزهاد ليصيروا حكامًا..

سأله ياقوت ساخرًا:

- وهل حكموا بالعدل بعد أن خرجوا؟

ردت الفتاة هامسة:

- حتى هذه اللحظة لم يخرج أي منهم!

١٥- سليمان الراشد

أوصد القائد سليمان الراشد عليه جناحه، رافضًا لقاء أي شخص.. عدا ياسين، دخل بعد أن استأذن من القائد وأغلق الباب خلفه.. كانت المرة الأولى التي يرى فيها سليمان بدون الملابس العسكرية، رائحة الجناح مكتومة عكس القصر المعبق برائحة البخور.. وقد عرف ياسين فيما بعد أنه لا يفتح النوافذ، فهو مريض بوسواس من أن الجميع يريد اغتياله.

- لماذا قتلت خادمك؟ أعلم أنه معك منذ زمن.

رد سليمان الذي كان جالسًا على فراشه، دافنًا وجهه بين يديه.. واضعًا رأسه فوق مقبض سيفه الضخم:

- هو الوحيد الذي كنت أثق فيه لإطعامي.. لكنه رآني في حالٍ لا يليق.

لم يفهم ياسين ما يرمي إليه القائد، حتى مد القائد يده ليخرج سروالًا قطنيًا من أسفل الفراش.. كان السروال مبتلًا من منطقة الحجر.. لم يتحمل ياسين ما رآه وجلس على أقرب المقاعد المفروشة بوساد قطنية وقال للقائد:

- هذا طبيعي مع تقدم العمر سيدي القائد.

انفعل القائد في غضب، خلع رداء نومه البسيط ووقف أمام المرآة عاري الجزع، كان جسده قد امتلأ بالبثور والتجاعيد لكن آثار العضلات واضحة عليه:

- تقدم العمر لا يسري مع سليمان الراشد، لقد ارتبط لفظ «القائد» باسمي حتى وأنا معزول في عهد الفريد.. الجنود رفضوا الحرب لسنتين بعد رحيلي وأنا من أقنعتهم بالعودة، أعرف أنني تجاوزت الثمانين ونهايتي قد اقتربت، صحيح لم أعد قويًا مثل الماضي لكنني مازلت قادرًا!

جلس القائد بهدوء، قال ياسين بذكاء:

- المشكلة ليست صحية، كابوس هو؟

قال القائد باستسلام:

- أحلم أنني أخون الملك، وأجلس على العرش مكانه، وأنني مت فوق العرش، واسمي مرتبط بخيانة الملك ونسله.. أتتخيل؟

- ومنذ متى وهذا الحلم يراودك؟

- شهور يا ولدي.. فكرت أن أتنحى وأجعلك تقود الجيش بدلًا مني.. لكنك لست مؤهلًا بعد.

- لماذا اخترتني لأكون مستشارًا للجند؟ ولماذا اخترتني لتبوح بسرك الآن؟

- ذكاؤك.. أرى في عينيك نفس اللمعة التي كنت أراها في الملك الموحد، ولم أرها في أحد من نسله سوى يزن.

- يزن هذا الأخ الأكبر للناصر.. صحيح؟

- مات في رحلة صيد وهو مراهق، كان ليصير حاكمًا عظيمًا مثل جده.

- هل كان الموحد قويًا؟

- إطلاقًا.. كان شخصًا عاديًا، كان أقصر من الناصر نفسه، لكنه كان شديد الذكاء، استطاع مهادنة الجميع حتى أنشأ جيشًا قويًا، انتصر بالحيلة قبل السلاح، كان التوحيد تراضيًا قبل أن يكون احتلالًا.

تذكر ياسين اللوحة المرسومة للملك الموحد في قاعة الحكم، والتي صورته شخصًا ضخمًا قوي البنية، ضحك من فكرة أن كذب الإعلام يطارده حتى هذا العصر.

فتح ياسين نافذة جناح القائد، كانت مطلة على منظر القباب التي دفن تحتها نسل الموحد، أشفق على القائد من هذا المنظر المقبض، كاد سليمان أن يعترض لكنه ترك ياسين يتصرف بحرية، كانت النافذة موصدة بسلك معدني متين.

- سيدي القائد.. ألم تحلم أن يُحفَر اسمك وسط هؤلاء العظماء بعد موتك؟

××

مرَّ اليوم والليلة على ياسين دون أن يغيب منظر القائد سليمان عن باله، كان مشفقًا عليه من توالي الأحداث وكثرة الحروب التي خاضها.. عاود قراءة كتاب الأثر وتحديدًا عن فترة حكم الملك الفريد والد الملك الناصر، كانت هناك جزئية مستعصية الفهم عليه.. دس الكتاب في ملابسه، وقد عزم ألا يتحرك خطوة داخل أو خارج المملكة دونه.

أتى صباح اليوم التالي لينسيه كل هذا؛ فقد كان هذا يوم الزفاف الموعود بالنسبة للمخلدين، ويوم الهروب الموعود بالنسبة لنادين ومعها ياسين الهواري.. كانت الملكة مهدية قد تركت جناحها للملك الناصر حتى يتحمم ويتزين.. أما جناح الملك فتولت غالية مسؤولية تزيينه بالورود والعطور وإعداده للعروسين.

دخل الملك على ياسين فوجده يحلق شعر جسده بشفرة بدائية ليست حادة، حتى الناصر نفسه وجد صعوبة في استخدامها وقد جرح نفسه أكثر من مرة.. كانت لدى ياسين مشكلة مع أدوات الحلاقة والتجميل في هذا العصر.. حاول أن يسن شفرة ويحلق لحيته التي طالت لكنه لم يستطع، فقام بتشذيبها باستخدام مقص، حتى أصبح شكلها معقولاً.

- كيف قضيت كل هذه الأعوام في صحراء المملكة دون تشذيب لشعرك؟

لم يرد ياسين على سؤال الملك، ابتسم فقط.. كان الملك قد أدرك هذه اللازمة الحركية لدى ياسين حين لا يرغب في الرد على أي سؤال يخص ماضيه.. أشار ياسين نحو ظهره وقال:

- أليس لديكم علاج لألم الظهر يا مولاي؟

سخر الملك من أهل الصحراء الذين يدعون التداوي، كاد ياسين أن يثور عليه ويخبره أنه ليس من أهل الصحراء، وأن حبة دواء مسكنة كفيلة بإنهاء كل هذا النقاش في عصره.. لكنه صمت.

قال الملك باشتياق:

- كان لدى أبي مبهجة ماهرة في تدليك الجسد.

- وأين ذهبت؟

- اختفت مثل الباقيات؟

- وكيف تختفي مبهجات الملك؟

- لا أعلم، أيام مرض أبي اختفى بعضهن، قيل إنهن هربن خوفًا من موت الملك وبطشي بهم، وهناك من قال إنهم قتلوا، لم أهتم.

قال ياسين متهكمًا في جرأة على الملك:

- لا تهتم باختفاء حاشيتك من القصر؟ أي ملك أنت؟

كاد الناصر أن ينهر ياسين، لكنه لم يشأ تعكير صفوه، فقال وهو يبحث حوله في محتويات غرفة أمه:

- أعتقد أن أمي لديها عشبة أوصى بها طبيب المملكة..

قالها وهو يفتش في مقتنيات والدته حتى وجد عشبة زابلة، أعطاها لياسين، فتناولها الأخير في ثقة..

- ومعي ما يسكن آلام التفكير كذلك..

- أتقصد الخمر؟

- الخمر يغيب التفكير، والزفاف اليوم لا ينفع معه تغييب.

كاد الملك أن يستطرد في الحديث عن كون الزواج صوريًا.. لكنه صمت وأخرج مسحوقًا بني اللون وقال بانبهار:

- هذه خلطة اجتمع فيها السحر كله، يكفي أن نضعها في المبخرة وتستنشق هواءها حتى تصغر جميع مشاكلنا، ونصغر معها، وتتحول الحياة إلى بستانٍ من صفاء.

أردف الملك وهو يدس كميات كبيرة من المسحوق في مبخرة أمه:

- لولا هذه الخلطة لما تجاوزت يوم وفاة أبي.

كاد ياسين أن يعتذر عن هذه المغامرة، لكنه تذكر أنه غريب، وأنه لم يجرب الحشيش خشية أبيه، فما الضرر إن جربه مع حاكم المملكة، ما الضرر في أن تفعل الخطأ إذا كان الرقيب هو يحرضك عليه.. لكن ياسين قال مستدركًا قبل أن يشعل الملك المبخرة:

- أظن أن المخدرات دون طعام قد تصيبك بهبوط، وأنت في غنى عنه هذه الليلة يا مولاي.

أمر الملك الحارس الواقف على الباب أن يصعد بالفطور سريعًا، كانت شهية الملك مفتوحة، فاليوم سيخرس جميع الألسنة التي تحدثت عن ذكورته بسوء، وسيعيد العلاقات مع مملكتي نعوم والرمليين من خلال حسن ضيافة وفديهما، كما أنه كان واقعًا في غرام ياسين الذي أنقذه من تمرد الفقراء، واستبشر خيرًا ببقائه معه.. وأنه من سيعرف بعبقريته الخونة داخل جدران القصر وخارجه.

كان ياسين قد اعتاد ألا يتناول اللحوم ولا الألبان.. كانت طريقة الطهي في المملكة ونوعية اللحوم لا تلائم معدته، خمن أن الألبان لا يتم غليها، وكذلك اللحوم لا تتم معالجتها من الديدان وأمراض الذبائح المختلفة.. ناهيك عن لحم الأحصنة الذي لم يستسغه.. كان يكتفي بالخبز وبعض الفول والخضروات.

- تفطر مثل العامة يا ابن الصحراء!

ابتسم ياسين في خجل ولم يعلق.. قام بإشعال المبخرة أثناء تناول الملك طعام إفطاره.. وبدأ يسرد عليه خطوات المرحلة الجديدة..

عزيزي الملك.. يجب أن يشعر الناس بالتغيير، حتى في أدق التفاصيل.. ينبغي أن ينسوا دماء زعماء التمرد التي أسلناها، ويسامحوا في حق الدم.. فصكوك ملكية الأراضي مجرد مسكنات.. لكن يجب أن

يعلموا من داخلهم أن التمرد إن نجح كان ليقطع عنهم خيرًا كثيرًا.. ويلعنوا من قتلناهم في قبورهم!

بدا على الملك الاهتمام بما يقول ياسين، فأكمل الأخير حديثه:

- سنبدأ بالإنفاق والترفيه.. يجب أن يشعر متوسطو الحال في هذه المملكة أنهم فقراء.. استورد لهم سلعًا جديدةً عليهم من المملكتين المجاورتين.. هذا سيجعلهم يعملون أكثر، ويدورون كحيوانات المزرعة طيلة اليوم.. لن يجدوا وقتًا للتفكير المنطقي في أحوالهم، ولن يثوروا، ليس خوفًا ولكن انشغالاً بمصاعب الحياة.. سنجعل عروض النواقص هنا، الترفيه بلا هدف سيجعلهم أكثر انشغالاً وتقبلاً لما قد نجبرهم عليه من ضرائب، أو نسن عليهم من قوانين.

قال الملك بهدوء:

- اعتاد والدي على حث شيخ الكاملين لينصح الناس بفضل طاعتي.. وأن التمرد ضدي ليس من الكاملية في شيء.

أمَّن ياسين على حديث ملكه وقال:

- لكن هذا مع الوقت سيفقد الشيخ مصداقيته، وقد نحتاجها في وقت ما.. يجبْ أن يكون الصراع أصغر من العقيدة.. سنجعلها صراعًا بين فقراء المملكة وأغنيائها.. سنشيع بين الأغنياء أن الفقراء يريدون استغلالهم، وبين الفقراء سندس بصاصين يطلقون شائعات عن الأغنياء وأنهم يعاملون الفقراء ومتوسطي الحال كالتابعين.

نهض الملك واستنشق نفسًا طويلاً من المبخرة، لم يدرِ أهو مسحور بكلام ياسين أم بعبق الخلطة السحرية..

- وماذا إن عارضنا أحد الطرفين؟

- بالطبع سيعارضوننا.. سنتركهم يعارضوننا جميعًا.

بدا على الملك عدم الفهم وقال:

- الخلطة تصفي البال ولا تسكر، فما لك سكرانًا!

المعارضة المزيفة يا مولاي.. سنختار نحن من يؤيدنا من أهل المملكة ومن يعارضنا؛ سنختار جميع أطراف اللعبة.. وحين يرى الرجل البسيط أو التاجر الثري أن هناك معارضة تتحدث بلسانه وتقول ما يريد قوله سيهدأ ويرتاح باله ولن يفكر في أن يكون صاحب الفعل.. في حين أن المعارضين يسهرون معنا ويقبضون أجورهم منا.. وحين نأخذ قرارًا صعبًا على الناس وتؤيدنا المعارضة، سيخرس الجميع.

بدا على الملك الفهم.. طلب من ياسين أن يمده بنصائح أخرى للحكم.. فقال ياسين وهو يحضر ملابس الزفاف ويضعها على الملك ويلبسه بنفسه:

- سنحتاج إضافة مقعد في المجلس التوحيدي..

قاطعه الملك وهو يرتدي القميص الحريري المطرز بالفضة:

- مقعدك؟ بالطبع سأضيفه.

هز ياسين رأسه يمينًا ويسارًا، انحنى ليتناول حذاء الملك، كان بدائي التصميم، قماشي الخامة، بُني اللون.. وقال:

- لا، سنخلق منصبًا جديدًا يدعى «حكيم الناس».

بدا على الملك عدم الفهم فأكمل ياسين وهو يلبسه الحذاء:

- لا بد من وجود أحد العامة في مجلس الحكم.. رجل من قلب الشارع نقيس عليه مدى رضا أو غضب الناس عما نقرره لهم في قصورنا هذه.. سنعينه قاضيًا عليهم يفصل فيما بينهم.. يجول بين القطاعات دون كللٍ أو ملل؛ يطوف ليسمع الشكاوى، ولا يحل منها إلا ما نريد له أن يحل.. سنقول كذلك أن حكيم الناس لديه صلاحية لمراقبة التجار ما إن تجاوزوا في حق العامة.

قال الملك في فزع:

- لا يمكننا إغضاب التجار.

- لن نغضبهم، يكفي أن يشعر العامة بالتغيير، وليس شرطًا أن يحدث!

- ومن ترشح لهذه المهمة؟

- مشرف التابعين بالطبع.. هو أكثر الناس شعورًا بالبسطاء، ومن خلال تعاملي معه فهو صاحب ضمير حقيقي.

اعتدل ياسين وهو يحضر الثوب الجلدي الطويل أسود اللون، الذي سيرتديه الملك للزفاف، وقال وهو يهمس في أذنه:

- سنحتاج كذلك لتغيير المنادي الذي يعلن قرارات المملكة للعوام في السوق.. يجب أن يكون أكثر وسامة من ذلك المنادي الذي أراه، ويجب أن يذيع عليهم أخبار السوق والتجارة، وكذلك أخبار المسرح وعروضه، وبعضًا من أخبارك الشخصية.. يجب أن يكون نداؤه فقرة ترفيهية وكذلك إخبارية، حتى يشعر الشخص العادي في مملكتنا أنه يعرف كل شيء عن الحياة.. في حين أننا لا نخبره إلا بما نريد.. فلا يسأل ولا يستقصي بنفسه.

قال الملك ضاحكًا وهو يشير نحو رأس ياسين:

- من كان يتوقع أن يخفي التابع الضعيف الذي كاد يُقتَل أمام عيني عقلًا ذكيًا كهذا؟! يبدو أنك ستجعلني أتخلى عن كل حكماء المملكة.

قال ياسين في مكر:

- مستشاروك سيخبرونك بالتصرف الصحيح من أجل الشعب، لكنني سأخبرك لما هو مطلوب لإنقاذ حكمك.

سأل الملك باهتمام:

- وهل تهتم لأمر الناس أم لأمر الملك؟

رد ياسين في خجل:

- أهتم لأمر الناس فقط حين يهتم لأمرهم الملك.

قال الملك في قلق:

- أشك في أن الأمير أنسي يحيك مؤامرة ضدي، هو لم ينسَ أن العرش كان حقًا لأبيه الذي زهد فيه.

رد ياسين نافيًا:

- على العكس، أنسي حليف ذكي، إبعاده سيزيده غضبًا.. سنعينه وزيرًا على المملكة كلها.

- أرجوك قل لي إنك تمزح!

- بالعكس.. أنسي سيكون هو الواجهة لكل قرار يضر بالعوام، كل ضريبة سنذيع أنها اقتراح من أنسي، وكل مظلمة هو السبب فيها.. سنشيع مقولة أن الملك نواياه عظيمة، لكن من حوله هم الفاسدون.

قال الملك مفكرًا:

- لكنه كذلك سيحصد ثمار القرارات العظيمة.

- وهذا دور المنادي الجديد.. إن أحسنت الحكم مدحناك، وإن أسأت لمنا الوزير!

ضحك الملك وقال لياسين:

- إن استقر لي الحكم سأعينك نائبًا، وسأجعلك تختار أي أميرة وأزوجها لك.. حتى إن أردت الزواج من أمي!

ضحك ياسين وقال:

- أمك لن تصير ملكة بعد اليوم، لا حاجة لي بها.

شعر ياسين أنه أخطأ توقع أن يلومه الملك على ما قال، لكن الملك ضحك حتى احمر وجهه، كان موعد الزفاف قد حان، خمن ياسين أن نادين في هذا الوقت تنفذ خطة الهرب التي اتفقا عليها..

قاطع ضحكات الملك دخول أحد الحراس الشخصيين للملك دون استئذان، كاد الملك أن يخرج سيفه ويقتله في الحال على هذا التعدي، لكن الحارس قال لاهثًا:

- سيدي الملك.. لقد جن جنون القائد سليمان الراشد.. أصطحب معه عددًا كبيرًا من الجنود، ظننا أن هذا تدريب فتركناه يغادر قطاع الحكم، لكنه انطلق مقتحمًا قطاع التابعين؛ فقتل الحراس وفتح للتابعين الأبواب وقد لحق به من لحق.. وهرب من كلا القطاعين ومعه معظم التابعين وحوالي ربع الجيش.

وضع الملك رأسه بين يديه وقال لياسين:

- لم أتوقع الخيانة من القائد.. هذه ثورة على نسل الموحد بأكمله!

١٦- زفاف ملكي

كان منظر الغروب يطل بديعًا من بين النقوش الخشبية المنحوتة بدقة على نافذة الجناح الملكي.. راقبت «نادين إمام» الشمس وهي تختفي، وكانت أمنيتها أن تشاهد الغروب في بيتها، سخرت من نفسها حين أدركت أنها تفتقد هاتفها المحمول وأخبار الناس على الـ«فيس بوك»، كان هذا النشاط يأخذ حجما كبيرًا من فراغ يومها، اتجهت إلى إحدى خادماتها وطلبت منها أن تستعير لها بعض الكتب من مملكة الحكم، كانت القراءة عسيرة بسبب اختلاف الخط عما اعتادته، لكنها كانت تخمن محتوى الكلام من السياق، قرأت عن أخبار المملكة أيام حكم الملك الفريد، سخرت من نفسها ثانيةً حين لقبته بـ«حمايا الله يرحمه».

كانت غالية جالسة خلف نادين مفترشة الأرض طيلة الوقت، وكانت نادين تحب فيها تقديسها لحرمة الصمت، تمنت لو أن لديها صديقة في عالمها الأصلي مثل غالية؛ لا تتحدث إلا حين يُطلب منها، ولا تدلي برأي إلا فيما يستدعي التدخل.. ولكن هالها ما تفعله وهي تقلب بيدها في سائل لزج كريه الرائحة، سألتها بدهشة:

- ماذا تفعلين؟

لم ترد غالية، فأعادت نادين السؤال لتفيق الأخيرة من شرودها:

- هذه خلطتي السحرية، ستسقط الشعر عن جسدك وتجعلك أنعم من الأطفال..

سألت نادين وقد ضغطت على أنفها من الرائحة السيئة:

- وممّ يتكون؟

- أفضل ألا تعرفي.. فلن تستعمليه.

قالت نادين في فضول:

- ألا تعرفي ما المرض الذي أصاب الملكة مهدية وجعلها تبدو كالعجوز؟

رفعت غالية كتفها رفعةً خفيفة دليلًا على الجهل، وقالت لتغير الموضوع:

- سمعت أن مستشار الجنود قد اصطحبك للسوق.. فكرة عبقرية!

أومأت نادين برأسها موافقة.. وفجأة اقتحم أحد الحراس الجناح الملكي، فصرخت فيه نادين كما لو كانت قد ولدت في القصر:

- بأي حق تقتحم جناح الملك دون إذن؟!

بدا على الحارس الحرَج، وقال بصوتٍ خفيض:

- هذه تعليمات الملك ومستشاره الجديد.. فقد هرب القائد سليمان الراشد

زامت ما بين حاجبيها، وسألت عن المزيد من التفاصيل، فأجابها الحارس بما حدث، وختم حديثه قائلًا:

- ستأتي الملكة مهدية وباقي الأميرات في الجناح؛ لحينَ الانتهاء من تأمين القصر.

لم تعترض نادين، فقط طلبت من غالية أن تتركها دون زينة، وتكتفي بالفستان، كانت تتعجل الوقت الذي يخلو فيه الجناح من النسوة.. دخلت الأميرات خلف الملكة مهدية، وقد مرت على نادين أطول ساعتين في وجودهن، اضطرت لتجاهل الكثير من الكلام ذي المعنيين، والحديث المخفي عن كونها بلا أصل معروف، كانت الملكة مهدية تنظر لها متوسلة ألا ترد على أي من الأميرات أو زوجات الوزراء.

كان القصر البديل قد أعد لاستقبال زوجات الوجهاء والأمراء من الممالك المجاورة، كانت تعرف أن الأميرة دانية هي المسؤولة عن تجهيزات الزفاف، حين بدأت تشرح لنادين طقوس الزفاف وخطواته، لكن الأخيرة لم تلق لها بالًا:

- سترتدين الرداء بمساعدة غالية، وبعد دقائق ستخرجين من الجناح بمفردك.. ستجدين فريق المعازف بانتظارك، ستصطحبك الملكة مهدية من يدك، وتنزلان سويًا ثلاثة طوابق، وفي بهو القصر سيتم الحفل، ستجلسين بجوار الملك، وتبتسمين للجميع.. نتناول وليمة الزفاف، ثم تصعدين للجناح بصحبة الملك مرة أخرى.

عقبت إحدى الأميرات في تذمر:

- لماذا لم ننتظر انتهاء الحداد؟ لنحصل على زفاف أفخم من هذا.

ردت الملكة مهدية في حسم:

- لا وقت للفخامة، الناصر يؤسس لدولة جديدة.

قالت أميرة أخرى بلؤم:

- أتمنى أن تساعده الملكة الجديدة في الحكم.

ردت نادين وهي تشير نحو الملكة مهدية:

- لا دور للملكات في الحكم، وأنا الملكة الثانية ولست الجديدة.

ابتسمت غالية في إعجاب بدهاء نادين، على العكس فعلت الأميرة دانية التي خرجت لتطمئن على الوضع في القصر، علمت من زوجها الأمير أنسي أن التابعين قد تمت السيطرة عليهم بمساعدة مشرف التابعين، كما تم حشد الجيش بأكمله ليقوم بتأمين الزفاف بعد أن فرَّ أكثر من ربع جنوده، وقد تم تعيين أنسي نفسه قائدًا للجيش بعد فرار سليمان الراشد.. عادت «دانية» بعد ساعة لتأخذ الأميرات وباقي النسوة من الجناح الذي اكتظ بهن، ثم ذهبت دانية للملكة مهدية لتسندها، والتي التفتت لنادين:

- أثناء وجودك في الزفاف سأرسل إحدى الخادمات لترتيب الجناح.

قالت غالية مازحة:

- على كل حال الجناح الملكي سيتبعثر مرة أخرى، الأهم هو إعداد الطعام، فاليوم معركة الناصر الأولى.

ضحكت الملكة مهدية في وقار، أما نادين فكان عقلها يراجع خطة الهروب التي وضعها ياسين، تركت نفسها لغالية تلبسها فستان الزفاف، كان بسيطًا أزرق اللون مرصعًا ببعض الجواهر والأحجار الكريمة في منطقة الرقبة التي لم تكشف إلا عن بداية الصدر، أما مقاسه فكان جيدًا على جسدها، قررت تمشيط شعرها بشكل بسيط لتطلقه خلف ظهرها، كما أهدتها الملكة عقدًا من الذهب الأبيض كهدية للزفاف، وحذاءً يدوي الصنع بنفس لون الفستان.

بدأت تسمع صوت المعازف في الخارج، كانت هذه هي الإشارة التي حددها ياسين لبدء التحرك، طلبت نادين من غالية أن تتركها بمفردها لدقائق.. وفور خروجها تحركت بسرعة، سحبت أكبر المقاعد أسفل فتحة التهوية، وبدأت تضع فوق المقعد بعض الوسائد والمساند القطنية حتى تصعد عليها وتبلغ فتحة السقف، التي لم تكن بعيدة كما تخيلت.

كانت الفتحة كما وصفها ياسين تمامًا، متسعة ومزودة بسلم بسيط يمكن تسلقه للأعلى.. تحركت نادين مع حركة الهواء كما وصفَ ياسين لها، ظهر أمامها فتحتان على اليمين واليسار، حاولت نادين أن تتذكر الوصف كاملًا، اتجهت يسارًا كما أخبرها عقلها، كانت تشعر بألم عظيم في ركبتيها ويديها وهي تزحف داخل الأنبوب المعدني الواسع، كانت المعازف تغطي على الصوت العالي الذي يصدر من حركتها، وأخيرًا وصلت إلى هوة تصل لأسفل، لم تنظر، تخيلت أن ياسين ينتظرها بالأسفل، أدلت قدميها وحاولت التمسك بأطراف السلم الصغير، بدأت تنزل الدرجات تلو بعضها.. تخيلت عقاب الناصر إن قبض عليها برفقة ياسين وعرف حقيقتها، بدأ جسدها يرفض أوامر عقلها وقد انتابتها حالة من الرجفة، شعرت بخوف شديد وقد زلت يدها وقدمها عن السلم، حاولت التشبث لكنها سقطت خلال الأنبوب بسرعة شديدة..

توقعت أن تطول مدة السقوط، فثلاثة طوابق ليست بالمسافة القصيرة، لكنها سقطت بعد ثوانٍ معدودة، كانت السقطة هينة، وجاءت على فرو كبير لحيوان مدبوغ، لم تسبب لها السقطة إلا ألمًا بسيطًا في قدمها، كأنها هبطت طابقًا واحدًا على الأكثر.

نهضت وهي تتأوه، نظرت حولها لتجد غرفة متوسطة الإضاءة مليئة بالكتب وبعض الشموع سوداء اللون، ومعلق على حوائطها بعض الحيوانات المحنطة، التقطت أنف نادين رائحة غريبة ذكرتها بالمستشفى

الذي كانت تعمل فيه.

لم تفهم أين سقطت حتى سمعت صوتًا ذكوريًا يأتي من خلفها ليقول له هدوء:

- من أنتِ؟ وكيف استطعتِ دخول الغرفة المحرمة؟!

١٧- خنجر وشيطان

لم تكن هذه المرة الأولى التي يرى فيها «خيري زاهر»، استعاد ذكريات صديقه في المرحلة الثانوية «حسام، والذي كان رمز الشاب المثالي في عينيه خلال هذه الفترة، كان «حسام» أكبر منه بعدة سنوات، لكنه كان معتادًا على الرسوب، تعلم منه كيف يرتدي وكيف يتحدث، كيف يسب وكيف يتصرف مع منهم أقوى أو أضعف منه؛ حتى جاء اليوم الأسوأ في حياته، حين كان نادر يتشاجر كعادته مع بعض الشباب من منطقة مجاورة لأجل أخيه الصغير، أخرج خيري «سنجته» التي اعتاد حملها دون علم أهله وركض نحو مكان الشجار ليقف في ظهر «حسام»، كما اعتاد أن يكون واحدًا من رجاله.

وفجأة شعر خيري بحركة غريبة، وقد بدأ الجميع في الهروب، لم يفهم ماذا حدث حتى لمح «حسام» غارقًا في دمه، طعنة نافذة في المعدة كانت كفيلة بإنهاء حياته خلال دقائق.

أفاق خيري على صراخ «عامرة»، التي افترشت الأرض تبكي على «وديدة»، لم يفهم إن كانت تندبها كشخص سرقه الموت، أم تندب رزقها الذي سيقل بعد رحيل أفضل راقصاتها.. كان الجميع قد وقف في المسكن الذي تؤجره «عامرة» للسكن، وقد ازدحمت غرفة وديدة بالمتفرجين، مصوبين نظراتهم تجاه جعفر في انتظار قرار ما فهو سيد

...ع النواقص، والذي قال بحزم:

- فليخرج الجميع من الغرفة.. القاتل لا يزال في الحانة.

وأشار لحارسيه الشخصيين قائلًا:

- ليقف أحدكم عند البوابة ليمنع الجميع من الخروج، وليذهب أحدكم ليستدعي جنود الأمن ليحققوا فيمن فعل هذا!

كانت وديدة هي الشخص الوحيد الذي نجح في تبديد شعور الوحدة ... خيري، لذلك اخترق الزحام المتجمع أمام غرفة وديدة، واقترب من ... الواقف أمام الباب كأنه يحرس الجثمان

- سيدي الحاكم، لو تسمح لي.. أعتقد أنها قتلت منذ فترة.

أشار خيري نحو رقبة وديدة وشكل الدماء المتجلطة على عنقها:

- لو كانت الضربة قد حدثت للتو لما جفَّ الدم بهذا الشكل.

نظر له جعفر باهتمام قال لنفسه إن هذا الشاب يتحدث مثل مستشار ... الجديد، وهو أيضًا جديد على المملكة، لم يمنحه خيري فرصة للرد ... أكمل مستعيدًا ما شاهده في أحد مسلسلات الجريمة:

- لا يبدو أن الباب مكسور، وكذلك الغرفة كانت مرتبة حين وصلت «عامرة».

قاطعه جعفر في نفاد صبر:

- ما قصدك؟!

رد خيري هامسًا في أذن جعفر:

- وديدة تعرف القاتل جيدًا، وتثق فيه ليدخل غرفتها.. يجب أن تحسر شكوكك بين العاملين في الحانة، وبعض الأسياد ممن يشتهون وديدة.

أومأ جعفر برأسه دون أن يرد على خيري، فقط داعب الأقراط الثلاثة المثبتة في وجنته.. زفر في ضيق هامسًا:

- سنعيش شهورًا من الشائعات والأساطير.

شعر خيري بوخزة في ضميره، فوديدة على قلة كلامها كانت أكثر الناس قربًا منه، لم ينسَ نظرات الإعجاب بينهما، ولم ينسَ العناق الذي حصل عليه برضاها مساء اليوم السابق لمقتلها؛ في محاولة فاشلة منه لإذابة الجليد المطبق على شهوتها.

لاحظ خيري انهيار «العم راتب» وبكائه كالأطفال، اقترب منه مربتًا على كتفه، كان يحاول تصفية الأجواء معه بعد أن سرقه ونفذ بفعلته بمساعدة «عامرة»، لكن «العم راتب» لم يعره أي اهتمام، توقع خيري تحقيقًا موسعًا في الأمر، لكن جنود الأمن اكتفوا بمعرفة أين كان كل رواد الحانة، وتركوا الجميع يعودون للمنزل.. لم يلتفت أحد لملحوظاته بخصوص طريقة الطعن ولا اقتحام الغرفة.

عاودت الحانة العمل بعد يومين من الانقطاع، لكن حالة من الركود سيطرت على المكان، خمنت عامرة أن الناس قد تشاءموا من الحانة، وخمن خيري أن هذه حالة من الهداية المؤقتة، خاصة أن شيخ الكاملين أرسل شبابه مرة أخرى لقطاع النواقص حتى يعظوا الناس، وتحدثوا عن حلم رآه الشريف الكامل لوديدة، وقد تضاءل حجمها واجتمعت حولها حيوانات المملكة لتلعق جسدها.. سخر خيري من هذه المواعظ، لكنه لم يجرؤ على الجهر بهذا الرأي.

كانت الحركة هادئة في الحانة، لم يزعج خيري سوى نظرات الساقي الأخرس أسمر اللون له، كان يرمقه محتقرًا طوال الوقت، حاول تجنبه، لكنه شعر بحرارة نظراته ترافقه أينما ذهب.. أشار له خيري من بعيد أنه سيذهب للنزل حتى يرتاح، توجه خيري نحو غرفة عامرة، ودخل بعد أن طرق طرقتين.

كانت مستلقية على فراشها، جلس إلى جوارها وسألها مبتسمًا عن سبب تغيبها عن الحانة فردت في فتور:

- جسدي لم يعد كالسابق.. أفكر في إغلاق الحانة والاكتفاء بالنزل.

طلب منها أن تستلقي على وجهها، بدأ يدلك ظهرها وهو يهمس:

- لن نغلق المكان، سنغير نشاطه.

سلمت عامرة جسدها وعقلها لخيري، فراح يدلك ظهرها وهو يتلو عليها فكرته:

- الممنوع مرغوب سيدتي.. سنحيل الحانة مكانًا لتقديم المشروبات العادية، كمنقوع الأعشاب وعصائر الفواكه، ونجعل الخمور لها مكانٍ خاص مستتر، ونقنع الزبائن أن تقديم الخمور يتم دون علمك.

ردت عامرة في غير فهم:

- وهل سيأتي الناس لدينا ليشربوا مشروبات عادية؟ هم يشربونها في البيت.

- سنوفر لهم جوًا أفضل من البيوت الكئيبة، دون راقصات، سنجمع لهم بين ما يسليهم وما يرضي ضمائرهم كساعين للكمال..

سنكسب زبائن جديدة من قطاع الكاملين، الذين سيجدون لدينا ما يرضيهم ويرضي أسيادهم.

كانت هذه اللحظة التي شعر فيها خيري بأنه أصبح جزءًا من هذا العالم، أكمل حديثه حتى لا يفقد اهتمام عامرة:

- سمعت أن هناك ممثلًا من المسرح المجاور لحانتنا سيرحل.

- نعم، أخبرتني مديرة المسرح أنه طلب أجرًا مضاعفًا، فطردته.

- سندفعه له، ونحضره في مكاننا الجديد.

- هل سيمثل بمفرده لدينا؟

- سيعمل حكَّاءً.. يروي للناس قصصًا عن الملك الموحد والحروب القديمة، يحكي لهم حكاياتٍ رومانسية تنتهي نهايات ترضيهم، يسلي لهم مجلسهم.

كانت عامرة تحت تأثير ملمس خيري لرقبتها من الخلف، كانت تريد منه ما هو أكثر، سألته حتى ينهي حديثه عن المشروع الجديد:

- وكيف سيعرف الحكَّاء تلك القصص؟

- سأرويها عليه أنا.. وبالطبع مقابل مشروباتنا ستكون أقل من تذكرة المسرح.

- وتكلفة المشروبات أقل من تكلفة تخمير الشعير وغيره.

- بالضبط، سنقلل عدد العاملين كذلك.. وقد يعتاد الناس مع الوقت على هذا المجلس، ولن يكون للحكاء قيمة في المستقبل.

استدارت عامرة نحو خيري، داعبت وجهه بيديها وقالت:

- هل تريدني أن أطرد الساقي الأخرس؟

- شعر خيري بالاشمئزاز من لمسة أصابعها المتجعدة كسائر جسدها العجوز، الذي يصارع ليحافظ على أنوثة لم تعد باقية، لكنه زيف ابتسامة على وجهه ومال عليها ليقبلها قبلة طويلة.

- بالعكس، هو يريد أن يؤذيني، فمن الأفضل أن أبقيه تحت ناظري.

- ولماذا يؤذيك؟

رد خيري ضاحكًا:

- أعلم أنه كان يحب وديدة، ووديدة كانت تحبني.

سألت عامرة في غضب:

- وماذا عنك؟

أشار خيري نحو عامرة، ورد لأول مرة بصدق منذ أن عرف عامرة:

- أنا أحب المكسب، حيثما وجد أتواجد.

ابتسمت عامرة في ثقة، وسألت خيري وهي تحاول تقبيله بطريقة أثارت اشمئزازه:

- بالحديث عن المكسب.. أخبرني كيف سنربح من كل هذا.

أبعدها خيري بحجة أنه يفكر، لكنه شعر في هذه اللحظة بأنه لن يقرب النساء مرة أخرى، صرخ بداخله أنه يريد الحياة بمفرده بعيدًا عن هذه السمينة التي تظن نفسها فاتنة:

- المجلس الجديد لن يأتي بأرباح عظيمة، فقط سيغطي تكاليف العمال والمشروبات والمشاعل وأجرة الحكاء المرتفعة.. لكنه سيكون غطاءً جيدًا لما سنربح منه بالفعل.

تعمد أن ينتظر حتى يثير اهتمام عامرة.. وقال هامسًا:

- سنخصص إحدى غرف النزل الخاص بكِ للرهان.

- لا أفهم.

- تعرفين الرهان على التابعين في نزالاتهم المستمرة؟ سنفعل المثل، ولكن في السر.

أخبرها عن طاولة الروليت وألعاب النرد والكوتشينة، مستعيدًا ذكريات إدمانه لهذه الألعاب قبل أن يخسر فيها مبلغًا كبيرًا.. كان الأمر أكبر من عقل عامرة، لكنها حاولت إدراك ما لم تفهمه، وسألت خيري:

- وهل غرفة واحدة ستكفي لكل من يريد اللعب؟

- لا نريد شيئًا من العوام، يكفيهم الحكايات الوهمية.. نريد فقط من أسياد القطاع.. جعفر وحاشيته والعم راتب وباقي التجار، وأنت ومديرة المسرح.. هؤلاء من يراهنون على الأموال الحقيقية دون إضاعة للوقت.

- ولكن أحدهم سيراهن والآخر سيربح، أين الفائدة؟

رد خيري بهدوء وهو يستلقي إلى جوارها ويحتضن كتفها، لينظرا سويًا نحو السقف كأنه المستقبل:

- للمكان حق عشرة بالمئة من أي رهان يتم.. هذا هو القانون.. الجميع معرض للمكسب أو الخسارة، ولكننا سنكسب دائمًا.. نحن أصحاب اللعبة.

اقتربت عامرة أكثر من جسد خيري، اشتمت رائحته كعادتها.. كان خيري يشمئز من هذه العادة كما يفعل مع كل تصرفات عامرة.. لكنه تظاهر بالعكس، قالت له في دلال:

- الفكرة عبقرية، أعرف أنك ستديرها بنجاح.. ولكن لا يمكنني ائتمانك على كل أموالي وعملي إلا في حالة واحدة.

أردفت وهي تهمس في أذنه بفمٍ مليء بالكحول:

- أن نتزوج، وتتنازل عن حقك في الطلاق!

١٨- أن تحب بهيرة.. وتحبك بهيرة

جلس بركة في ركن منزو من منزل بهيرة، لم يعرف لماذا دخل معها البيت، فقد تصرف كزوجها فعلًا، لم تبادله الحديث، كانت الصدمة أقوى من كل شيء، وإنما نهضت لتخبز له العجين وتقطع له بعض الخضروات، نظر نحو الطفل وسألها مبتسمًا عن اسمها، في البداية لم تفهمه الطفلة، فاستخدم يديه وحاول أن يبطئ من إيقاع كلامه، فردت الطفلة مبتسمة:

- أنا بهيرة مثل أمي.

نظر بركة نحو البيت، تخيل أنه لولا تدخله لكان مهجورًا الآن.. قاطع خواطره دخول بهيرة الأم، والتي قالت وهي تضع الطعام على الأرض، وتشير لابنتها كي تأكل معه:

- أشكرك على مساعدة لم أطلبها.

رد بإيماءة بسيطة من رأسه، سألته عن نشأته فادعى البلاهة كما كان يفعل مع «ياقوت»، حين يضبطه مخطئًا في شيء.. سألته عن ماضيه في القطاع، فحكى لها بفم ممتلئ بالخبز قصته مع الكاملين وشيخهم، وسرد عليها ما حدث داخل الخيمة وما عاشه في مزرعة مصباح، عاودت سؤاله عن ماضيه فعاود البلاهة، ففهمت أنه لا يريد الحديث.

وبعد الطعام طلبت الأم من ابنتها أن تتركها بمفردها مع بركة، لاحظ أن الابنة شاحبة الوجه لديها بقع على جلدها.. خمن أن هذا بسبب عدم خروجها وإخفائها في البيت كما سمع وقت الإعدام.. بدا على الابنة الخوف، لم يفهم بركة سبب خوفها.. لكن الأم همست له شارحةً:

- لقد رأتني أكثر من مرة بصحبة الرجال.. لذلك هي تخاف من أي خلوة.

شعر بالإشفاق على الابنة من أمها، وبالإشفاق على الأم من الناس.

بعد أن بدأت معالم جسمي في الظهور، تهافت الرجال على صحبتي، كانت كلمة واحدة مني كفيلة بإثارة شهوات لم يدركوا أنها بداخلهم حتى عرفوني.. لكن الجمال لا يحب الفقر، فهو يضعفه ويجعله سلاحًا باردًا، منظر براق دون تأثير واقعي.. حاولت أن أصبح من مبهجات الملك، هربت من بيت أبي، كان نجارًا بسيط الحال، عرضت نفسي على القصر.. لكن الملكة مهدية رفضتني لزوجها.. قالت إنني جميلة، لكن المبهجة يجب أن تكون جميلة وذكية ومثقفة؛ المبهجة هي درجة أقل من الأميرات وأعلى من العوام.

كان بركة يسمع بعض الأسماء ويدرك المعلومات للمرة الأولى، شرحت له نظام الحكم وتقسيم القطاعات في المملكة، لعن في سره حظه الذي ألقاه هنا، حاول أن يتذكر كيف هرب خيري منه ومن أبيه وسط الصحراء، لكنه لم يستطع.. وكأن هذه الذكرى ليس لها وجود.

سألها بركة لماذا رفضت أن تقول اسم والد ابنتها، فردت:

- أردت من الجميع أن يعرفوا حقيقة شيخهم، وأن يدركوا نقصان البشر جميعًا.

لم يصدق هذه العبارات من فم عاهرة، على الرغم من بلاهته، فعاود السؤال طالبًا الحقيقة.. فقالت بهيرة في استسلام:

- بالأمس جاءني والدها.. وهددني إن اعترفت سيقتل ابنتي، فقررت التضحية لأجلها.. حتى جئت أنت وأنقذتنا.

صمت بركة، لم يدرِ ما سيقول، لكن بهيرة تابعت:

- الفترة المقبلة لن تكون سهلة، ستتعرض للمضايقات أنت وابنتي بسببي.

ضحك بركة وقال ما معناه إن المضايقات هي أسلوب حياته.. لكنه أوضح أن المشكلة في بهيرة الابنة، والتي لم ترَ الشارع في حياتها، وأن المرة الوحيدة التي رأت فيها الشمس كانت على منصة الإعدام.. ثم سألها عن كيفية إنجابها دون أن يعلم أحد عنها شيئًا.. فقالت بهيرة بهدوء:

- استعنت بصديقة قديمة من النواقص، رافقتني في أيام الحمل الأخيرة، وأعانتني على الولادة في البيت بهدوء.. لحسن الحظ وقتها أن أحدًا لم يكن ينتبه لما أفعل.. ولكن بعد أن كثر تردد الرجال على البيت بدأ الجميع يلاحظني، أما ما أود قوله لك فهو أن لي معروفًا عند صديق قديم يعمل سنانًا للسيوف، ستذهب للعمل عنده، وهو من النواقص، لذلك لا ضرر من أن يخالف أوامر الشيخ.. لن أستطيع مواجهة الناس لا أنا ولا ابنتي لفترة طويلة.

أومأ برأسه موافقًا، وهنا اقتحمت عليهما الجلسة بهيرة الابنة، فرحت حين رأتهما في وضع جيد بعكس ما كانت تراه، قضى بركة ليلته مع الطفلة يلاعبها، كانت أقرب لعقله من الأم التي أخذت الحياة منها كثيرًا وردَت.. البيت بكامله بسيط، غرفة تنام فيها الأم والابنة، وغرفة

الطعام والجلوس، فإذا جاء زبون للأم، فرشت له الغرفة الخارجية وحبست ابنتها في غرفة النوم.. مر اليوم سريعًا عليه وقد وجد الونس في الابنة التي أحبته.

قرر بركة النوم في الغرفة الخارجية وترك الأم وابنتها بمفردهما، قالت بهيرة لبركة بعد أن نامت ابنتها:

- سنعتبر ما قلته أمام الناس إعلانًا لزواجنا.. لن يمسني أحد من الرجال بعد الآن، ولن تمسني أنت كذلك.. سأكون زوجةً مطيعة لك فيما عدا هذه النقطة.. سأرعاك وأطهو طعامك وأخيط لك الملابس وأرعى الطفلة، مقابل أن تعمل لدى السنان من الغد حتى تكفينا.. فإن أخل أحدنا بالاتفاق وجب الانفصال.

منذ هذه اللحظة ويوم بركة مقسوم لنصفين، النصف الأول يذهب لدى السنان فينظف حانوته ويجمع له أدواته حتى تغرب الشمس، ثم يتحرك بخطوات ثقيلة متعبة نحو البيت ليقضي النصف الثاني مع البهيرتين.. كانت الابنة تهون عليه برود أمها في التعامل معه.. لم يكن معتادًا على الحياة في بيت، حتى وإن كان بدائيًا في عالمٍ لا يعرف عنه شيئًا.

كان السنان كهلًا خمسينيًا محبوبًا من الجميع، ممتلئ الجسد، يهمل كثيرًا في مظهره الخارجي، فلحيته غير مستوية، وكذلك ملابسه ليست نظيفة طيلة الوقت، لديه ماكينة بدائية تقوم ببري معدن السيوف، علم بركة أن صيته انحسر بعد أن انصرف عنه معظم الحراس والجنود من قطاع التابعين، فعلى الرغم من رخص أجره، إلا أنه بعيد عنهم من حيث المسافة، كانت لديه عادة غريبة، وهي أنه يخرج من الحانوت من حينٍ لآخر، يتوجه خلف سور قديم بجوار الحانوت..

في البداية ظن أنه يقضي حاجته.. لكنه اكتشف بعد فترة أنه يفرغ شهوته خلف هذا السور.. كانت عادة غريبة، خاصةً أن السنان متزوج، خمن بركة أن زوجته متمنعة عليه تمامًا مثل بهيرة.

لاحظ كذلك أن السنان لا يتحدث عن بهيرة بسوء مثل جميع المضايقين لبركة في الشارع والحانوت، ولا الأطفال الذين أطلقوا عليه لقب «منديل بهيرة»، كناية على أنها قد مسحت جميع خطاياها فيه.. كان الموضوع مؤلمًا لأي شخص، لكن بركة قد رأى أسوأ ما في النفوس منذ زمنٍ، فمن تعرض للاغتصاب ورآه والده تكون المضايقة بالنسبة له دربًا من دروب اللعب.. وكأن الحرج قد مات بداخله.

كانت العلاقة فاترة بين بركة والسنان، حتى يوم جاء أحد الجنود بسيف يريد سنه.. كان السنان يمارس عادته الغريبة خلف السور، ادعى بركة أنه سنان جديد، وليس صبيًا، صدق الجندي لا لذكاء بركة ولكن لأنه كان متعجلًا.. فأمسك بركة السيف وبدأ يسنه مقلدًا السنان، وأضاف من عنده طريقةً أخرى لسن السيف تعتمد على تدريج سمك النصل، فيبدأ النصل حادًا ثم يتدرج في السمك ببطء حتى يصبح سميكًا..

تعجب الجندي من هذه الطريقة وقد اعتاد أن السنان يجعل النص حادًا ويترك باقي السيف على سمكه.. لم يعرف بركة ما دفعه لهذا، لكنه أثار غضب الجندي.. جاء السنان على صوت صياح الجندي ومطالبته بسيف جديد من السنان.

وهنا طرد السنان بركة من الحانوت.. وأثناء خروجه جرب الجندي السيف على فرع شجرة فقسمه من الضربة الأولى، نظر كلاهما، الجندي والسنان ناحية بركة في دهشة، حتى بركة نفسه كان مذهولًا

حين أقرضه الجندي عملة فضية كاملة، حينها أدرك السنان أنه قد وجد كنزًا حقيقيًا.

أحضر السنان الطعام لبركة للمرة الأولى، وطلب منه أن يعلمه كيف سن السيف، فشرح بركة بهدوء للسنان، والذي قام من فوره وراح يجرب مع الجنود، وحين تأكد من قدرته على إنجاز الأمر دون بركة، أغلق الحانوت من الداخل وطلب من بركة الجلوس، بعد أن ناوله عملة فضية وقال:

- ستقول لزوجتك أنك من طلبت الرحيل عن هنا، وإن سمعت أنك عملت سنانًا سأقتلك أنت وهي.. هذا السر سيبقى بيننا!

رد بركة بصوت خفيض بأنه لا أحد سيقبل أن يشغله بعد صدامه مع شيخ الكاملين وتعرضه للمضايقات في الشارع، لكن السنان أعاد عليه نفس الجملة بالضبط، فانصرف بركة والحزن يلوك قلبه. كان يمشي بطيئًا مفكرًا حتى سمع جلبة وصراخًا بالقرب من بيت بهيرة، لم يفهم ماذا يحدث حتى رأى شابًا شديد الضخامة يخرج من البيت حاملًا بهيرة الطفلة ويحاول اختطافها، أمسكت الأم بيده علها توقفه لكنه دفعها بقسوة، لم يفهم بركة سبب الاختطاف.. لكنه تحرك سريعًا، قاوم امتلاء جسده وصعوبة حركته وركض بأقصى ما لديه من قوة نحو هذا الشاب فدفع بهيرة عنه لتسقط في ألم، وتشبث هو بقدم الشاب، وقد قرر في داخله ألا يتركه يرحل بالطفلة.

أخرج الشاب الضخم سكينًا صغيرًا وبدأ يشرِّح في رأس بركة وظهره حتى يتركه.. لم يذكر بركة بعد ذلك سوى ألم حارق في عينيه التي وصلها دمٌ من رأسه، وصوت صراخ بهيرة الأم والابنة.

١٩- قصر الأسلاف

ظلت الصدمات تتوالى على ياقوت مثل عربات قطار، لا يعرف كيف وصلت هذه الصورة إلى ذهنه، لكنه رأى نفسه يركب قطارًا من الصعيد إلى القاهرة، كان يحمل في يد حقيبة صغيرة، والأخرى تطبق على ساعد بركة، الولد الأبيض الذي لا يشبهه في شيء.

لم يعرف أين ذهبت القطارات وسط خيام الزهاد خضراء اللون، وكيف انتقل من القاهرة إلى واحة صحراوية بعيدة.

قاطع سكونه صوت الملك العطّاء الرخيم، وهو يقول بلهجة آسفة:

- يبدو أن الزهاد مصممون على دخولك قصر الأسلاف.

لم يبدُ على ياقوت الضيق، وقال للعطّاء:

- قلتم لي إن من دخل القصر لم يخرج منه حتى اليوم، ربما هي فرصتي للخلاص.

بدا على العطّاء الاهتمام بما قاله ياقوت، تذكر ما رآه بنفسه وما سمعه من الزهاد، وهو أن كل شخص أتيحت له الفرصة لدخول القصر تلهف للحظة الخروج منه وحكم الزهاد، ولكن زهد ياقوت في الحكم قد يعطياه فرصة.. تذكر العطّاء يوم أن وصل لقطاع الزهاد هاربًا من ولاية العهد، ومن سلطة الموحد، وقائده الراشد، وطمع أخيه الفريد، لم يكن

يؤمن سوى بما قرأه في المكتبة الملكية، أبدًا لم يؤمن بالغيبيات التي يعتنقها هؤلاء، لكنه مع الوقت آمن، رأى خوارقهم بعينيه، وشاهد قدراتهم على التواصل مع كائنات لا يراها والتنبؤ بأمور حدثت بالفعل.

طلب العطّاء من ياقوت ارتداء جلباب من عنده، فاليوم هو يوم «التأهيل»؛ حيث سيمارس الزهاد على ياقوت طقوسهم، نفذ الأمر دون نقاش، خرجا ليتمشيا وسط الخيام الخضراء المتشابهة، سأل ياقوت العطّاء كيف يعرف الزهاد العودة لمساكنهم وجميعها متشابه بهذه الكيفية.

- المأوى ينادي صاحبه، والمأكل يعرف لأي بطنٍ يذهب.

لم يرد ياقوت، كانت الألفاظ والمعلومات عسيرة عليه، لم يتذكر من هو بعد حتى يتذكر من هؤلاء وماذا يفعلون.. وكيف يديرون أمور معيشتهم، وصل إلى ساحة خالية، كان أهل القطاع قد تجمعوا بصورة غير منظمة، وبدؤوا في ترديد ألحان وأناشيد على صوت طبول.. لم يفهم ياقوت ما الذي يقولونه، لكن الملك العطّاء مال على أذنه قائلًا بصوتٍ عالٍ حتى يتغلب على الضجيج:

- هذه أنشودة «الأسلاف»، وفيها يتضرعون للأقدمين حتى يساعدوهم في اختيار سيدهم المنتظر.

كاد أن يسخر مما يسمع، لكنه تذكر أن العطّاء قد اختار هؤلاء القوم بإرادته وأنه أصبح واحدًا منهم، فصمت.. لاحظ أن معظم الزهاد يشبهون بعضهم البعض، وحين سأل العطّاء رد معللًا هذا أنه «الوباء»، الذي لعنهم به الأسلاف نتيجة طمعهم في الحياة، وأن سيد الزهاد هو الذي يخرج حيا من القصر، وهو الذي سيعالج هذا الوباء.. شعر ياقوت بالاطمئنان لأنه غالبًا لن يكون سيدهم.

كان لدى الزهاد طاقة روحية حقيقية، طاقة تجعل رفض ما يطلبون مستحيلًا، لم يملك ياقوت قدرة على رفض أيًا مما طلبوا، تركهم يجردونه من معظم ملابسه ويلفونه في عباءة مهترئة من الكتان تكشف أكثر ما تستر، صنعوا تبة عالية من التراب شديد السواد طيب الرائحة، ودفنوا جسده فيها دون الرأس، قال أحدهم مخاطبًا ياقوت بصوتٍ عالٍ:

- التراب هو أصل كل شيء، إن بقيت حيًا بداخله حين تبزغ الشمس ثم زوالها.. حينها فقط تستحق دخول القصر.

في حالته الطبيعية كان ياقوت ليلعنهم جميعًا ويسب أمهاتهم، ولأخرج مسدسه واشتبك معهم في عراك طويل يخرج منها قاتلًا أو قتيلًا، لكنه ومع الهالة التي فرضها الزهاد على قطاعهم بات الرفض مستحيلًا، ثم إنه لا يملك مسدسًا.

أخبره العطّاء بأن هذه الهالة هي سبب عدم احتياجهم لجيش يدافع عنهم، وخوف باقي القطاعات من اجتياحهم، قضى ياقوت ليلته مدفونًا، بدأ يتوهم حركة ديدان وحشرات تلامس جسده، لم يعرف إن كانت حقيقة أم خيالًا، لكنه لم يتعجل الخروج، ولم يتعجل النجاة أيضًا، شعر برغبة عظيمة في الاستغناء عن كل شيء، لم يزعجه ملمس ولا رائحة التراب على جسده.. لم ينظر له أحد أو يتحدث معه أحد، كانت القوانين تنص أن يقضي يومًا بليلته مدفونًا دون طعام أو شراب أو حديث.. لم يشعر ياقوت بصعوبة الاختبار على الإطلاق.

أحس بقرص الجوع في أواخر اليوم، لكنه أرجع رأسه وراقب مغيب الشمس ببطء، تأمل حمرة الشمس وقد تحول الشفق، وكأنه ينظر عبر شاشة عرض كبيرة، رأى هرمًا كبيرًا وسيدة ترمي نفسها من جبل، وطفل يلعب حوله، وأثرًا فرعونيًا وقبطيًا.

بدأ الزهاد يملأون دلائهم الضخمة من أحد الأبيار على أطراف القطاع، وقد صنعوا بركة صغيرة من مياه، لم يفهم ما الذي يحدث حتى أخرجه بعض النساء من كوم الأتربة ونظفوه بأيديهم في البركة، كان النساء في القطاع مثل الرجال في كل شيء حتى أنهن تشابهن جميعًا في الشكل.

اقتاده الزهاد نحو قصر الأسلاف، لم يكن قصرًا بالمعنى المعروف، كان أشبه ببيت كبير من طابقين يعلوهما قبة ضخمة، وقد أحيط بنخيل تكون حوله كسياج طبيعي، كانت بوابة القصر حديدية بلا مفتاح، لكن أحدًا من الزهاد لم يجرؤ على تجاوزها.. لكن ياقوت فعل!

سار بخطوات بطيئة، شعر بلفح الرمال في قدمه، برغم ارتدائه خفًا أبيض استعاره من العطاء، سمع صوتًا يأمره بالتراجع في داخله، وظلت نبرة الصوت تعلو وتعلو كلما اقترب من الباب، كان الباب مغلقًا، نظر للخلف فوجد الزهاد واقفين خلف البوابة يترقبون الدخول، أشار نحو الباب الموصد، لكن أحدهم همس له:

- لا تقلق، سيفتح لك الباب نفسه حين تمسه أناملك.

فعل ياقوت ما أُملي عليه بالحرف، لم يفهم أي تأثير سحري وقع فيه حتى يجعله يطاوعهم بهذا الشكل، البيت من الداخل كان خاليًا من الأثاث، وفي كل رقعة تقريبًا كانت توجد الكثير من خيوط العنكبوت، لم يعرف أي أسلاف سكنوا هذا المنزل.

أغلق الباب خلفه، لم يدر ماذا عساه الفعل، كانت رائحة العطن تملأ بهو القصر، كأنها جزء من الحوائط الخشبية المتينة التي اكتظت برسوم ورموز لم يفهمها، خمَّن أنها عزائم أو تعاويذ سحرية منقوشة بلون أحمر، وفي بعض الأركان وجدت مخطوطات متناثرة مغمورة بأكوام من

الغبار، حاول أن يبعد عن خاطره فكرة أن يكون هذا الأحمر دمًا بشريًا، أو أن تكون هذه الرقع من جلد آدمي.. حاول أن يقترب من الرقوق ليقرأ ما فيها لكن قوةً ما منعته، حاول مرة أخرى وحاول وحاول، وكأن هناك حاجزًا قويًا لا يراه ويمنعه.

شعر ياقوت بحوافر حيوان تمر من فوق قدمه، نظر في فزع لكنه لم يجد شيئًا.. شعر بوخزة في عنقه لم يدرِ لها سببًا، كان للبيت طاقة أدركها ياقوت من اللحظة الأولى.

في نهاية البهو لمح ياقوت سلمًا خشبيًا متهالكًا ومرآة عملاقة، تحرك فوق الأرضية التي أصدر خشبها صريرًا، نظر أسفل قدمه ليجد الأرض مكسوة بطبقة من تراب، لاحظ آثار أقدام تتجه نحو السلم، فطن إلى حداثة هذه الآثار، فزع حين لمح أثر لأربعة أقدام حيوانية، خمن أنها لحيوان ضخم بسبب تباعد الآثار عن بعضها، لم تكن تشبه أثر أقدام أي حيوان يعرفه، كانت كبيرة الحجم أقرب للاستدارة.. اتجه نحو السلم بحثًا عمن قال الزهاد عنهم إنهم سبقوه في الدخول.. لكنه لمح انعكاسه في المرآة يلوح له.

نظر ياقوت نحو المرآة ليجد أن انعكاسه يشبهه تمامًا لكنه لا يتصرف مثله ولا يعكس حركاته، كان الانعكاس مبتهجًا:

- انتظرتك كثيرًا.. رفضت من هم دونك لسنين..

شعر ياقوت بسخافة الفكرة لكنه تحدث ناظرًا للانعكاس:

- من أنت؟

ضحك الانعكاس لياقوت وقال:

- السؤال الأهم هو من أنت!

رد ياقوت بصدق:

- لا أعرف.

نظر له الانعكاس ضاحكًا وقال:

- ما تريد معرفته سهلٌ.. لكن الحقيقة أبعد من متناول يدك.

صفق الانعكاس بيديه فاختفى، وظهر في المرآة مشاهد من حياة ياقوت ردت له الذاكرة.. رأى نفسه شابًا يحرس مقبرة فرعونية، شاهد كل من قتلهم في صباه لأجل المال، رأى مشاهد من جماعة لزوجته ولنساء أخريات، كوابيسه التي منعها عنه بركة، مشاهد لياسين وخيري وبركة ونادين في أماكن متفرقة في المملكة، وجد نفسه يعرف قواعد المملكة وتقسيم القطاعات.. كل شيء دخل في عقله وانطبع في ذاكرته خلال ثوانٍ معدودات.

عادت لياقوت هيبته، شعر بروحه ترد إليه من جديد، وبدأ يفكر في حل للرجوع من هذا العالم، وفجأة انقطع فيض الذكريات وعاد الانعكاس الذي يشبه ياقوت شكلًا وقال:

- الآن عرفت، وللمعرفة ثمن.

رد ياقوت بحزم:

- أريد الرجوع.

ضحك الانعكاس وقال بسخرية:

- أبغض الكذب هو الكذب على النفس، فلِمَ تبغى الرجوع؟ أتترك مكانتك الجديدة وتعود خفيرًا؟

سأل ياقوت في عدم فهم:

- أي مكانة؟

أشار الانعكاس إلى جملة مكتوبة أعلى المرآة، كان مكتوب عليها «أكثركم إثمًا هو سيد الزهاد».. بدا على ياقوت الدهشة وقال:

- هذه الجملة لم تكن مكتوبة من قبل.. وكيف فهمتها وأنا لا أستطيع القراءة؟

رد الانعكاس ضاحكًا:

- فهمتها كما فهمت لغة الزهاد، وكما فهم أصحابك الغرباء لغة أهل مملكة المخلدين، وظنوها مجرد لهجة غريبة عنهم.. ببساطة فهمتم لأنني أريدكم أن تفهموا.. وسمعوا أسماءهم العسيرة عليكم أسماءً من وحي ثقافتهم، أنا أجعلكم ترون ما أريده وتسمعون ما أتلوه عليكم.

سأل ياقوت:

- وفي أي عصر نحن؟

رد الانعكاس:

- لا يهم..

- أتراني أكثر الزهاد إثمًا؟

- حياتك في القتل ونهب ما ليس ملكك، تربي ابنًا ليس من صلبك.. لا أعرف زاهدًا يفعل ما تفعل.

- هل حقًا تشبهني؟

قال الانعكاس وهو يشير لجسد ياقوت الذي يتحدث من خلاله:

- أنا بلا شبه، وإن رأيت هيئتي الحقيقية لما كنت من الأحياء إلى الآن.

- ما اسمك؟

- يمكنك أن تلقبني بـ«الحارس».

- وماذا تريد مني؟

- أريدك أن تسود، وكما وهبتك علم الماضي سأمنحك معرفة ما هو مقدر.

قال ياقوت معترضًا:

- لكنني لم أطلب معرفة ما سيكون!

- الأمر ليس بخصوص ما تطلبه، أنت هنا لما هو مقدر لك.

أشار ياقوت نحو السلم المؤدي للطابق الثاني:

- ماذا يوجد بالأعلى؟

- بالأعلى يكمن الأسلاف.. وهناك أسرار لم أبح بها لمن سبقوك!

- هل يسمح لي بالصعود؟

رد الانعكاس وهو يتأمل عروق يده التي تعود لياقوت:

- ليس اليوم.. ستعرف ما سيكون، ولكن إياك وأن تغير فيه، فإن منعت القدر ابتليت بأسوأ ما فيه!

كاد ياقوت أن يبادر بسؤال جديد، ولكن اختفى الانعكاس من المرآة، التي أظلمت تمامًا، وفتح باب قصر الأسلاف من جديد، لمح ياقوت شرخًا

جانبيًا في المرآة، فضغط عليه بيده ليكسر منها جزءًا صغيرًا وضعه في سيالة جلبابه ليحتفظ بالمرآة معه.. وحين هم بالخروج سمع ياقوت صوتًا أجشًا يتردد صداه في جوانب القصر:

- للمعرفة ثمن، تأكد أنك ستدفعه كاملًا.

٢٠- في رثاء الملكة

وقف ياسين الهواري منتظرًا نادين في نهاية فتحة التهوية في الطابق الأرضي من القصر، لم يكن هناك أحد بجوار هذه الفتحة، فهي خاصة بالتابعين وقت النهار فقط.. تعجلها في سره، فمشرف التابعين ينتظره على حدود القطاع بعربة صغيرة يجرها حصانان للهرب من القطاع، الذي لم يكن مؤمنًا بالشكل الكافي بسبب هروب سليمان الراشد ومن معه، وانتشار أخبار الانقلاب الذي أشاع الفوضى في السوق، وأحل الخوف في قلوب الناس، ولكنه لم يمنع الناصر عن الاحتفال بزفافه، كان الأمير أنسي من نصحه بعدم إلغاء الزفاف، ولم يعترض ياسين على هذا الاقتراح، فإنكار المشاكل يطمئن العوام.

لم يطق ياسين المكوث في هذا القطاع لحظة واحدة، حتى وإن صار من أسياده، فهنا سيضحي بمحبوبته الوحيدة في سبيل منصب لم يسعَ إليه.. فكر في التسلل من خلال الفتحة وحتى جناح الناصر، لكنه خشي أن يتم ضبطه.. ظن ياسين أن نادين قد تراجعت عن فكرة الهروب وقررت الاستمرار في دور الملكة الجديدة، لكنه كان واثقًا من رغبتها في العودة لعالمها الذي تمسكت به، سخر في سره منها، فهي ترفض حكم مملكة كاملة مقابل أن تظل على حد قولها: «جنب أمي».

فوجئ بانقطاع مفاجئ لصوت فرقة المعازف، وقد حل محلها صوت صرخات طويلة، ظن أن مكروهًا أصاب نادين، انتظر لدقائق، ولكن صوت الصراخ قد ارتفع.. اقترب بحذر من مطبخ القصر، سمع الخادمات يتحدثن في فزع عن وفاة الملكة، توقف قلب ياسين عن النبض للحظات، ارتجفت أطرافه وغرق في عرقه، لم يكن ليعيش لحظة دون نادين، وكذلك مع كونه السبب الرئيسي في أي أذى قد يطولها.

صعد ياسين سلالم القصر ركضًا، وأسرع متجهًا نحو بهو القصر، وجد الناصر يبكي كالطفل وهو يحتضن جسدًا مسجى على الأرض، نظر الجميع نحو ياسين فور اقترابه من الناصر الذي كان في كامل هندام الزفاف، نهض الملك الناصر وأمسك ياسين من كتفيه صارخًا:

- رحلت الملكة مهدية، اليوم فقد العالم شريفته الوحيدة!

احتضن الناصر ياسين في حزن حقيقي، حاول ياسين إخفاء ارتياحه لكون الملكة المقصودة كانت المهدية وليست نادين، دار بعينيه بين الحضور بحثًا عن حبيبته نادين، لكنه لم يجدها.. لم تتمالك الأميرات من كتم حزنهن الحقيتي على رحيل الملكة مهدية، التي حملت وجهًا عجوزًا وقلبًا حانيًا.

وحدها الأميرة دانية من ألفت ملحوظتها:

- أين الملكة الجديدة؟

نظر جميع من بالقصر حولهم بحثًا عن نادين، خاف ياسين أن تكون قد تحركت متأخرة وأنها الآن تنتظره في الأسفل.. حاول التسلل من بين الجميع عائدًا لمكان اللقاء المتفق عليه، لكن قاطعه ظهور نادين من الطابق العلوي، كانت في حالة يرثى لها، وقد اشتد بكاؤها، لم يستطع

ياسين التحدث معها، لكنه علم من النظرة الأولى أن نحيبها صادق، وأن هناك حدثًا أشد من وفاة الملكة مهدية أوصلها لهذه الحالة.

قال الملك أنسي بحزم بلغة مملكة المخلدين، ثم أعاد العبارة مرتين؛ الأولى بلغة أهل مملكة الرمليين والثانية بلغة مملكة نعوم:

- انتهى الحفل، فليعد كل منا لجناحه، وصباح الغد ندفن الملكة مهدية ونودعها بالشكل الذي يليق.

اقتربت نادين من الناصر، الذي احتضنها مقاومًا دموعه:

- وكأنها رفضت أن تحيا بلا تاج.. فلتكن من الكاملين.

ردد جميع من بالقصر في صوت واحد:

- لتكن من الكاملين.

شعر ياسين بغصة في حلقه حين وجد الناصر يضع يده فوق جسد نادين دون حرج أو اعتراض منها، لكن قلقه على منظر نادين والحزن الحقيقي الظاهر عليها جعلاه يتناسى هذا العناق.

تحرك ياسين خارجًا من القصر، لكن أوقفته «غالية» ومالت على أذنه قائلة:

- لا داعي لمبيتك في مساكن العلماء سيدي المستشار.. فقد خصص الملك لك جناح سليمان الراشد.

رد ياسين في دهشة:

- لكن ملابسي؟

قاطعته غالية:

- ملابسك في حجرة الراشد، وقد محى التابعون أثناء الزفاف كل أثر لوجوده.. وسمعت شائعات أن الناصر سيزيل سيرته من كتاب «الأثر»، وقَصَص الملك الموحد.

لم يرد ياسين، فقط تحرك نحو جناح الراشد هائمًا، وقد حاوطته الأسئلة من كل جانب!، أين ذهبت نادين؟ وما الذي جعلها تتخلف عن اللحاق به؟ ولماذا تبكي بهذه الحرقة؟ وهل ماتت الملكة مهدية اليوم صدفة؟ أم أنها مؤامرة جديدة تحاك داخل أروقة القصر؟

xxx

توقع ياسين أن تستمر مراسم العزاء كاملة في اليوم التالي، لكن تعامل الأسرة الحاكمة مع الحزن كان مختلفًا عن بقية المخلدين، فمن تقاليد آل الموحد أن ينتهوا من الدفن سريعًا، ثم يذهب رجال العائلة ظهرًا للصيد في وادي بصحراء المملكة، ليس ببعيد عن قطاع الحكم.

كانت المرة الثالثة لياسين، التي يركب فيها الخيل بمفرده، لم يكن سيئًا للدرجة التي توقعها، كان له فرس أدهم يقف بجوار خيل الأمير أنسي، وخيل الملك الناصر المتميز عن جميع الخيول ببياضه الصافي.

فرد أنسي قامته الفارعة العريضة فوق ظهر فرسه، سحب قوسه للخلف، وأطلق سهمًا نحو هدف لم يره ياسين ولا الملك الناصر، طار السهم سريعًا بشكل منحنى حتى اختفى عن الأنظار، لم يفهم ياسين ما حدث حتى عاد أحد الحرس بغزال سمين ووضع أسفل قدم الملك الناصر الذي نظر بإعجاب لأنسي قائلًا:

- لا أذكر يومًا خاب نشانك، أنت تشعر بالفريسة دون رؤية!

نظر أنسي بطرف عينه نحو ياسين وقال بمكر:

- أتمنى أن يمتلك قائد الجيش الجديد هذه الموهبة.

عقب ياسين هامسًا:

- ملكنا نفسه لا يجيد العراك، العبرة بقوة العقل لا الذراع، والشعور بنفوس الناس أهم من الفرائس.. ألم تقرأ يومًا عن معركة التوحيد؟

كاد أنسي أن يرد لكن الناصر قاطع الجدال قائلًا:

- كنت سأعينك قائدًا للجيش يا أنسي، ولكن دورك إلى جواري أهم الآن، وحتى أرزق بولدٍ من الملكة الجديدة، أنت ولي العهد، فلم يبقَ سوانا من نسل الموحد.

بدأ صوت الثلاثة يعلو، فابتعد الحراس بإشارة من الناصر، عقب ياسين في خبث:

- لا تنسَ الملك العطَّاء.. فهو مستحق الحكم من بعدك.

رد أنسي غاضبًا:

- لقد تنازل أبي منذ زمنٍ عن الحكم.

قال ياسين مستعيدًا نص مرسوم التنازل، الذي خطه الملك العطاء قبل اعتزاله الحياة بين الزُهاد:

- مشكلتك أنك لا تقرأ، وإن قرأت فإنك لا تعي.

نهر الناصر ياسين، ونهاه عن الحديث بهذا الشكل مع أمير من الخلدين، لكن ياسين أكمل حديثه دون أن يعبأ بالناصر:

- لكن الملك العطَّاء لم يتنازل لك عن ولاية العهد، لذلك فهو الأحق بعد الملك الفريد ونسله الأمير يزن والملك الناصر.. فإن مات الناصر، وليُبعَد الشر عن مولاي.. فالعطَّاء هو الملك.

قال أنسي للملك:

- أتثق في هذا الثعبان ليتولى أمور جيشك؟

رد الناصر:

- أثق في كليكما.. كان من الممكن أن ترحلا مع الراشد، لكنكما فضلتما البقاء هنا.

ترجل الناصر عن فرسه، ففعل أنسي وياسين بالتبعية، ربت على كتفيهما وقال:

- يجب أن نتحد حتى تنتهي ثورة الراشد، فقد بلغني أنه جمع من القطاعات عددًا مقاربًا لجندنا.. وبعد نهاية التمرد سأولي كلا منكما على قطاع.

قال أنسي باهتمام:

- وهل سيحق لي معرفة محتوى الغرفة المحرمة؟

لم يرد الناصر على طلب الأمير أنسي.. اندهش ياسين أن أنسي لا يعرف، أدرك فيما بعد أن هذا السر مقتصر على الملك وحده.

كان أنسي قد شرد عما يحكيه الناصر، لمعت عيناه كأنما وردت على باله خاطرة، لقم قوسه بسهم جديد، تعجب ياسين من موهبة أنسي في الشعور بفرائس لا يراها بعينه، أطلق السهم بعيدًا عن نظر الجميع، وسمع ياسين صوت صرخة قصيرة مكتومة، فابتسم أنسي بثقة وتوجه هذه المرة بنفسه لحصد الصيد قائلًا:

- ستكون هذه الغزالة أكبر من سابقتها، من يراهن؟

غمز ياسين له بإعجاب، ولم يعلق الناصر، راقب «ياسين الهواري»، الأمير أنسي وهو يتحرك ببنيانه القوي بعيدًا وقال لياسين:

- لقد ورث الأمير «أنسي» هذه الموهبة عن الملك الموحد، قيلَ إنه كان يقتل دون أن يرى.

همس ياسين في أذن الملك كي لا يسمعه أحد الحرس فيشي به:

- كما أن بنيانه قوي، والعوام ينخدعون بالمظهر، فهم يرون منه القوة، ولا يطلعون على ما في عقلك من ذكاء هو أنفع لهم.

- ماذا تقصد؟

- من جرائم الحكم أن تترك نائبًا مميزًا لك.. نائب يحبه العامة وتثق فيه الحاشية، كما أنه أقوى من أقدم جنود الجيش وأكثرهم بأسًا.

كان الملك قد سلم نفسه تمامًا لياسين، سأله عن التدبير، فقال ياسين بهدوء:

- بعد انتهاء فترة الحداد ستكلفه بجمع جباية عظيمة من جميع أنحاء المملكة، سيشرف بنفسه على إعدام المتمردين والعصاة، كما سيجلد كل من يمتنع عن الضريبة.. ثم تضعه على رأس فرقة ضعيفة من الجيش جيش ضعيف وتجعله يلاقي المتمردين على أطراف القطاع لينهزم بسهولة.. باختصار سنجعله واجهة لكل ما يغضب الجمهور.

عاد أنسي سريعًا، وكأنه يلاحق ما فاته من حديث، ألقى الغزال أسفل قدم الملك الناصر، كانت لاتزال حية.. نظر لها الناصر وهو يحاول السيطرة على رغبة تظهر في عينيه.. قال أنسي لياسين:

- وهل لدى قائد الجيش خطة معينة لمواجهة التمرد إن انتصر على جنودنا؟

رد ياسين بهدوء:

- سأترك لهم قطاع النواقص وأعرض عليهم الهدنة.

نظر له الأمير أنسي باستنكار وقال:

- هل تضحي بأرض المملكة من أجل الحكم؟

قال ياسين وهو يربت على رأس فرسه:

- سندعهم يتزعمون القطاع دون مشورة منا، سيختلفون على من يتزعم بعد نجاح التمرد.. الثورة دائمًا ما توحد الصفوف، ولكن وقت الحكم ينفض الاتحاد.. دع القائد سليمان يتنازع مع شيخ الكاملين على من يسود، وفي وجود جعفر، لن يستتب لأي منهم الحكم.. سيأتي كل طرف يطلب التحالف معنا للقضاء على الآخر.. فنقصيهم جميعًا ونحكم من جديد.

لم يستطع أنسي إخفاء إعجابه هذه المرة بذكاء ياسين، عقب الناصر ضاحكًا وهو يخرج سيفه الثقيل المذهب من غمده:

- هذه المرة الأولى التي تتفقان فيها.. تفرقكما السياسة وتجمعكما السياسة.

قال أنسي باقتضاب للناصر:

- أرجوك لا تفعل ما تفكر فيه.

لم يفهم ياسين ما يرمي إليه الأمير أنسي حتى بدأ الملك ينهال طعنًا بسيفه على الغزالة التي كانت لا تزال حية، كان يمزقها كما لو كانت عدوة له.. أبعد أنسي وجهه عما يرى وكذلك فعل ياسين.

مر اليوم بطيئًا على ياسين الذي أعيته شمس الصحراء، وسريعًا على أنسي الذي اصطاد خمس غزالات برية، وقد قرر أن يشويها جميعًا لطعام وضيمة الملكة مهدية.. كان الملك الناصر أقل حزنًا على أمه بعد أن مزق الغزلان، وقد عرف ياسين الهواري من نادين في وقت لاحق أنه داعب نفسه كثيرًا في نفس الليلة.

وعلى مشارف قطاع الحكم لمح الثلاثة دخانًا كثيفًا يأتي من ناحية قطاع التابعين والعلماء الملاصق لقطاعهم.. توجه الفرسان نحو قطاع التابعين، واستقبلهم المشرف، كان وجهه شاحبًا من فزع كبير وقال للملك الناصر:

- مولاي هناك من أحرق المكتبة عن قصد، فقدنا الكثير من العلماء وعددًا من التابعين.

سأل ياسين في استنكار:

- الكتب، ماذا عن الكتب؟

رد المشرف هامسًا:

- احترقت جميعًا.

نظر الناصر نحو ياسين وسأله في يأس:

- ألم تكن لديك نسخة من كتاب الأثر؟

رد ياسين في وجوم:

- أعدتها ليلة أمس لحكيم المكتبة.

سأل أنسي مستدركًا:

- صحيح، أين حكيم المملكة من كل هذا؟!

رد مشرف التابعين وهو يبعد نظره بعيدًا عن أعين أنسي:

- لم نستطع إنقاذه، احترق وسط الكتب.

٢١- خيانة

فقدت نادين إمام الشعور بكل ما يدور حولها من أحداث، كانت تتحرك جسدًا فقط، لكنَّ عقلها لا يزال معلقًا بما حدث وما مرت به في الغرفة المحرمة، لم تنسَ ما رأت، أو بمعنى أدق.. من رأت!

كانت قد قضت ليلة لن تناسها لبقية حياتها، استلقت بجوار الناصر تحتضنه دون شهوة، وهو الذي طلب منها أن تبتعد، ونهض ليتأمل جسده في المرآة كعادته، لم تخفِ نادين دهشتها من آلية دفاعه ضد الحزن والخوف، طلبت منه بهدوء أن تبيت ليلتها في جناح الملكة مهدية حتى تودع رائحتها من المكان، فوافق الناصر بعد تردد.

لم يكن لها غرض في توديع الملكة. كانت تريد أن تجلس بمفردها، تفكر فيما حدث داخل الغرفة المحرمة، وفي فداحة السر الذي عرفته، والذي كاد يودي بحياتها.. جلست منكمشة على فراش الملكة مهدية وتذكرت كل ما مرت به منذ أن استدعاها ياسين الهواري لمشاهدة اكتشافه المشؤوم عند الهرم الأوسط، مرورًا بعلاقتها الغريبة مع الملك الناصر، وانتهاءً بالحادث الغريب الذي غيَّر حياتها تمامًا في الغرفة المحرمة.

وفي اليوم التالي ظهرت للملك الناصر في صورة الملكة الجديدة الباكية على وفاة والدته، والحزينة على انقطاع سيرة الملكة مهدية من الأرض أكثر من سعادتها بالتاج، بدت للعامة مثل سيدةٍ أولى حقيقية تدعم ملكها ضد

التمرد، حتى أميرات الحاشية بدأن يتعاطفن مع تلك المكلومة المتأثرة باحتراق المكتبة الملكية، ووفاة حكيم المملكة الذي علم زوجها كل شيء يعرفه. وحدها غالية لم تنخدع بتماسك نادين الظاهري، حاولت ألا تتركها بمفردها، لم تعرف سببًا لحزنها لكنها مازحتها قائلة:

- ظننتك اختفيت كما كانت تختفي المبهجات في الماضي؟

سألت نادين في فتور:

- وأين يذهبن؟

رفعت غالية كتفيها وقالت في حيرة:

- حدثت هذه الحادثة في أواخر عهد الملك الفريد، وحتى الآن لا أحد يعرف.. وحتى الآن لم يظهرن في أي شبرٍ من المملكة!

عرضت غالية على نادين جولة في الحمام الملكي بالقصر الملحق لقصر الحكم، وافقت نادين لمجرد إلهاء نفسها عن التفكير فيما مرت به، عرفت فيما بعد أنه مكان التجمع غير الرسمي للأميرات وزوجات الوزراء، ومقر جلسات النميمة بينهن.

كشفت نادين عن جسدها، حتى إن بعضهن نظرن لها في مزيج من حسد وانبهار، حتى إنها أحست بغالية تنظر لها بشكل أثار ريبتها، فطلبت من خادمة أخرى أن تقوم بتدليك جسدها وتنظيفه.

لحسن حظها كانت بعض السيدات من وفود الممالك المجاورة قد أتين للحمام، وكان خبر وفاة الملكة مهدية هو محور الحديث، لذلك لم تصبح هي محط لأنظار كما اعتقدت واعتادت منهن.

وفي ركنٍ من الحمام استلقت غالية بجوار نادين، قالت لها وهي تصطنع المرح:

- الملكة مهدية فضلتك عن كل هؤلاء.. حتى الأجنبيات منهن!

لم ترد نادين، استمرت في شرودها، تركت غالية تتحدث مستعرضة خبراتها في أدوات التجميل، والأعشاب التي ترطب البشرة في هذا المناخ الصحراوي القاسي.. لم تلتفت نادين لحديث غالية إلا حين أشارت لتجمع ليلي كان منظمًا قبل وفاة الملكة يدعى «الملتقى»، وهو طقس اعتاد الملك الفريد تنظيمه كلما حضره ضيوف من ممالك مجاورة، حيث يجلس الحاشية من هنا وهناك، فيتبادلون الخبرات والفن والثقافة، ويتهادون بالكتب والآلات الموسيقية.

تحمست نادين للملتقى، فهو فرصة لمحاولة البحث عن ياسين، وأيضًا البحث عن طريقة جديدة للهروب بعد أن ضلت الطريق في فتحات التهوية، وهبطت داخل الغرفة المحرمة.. مرت الساعات بطيئة حتى اجتمع الناصر بحاشيته مع وفود مملكة الرمليين ومملكة نعوم وزوجاتهم.. كان الحديث عن المسرح الذي تأخر كثيرًا في مملكة المخلدين بسبب الاعتماد على ذوي الإعاقة في إضحاك الناس.

تحدث أحد موفدي مملكة «نعوم»، كان ينطق لهجة المخلدين بصعوبة، لكنه أوصل فكرته عن كيفية تقديم المسرح في بلاده حكايات معقدة وصعبة، تدخلت نادين في الحديث بعد استئذان من الملك الناصر، وعرضت عليهم أحد أفكار مسرح الجامعة الذي كانت بطلته، فلاقت إعجاب الجميع، عدا الناصر الذي شعر بالحقد تجاهها، فهو يحب التأليف ويفضل أن يتحدث الناس عن موهبته هو وليس زوجته.

تطرق الملك الناصر للحديث حول المكتبة المحترقة، وطلب من موفدي المملكتين نقل رغبته للحكام في تشييد مكتبة جديدة، وقد خطَّ لهما مرسومًا يطلب فيه نسخ من كل الكتب.. سأل أحد الأمراء الأمير أنسي

عمن فعل هذه الفعلة، لكن أحدًا لم يملك الإجابة، قالت الأميرة دانية زوجة أنسي:

- أظنه أحد التابعين شعر بالحقد تجاه أسياده ممن يقرأون!

في أي حال أخرى كانت نادين لتسخر من دانية التي لم تقرأ كتابًا في حياتها، لكنها كانت قد تركت غالية ودانية وكل الناس وشردت بعيدًا.

قال أحد موفدي مملكة الرمليين:

- لا تقلق، فتاريخكم ليس ببعيد ستخطون من الكتب والرقوق ما تذكرونه منه ولن يضيع أغلبه.. ولكن التاريخ يجب أن يُسَطَر في عقول العامة، وليس في كتب الحكام وحدهم!

سأله الناصر عن مقصده، فقال موفد الرمليين:

- الكتب تبلى، والمكتبات تحترق، والبشر يموتون، لكن التراث هو الأثر الوحيد الباقي لأي أمة.. اجعلوا العامة يحفظون التاريخ في صورة أناشيد جذابة، علموا الأطفال أن يستعملوا أسماء الملوك القدامى ومعاركهم في جدهم ولهوهم، استخدم موهبة سموك في تأليف مسرحية عن معركة التوحيد مثلًا، وليقم الجنود بتمثيلها على المسرح للناس، مُر فنانيك برسم أهم لمحات التاريخ.. المعرفة ليست مجرد كتب!

قاطع الملتقى وصول رسول من جعفر بن غالية يبلغ الملك بتعازيه، فرد الملك الرسالة بعتاب طويل عن وقوف جعفر على الحياد من التمرد.

وبعده بوقت قصير وصل رسول من الشريف الكامل وقد كتب رثاءً طويلًا للملكة التي دعمت الحركة الكاملية كثيرًا، ودعا الملك لتسليم الحكم لقادة التمرد، فأمر الناصر بضرب الرسول وإعادته لقطاع الكاملين على الفور.

اعتذرت نادين من الجميع، واستأذنت من الناصر حتى تتوجه لغرفة نومها، سألها ناصر أمام الملتقى عن الموعد الذي تريد التتويج فيه بعد إقامة منافسة خاصة بين التابعين، فقالت إنها ستفكر في الأمر لاحقًا، لم تعبأ بإحراجه أمام حاشيته.. عرفت من غالية أن هذا الملتقى عادةً ما ينتهي بفقرة غنائية، ولكن الملك منعها هذه المرة احترامًا لروح أمه.

صعدت درجات السلم الرخامية، متجهة نحو جناح الملك الناصر بالطابق الثالث، لم تستطع إخفاء إعجابها بتعامل المخلدين مع الحزن بهذا الشكل المستكين.. سمعت صوت خطوات تتبعها، نظرت خلفها لتجد إحدى الخادمات، كانت تعرفها شكلًا، دست الخادمة بين يدي رقعة جلدية مطوية جيدًا، حاولت نادين سؤالها عما تفعل لكن الخادمة ابتعدت سريعًا في خوف، انتظرت نادين حتى دخلت جناح الناصر، فتحت الرقعة لتجدها مكتوبة بالعربية وبخط ياسين.

«لا أعرف سبب تخلفك عن الرحيل، لكن يجب أن تعلمي الحقيقة، وقرري مصيرك بعدها كيفما تريدين.. لقد أخطأت في تقدير الأمر؛ فأنا لم أعثر على اكتشاف علمي كما كنت أظن، وإنما ما وجدناه هو مادة مظلمة لها كثافة عالية.. أظن أنها تسربت من مفاعل CERN، فهو المكان الوحيد الذي تتوافر فيه إمكانيات توليد مثل هذه المادة، لا أعلم إن كان تخميني حقيقيًا أم لا، ولا أعلم كيف وصلت هذه المادة إلى مصر.. لكن اليقين الثابت أننا انتقلنا لبعدٍ زماني ومكاني آخر.

للأسف نحن في عالم لا يمكن الرجوع منه، الأمر ليس بالسهولة التي نراها في الأفلام.. وحتى وإن وجدت طريقًا للعودة، فلن نجد عالمًا نعود إليه.. فإن لم تنتبه CERN لهذا التسريب لانتهى عالمنا الأصلي الذي رحلنا عنه خلال فترة قصيرة.. جميع من تشتاقين إليهم في عالمك

سيفنون بعد مدة وجيزة، لم أقصد أن أسبب لكي وللباقين أيًا من هذا.. لم أخطئ إلا حين كذبت عليك بوجود أمل في العودة.. أنا آسف».

أحست بدوار بعد قراءتها الرسالة، وتوقف عقلها عن التفكير.. لم تعرف ماذا تفعل ولا كيف تتصرف، لم تشعر بنفسها إلا وهي تتسلق فتحة التهوية كما فعلت بالأمس بنية الهروب، لكنها هذه المرة لم تضل طريقها، زحفت يسارًا حتى وصلت للغرفة المحرمة، وهبطت بهدوء.. وجدت نفس الرجل الذي وجدته بالأمس نائمًا.. كانت الغرفة فخمة مكتظة بالكتب وبعض الأدوات المعملية البسيطة. وكذلك أوانٍ بها مساحيق وأعشاب معينة.. ومرسوم على سقف الغرفة مشاهد كثيرة من معركة التوحيد.

تأملت نادين الرجل النائم على الفراش، كان قد جاوز الأربعين بقليل، لكنه لا يزال محتفظًا بقوته، وقد تزاحمت العضلات فوق ذراعه وكتفه.. أما شعره ولحيته المهذبة، فقد خالط بياضهما سواد بشكلٍ زاده جاذبية.

خلعت نادين ملابسها كاملةً ونامت إلى جواره، شعر بها فلم يبدُ عليه الدهشة من عودتها، وقال بهدوء:

- راهنت نفسي أن ما فعلته معك بالأمس غصبًا ستطلبينه اليوم بكامل إرادتك.

وضعت نادين سبابتها على فمه، وقالت وهي تستعيد فكرة حبسها نهائيًا في هذا العالم:

- لا أريد التفكير في أي شيء الآن.

مرر الرجل أطراف أصابعه بين خصلات شعرها، وتأمل جسدها ببطء، سألته وهي في حالة غائبة:

- ألم تخف من صراخي الأمس أثناء اعتدائك عليَّ؟

رد الرجل ضاحكًا:

- مقاومتك لم تكن قوةً رادعةً لي، بل كانت أقرب للتمنع الراغب.

سألت نادين بصوت مبحوح من البكاء:

- لماذا لم تقتلني بعد أن نلت مني، مثلما فعلت مع بقية المبهجات؟

رد الرجل بهدوء:

- لديك سر أعظم من سري.. صحيح أنني لا أعرفه، لكني أشعر به.. هو من أتى بك إلى هنا.

قالت نادين وهي تتأمل جسده باهتمام:

- أيوجد سر أعظم من كونك لا تزال حيًّا؟

- وما جدوى معرفة الناس بوجودي؟

ردت باستنكار وهي تتحسس شعر لحيته الذي شاب بعضه:

- أنت الأخ الأكبر للملك الناصر، والوريث الشرعي للحكم.. أتسألني عن جدوى الأمير يزن؟ أهم شخص في المملكة؟!

٢٢- رهان خاسر

حين أخبر خيري عامرة بخطته توقع أن يستغرق الأمر أسابيع، ولكن في يومين بالضبط تم الإعلان عن تغيير نشاط الحانة، وقد بارك شيخ الكاملين هذه الخطوة على مضض، وكذلك أرسل أحد شبابه لعقد قران خيري على عامرة، لم يدرِ هذا الشاب أنه لا يخط بينهما عقد زواج فقط، بل هو عقد شراكة تم إخفاء بنوده عن الجميع.

طلبت عامرة منه أن يقصر لحيته من أجل الزفاف، لكنه أحب لحيته الطويلة وشعره الأشعث، ظن أنهما يكسبانه هيبة تتناسب وهذا العصر.. وكان ظنه صحيحًا، فمنذ اللحظة الأولى له كمدير للمجلس الترفيهي أو المقهى الذي افتتحه مع عامرة، وقد اكتسب هيبة في أعين الجميع، حتى نسوا من كان ومن أين أتى.. كانت هيبته تغطي على هيبة سيدته الفعلية عامرة.

بدأ خيري يفكر في التخلي عن فكرة النزل، وتخصيص غرفه لإبهاج الأسياد ممن أتوا للعب القمار والتنافس في الحظ، فأحضر بعضًا من المبهجات السابقات، ومن نساء جعفر ابن غالية اللواتي تخلى عنهن، وجعل النوم معهن مقابل أجر، وكالعادة يحصل خيري نسبته.

كانت الأرباح مهولة منذ اليوم الأول، وقد أقبل العوام على الحكاء في المجلس، وأعجبتهم فكرة التجمع مقابل دفع ثمن زهيد وهو ثمن

المشروب.. وكذلك أقبل الأسياد على غرفة القمار التي خصصها لهم خيري سرًا.

خلال أيام أصبح خيري من أسياد النواقص، حتى وإن ظل من أدناهم وأقلهم شأنًا وكلمة.. وقد اكتظت خزينة عامرة بالعملات الفضية التي وضعتها تحت تصرف زوجها، والذي أثبت ذكاءه وقدرته في الإدارة، لم يدرِ خيري ماذا يفعل بكل هذه الأموال، جعل وجباته الثلاث لحمًا وخمرًا، كان يراهق بحماقة والأرباح تعوض خسارته، اعتاد تأجير العاهرات دون علم زوجته، حتى وإن لم يمسسهن، كان لديه شهوة جمة للإنفاق.. وبرغم هذا لم ينفد ماله.

عرف خيري مخدرًا جديدًا من أحد الأسياد، كان عبارة عن حب مطحون يشبه خرز الشاي، يُمضغ ببطء أو يتم غليه مع بعض المياه، لم يعرف خيري هذا الطعم من قبل، وإن كان تأثيره يشبه الأفيون.. فكان هذا المخدر يحصنه من الألم ويبقيه يقظًا طيلة الوقت.. أدمن هذا المخدر، وقد تعجب من سعره الزهيد.. وقد ردد في سره: «عمار يا مملكة المخلدين عمار».

وصلت أخبار عن مستشار الملك الجديد الذي رفع الضرائب على التجار والأمراء لأجل العامة، والذي أشار على الناصر أن يخصص مقعدًا في مجلس الحكم لأحد العوام.. خمّن أن هذا المستشار هو ياسين، ولم يهتم بالتحقق في الأمر.. لم يهتم بالعثور على ياسين كما فقد الشغف حتى بالعودة لعالمه الأصلي.. فقد أحب خيري هذا العالم، شعر بأنه مفصل على قدر احتياجاته تمامًا، هنا هو السيد.. وليس مجرد ناج كما توقع لرفاقه في هذه الرحلة الغريبة أن يكون هذا حالهم.

كما شهد قطاع النواقص ظهور بعض الجنود الأشداء من مملكة الرمليين، والذين عرضوا خدماتهم على التجار والوجهاء مقابل أجر متوسط، صحيح أن أحجامهم ضئيلة لا تقارن بجنود الملك الناصر ولا حراسه.. لكن التجار أقبلوا عليهم بغرض التفاخر.. قرر خيري أن يؤجر أربعة منهم، اثنان لحماية المجلس من العوام، واثنان لحماية صالة القمار.

اعتاد خيري أن يمر النهار بطيئًا عليه، كان يقضيه مرةً في رسم أوراق الكوتشينة وصناعتها مع أحد الحرفيين المختصين في صناعة الورق، ومرةً أخرى في قص بعض الأفلام أو الروايات التي قرأها في الماضي على الحكّاء حتى يسردها على العامة بطريقة تمثيلية، ومرة أخرى يجلس مع فرقة المعازف التي كانت تعمل مع وديدة، ويحاول تعلم العزف منهم على طبولهم المصنوعة من الجلد المدبوغ وأنواع معينة من الأخشاب.

كانت الليلة مختلفة بالنسبة له، حاول أن يعزف للمرة الأولى على الطبول، جرّب لحنًا معروفًا لأذنه، لكنه لم ينل إعجاب الناس، نظر لهم خيري نظرة صارمة فزيفوا إعجابهم باللحن.. قاطع عزفه اقتراب أحد العاملين منه في خوف، قال له خيري بصوتٍ عالٍ بعد أن سبه بأمه:

- ماذا تريد؟

همس العامل حتى لا يسمعه العوام:

- جعفر بن غالية أشهر سيفه في غرفة الرهان على عامرة ويريد استرداد الأموال التي خسرها.

طلب خيري من الحكاء أن يسرد على الناس قصة جديدة، وتوجه مسرعًا نحو غرفة القمار، كان الموقف عصيبًا.. فجعفر قد تخلى عن هدوئه الدائم، وقد أمسك بعامرة من شعرها مطالبًا إياها بإعادة أموال

القمار الجمة التي خسرها أمام عم راتب الذي لا ينقصه ثراءً.. دخل خيري وطلب من جعفر الهدوء، لكن الأخير سبه ونعته بـ«عديم الأصل».. قال خيري دون تفكير:

- عديم الأصل أفضل من عديم الأب.

ترك جعفر عامرة وأشهر سيفه في وجه خيري، كان هذا ما يريده خيري، استدعى حارسين من الجنود الرمليين ليتمكنا من السيطرة عليه، صاح فيهم أنه الحاكم، نادى حراسه لكنهم لم يسمعوه من صخب الحكاء.. طلب خيري من جعفر الالتزام بقوانين المكان أو الرحيل، فخرج جعفر غاضبًا متوعدًا خيري بإغلاق المكان وقتله.

لم تنم عامرة ليلتها من القلق على خيري، لكن الأخير طمأنها وأخبرها أن جعفر سيأتي في الليلة التالية ليلعب مرة أخرى.. لم تصدق عامرة بعد الأموال التي خسرها جعفر، لكنها لم تعرف بالضبط ما الذي يخطط له.

أما خيري فلم ينتظر انتصاف النهار، قام وتوجه إلى بيت جعفر دون حراسه وهناك أوقفه جنود الحراسة، ومنعوه من الدخول، لكنه أصر بقوة، وبعد فترة أذن له جعفر بالدخول.

كان بيت جعفر أقرب لقصر من طابق واحد، متصلًا بحديقة واسعة، وقد راعى جعفر تقليل الأثاث لتوفير مساحة كبيرة، وقد رسمت بعض اللوحات على الحوائط، وقد علم خيري فيما بعد أنه موهوب في الرسم.

جلس أمام جعفر الذي نهر خادمته حين عرضت على خيري أن يتناول مشروبًا معينًا.. كانت هذه المرة الأولى التي يرى خيري جعفر فيها بملابس البيت المريحة، وقد فك ضفائر شعره وتركه منسابًا خلف ظهره.

- سيدي جعفر، إن أجرم أحد أقاربك في حق العوام، وثار العوام لأجل تنفيذ قوانين القطاع.. هل ستسجنه لتمتص غضبهم أم ستتركه ينفذ بفعلته؟

- بدت الحيرة على قسمات جعفر..

- أجئت لتسألني عن طريقة إدارتي للقطاع؟

فقال خيري وهو يلمس أطراف لحيته الطويلة:

- لا.. جئت لأبرر ما فعلته مع سيدي بالأمس، لا يمكن الإخلال بقواعد المراهنة، فإن تجاوزنا القانون لأجلك مرة تجاوزناه لأجل البقية ألف مرة.

رد جعفر في غضب:

- لقد خسرت أكثر من نصف ثروتي للعم راتب! ألف عملة فضية!

أخرج خيري بعضًا من المخدر وطحن خرزه في فمه مستمتعًا بالتأثير اللحظي للمخدر وقال:

- سمعت أن لديك بيتًا صغيرًا في أطراف القطاع.

فهم جعفر أن خيري يلمح لبيع هذا البيت فقال في يأس:

- هذا البيت لن يغطي عُشر خسارتي.

رد خيري في مكر:

- وإن جعلته يغطي؟ كيف ستكافئني؟

لم يرد جعفر بن غالية، كان يعلم أن خيري ذكيًا منذ أن سمعه يوم مقتل الراقصة وديدة، وطلب منه أن يقول اقتراحه فأردف الأخير:

- ستبيع البيت لي بالسعر الذي يغطي خسارتك بالضبط.

قال جعفر مستنكرًا:

- لكن سعر البيت حوالي خمسين عملة فضية، ستخسر فيه.

قال خيري وهو ينتشي بالمخدر:

- وماذا إن أخبرتك أنني سأعرضه للبيع مقابل عملة واحدة؟!

ضحك جعفر وهو يشير للمخدر الذي تناثرت حبيباته على ملابس خيري:

- يبدو أن أثر المخدر على عقلك خطير!

رد خيري شارحًا فكرته:

- سأقوم بعمل مسابقة على البيت.. كل من يريد شراءه يدفع عملة فضية واحدة، ويكتب اسمه في ورقة مطوية في صندوق معدني كبير يتم تثبيته في السوق وحراسته بواسطة جنديين من الرمليين المأجورين حتى لا يضع أحد ورقتين.. وبعد أيام نحضر أحد المكفوفين ليختار ورقة واحدة من الصندوق لضمان النزاهة، ومن يتم اختياره يصبح المالك الجديد للبيت.

قال جعفر ساخرًا:

- وهل سيقبل أحد أن يخسر عملة فضية ليصبح مجرد احتمال بين مئات البشر غيره؟

- العوام سيجدونها فرصة لشراء بيت بعملة فضية واحدة لن تغير حياتهم، والأثرياء لن يشعروا بقيمة العملة.

بدا على جعفر الانبهار بالفكرة، وقال لخيري مقترحًا:

- من الممكن أن تجعل ثمن الورقة الواحدة في الصندوق عملة فضية، ويمكنك مضاعفة فرصك واحتمالاتك كلما دفعت أكثر.

رد خيري بهدوء وهو يهز رأسه يمينًا ويسارًا:

- لا أريد لتاجر أن يكسب هذه المرة، أريد أن يمتلك أحد الفقراء هذا البيت. لكن الربح سيكون أعلى إن أتحت الفرصة للتجار أن يشتروا أكثر من ورقة.

قال خيري وهو يمضغ كمية أخرى من المخدر:

- الربح ليس هدفي الأول في هذه الفكرة.. أريد ترسيخ مبدأ المقامرة لدى الجميع، أريد أن يرى العوام واحدًا منهم وهو يتملك بيتًا لحاكمهم، فيحلم الجميع أن يصيروا مثله.. فيدمن العوام الرهان والسعي وراء ضربة الحظ.. وحين نعرض بيتًا أكبر للبيع بنفس الطريقة ونطبق اقتراحك سيقبل عليه الجميع، العوام قبل التجار.

كاد جعفر أن يجادله في هذه النقطة، ولكن قاطعه وصول أحد جنود أمن المملكة قائلًا:

- سيدي الحاكم، وصلنا منذ قليل سنان سيوف شهير من قطاع الكاملين.. قال إن قاتل الراقصة وديدة أتاه بالخنجر الأسود منذ أيام وطلب منه أن يسن الخنجر ويجعله حادًا.

بدت الدهشة على جعفر، في حين سأل خيري الحارس في مكر:

- ومن اتضح أنه القاتل؟

نظر الحارس من أعلى لأسفل نحو خيري باحتقار، ورد الحارس حديثه ناظرًا لجعفر:

- الساقي الأخرس الذي يعمل لدى عامرة.. لقد أقسم السنان على ذلك، ولا مصلحة له في ذلك.

طلب جعفر من الحارس في هدوء أن يرسل الساقي لسجن التابعين في قطاع الحكم، وأضاف خيري:

- خذوا حذركم، فهو جندي سابق من حراس الملك.

انصرف الحارس، بدأ خيري يضحك وهو يراقب انفعالات جعفر الذي تصبب عرقًا، وقال:

- لا تقلق سأضيف حساب رشوة السنان حتى يشهد زورًا إلى ثمن البيت.. أعلم أنك من قتلت وديدة، ولا أهتم بدافع القتل، قد يكون الحب أو الغيرة أو خلاف مالي، أو أنها قد عرفت سرًا لا أريد أن أعرفه.

قاطعه جعفر مفكرًا:

- لماذا الساقي؟

رد خيري ببساطة:

- لأنه يظنني القاتل، وكان ينوي قتلي..

أكمل خيري حديثه هامسًا:

- كما أردت أن أقدم عربون صداقة لحليفي الجديد.

ابتسم جعفر وقال لخيري بهدوء:

- قتلتها لأنها عرفت أبي الحقيقي.

٢٣- سيد الزهاد

لم يحتج الأمر من ياقوت شرحًا كثيرًا، خرج من قصر الأسلاف ليجد عامة الزهاد في انتظاره، أدركوا أنه نال رضا الأسلاف عنه، لم يعرف إن كانوا على دراية بأمر «الحارس»، الذي تحدث معه أم لا.. لكنهم أدركوا من هذه اللحظة أنه سيدهم، وطاعته أمر لا مهرب منه.

كان الأمر الأول من ياقوت للزهاد عسيرًا على عقيدتهم، كان يريد اختبار طاعتهم؛ فأمرهم ببناء بيت من جزوع النخيل والأشجار المنتشر في الواحة، كان قطع الأشجار بالنسبة للزهاد أقرب للجريمة، من يفعلها يُطرَد من القطاع.. لكن لأجل سيدهم الجديد فعلوا.

لم يتوقع ياقوت أن ينتهي البناء خلال يومين، أقام خلالهما في خيمة الملك العطاء.. اندهش العطاء من كون ياقوت قد عرف عنه كل ماضيه، وكأنه رأى الحياة بعينيه وعرف تفاصيل لم يروها العطاء لبشر من قبل، كيوم أن قتل التابعين وهرب من قبضة والده الملك الموحد وقائده سليمان الراشد، كما فزع حين وجد ياقوت يعرف خفايا الزهاد ويملي عليهم تركيبة من الأعشاب يحرقونها في منزله الجديد لتبخيره.

كان أول ما فعله حين دخل بيته أن نقش رموزًا معينة لم يعلم كيف فكر فيها، كأن هناك أمرًا مباشرًا لعقله بالتنفيذ، كانت يده مجرد منفذ

للأمر دون تفكير.. أهو أمر من عقله، أم هو مسٌ من الجنون، أم هي أوامر «الحارس» لم يعرف.

عرض الزهاد على ياقوت أن يزوجوه إحدى بناتهم، لكن ياقوت كان يدرك أن هناك حاجزًا بينه وبين النساء من زمن بعيد، فقد تعطلت قدرته باكرًا، وفقد الإحساس كل شيء.. لم يكن مستاءً ولا مشتاقًا لهن، فاكتفى بطلب خادمة تنظف مسكنه وملابسه صباحًا.

كان ياقوت قد نسى وعد «الحارس» له بأن يرى المستقبل ويطلع على القدر، حتى جاءته رؤياه الأولى قبل أن ينام في بيته الجديد.. غاب عن العالم المحيط به لثوانٍ معدودات، وقد تحولت الرؤيا أمامه للون الأبيض تتخللها مشاهد سريعة.. رأى أحد دسائس الكاملين ممن يعيشون وسط الزهاد دون علمهم، وقد اندمج تمامًا مع القطاع مثلما فعل الملك العطاء من قبل، شاهد هذا الرجل وهو يقتحم بيته بعد ساعات من الآن، وهنا انقطعت الرؤيا.. استعاد ياقوت تحذير الحارس بخصوص تغيير القدر.. فأدرك أنه لن يستطيع منع هذا الجاسوس من دخول البيت، ولكن يجب أن يتعامل معه بنفسه دون معونة من الزهاد.

فكر في التحايل على الرؤيةا وطلب أحد شباب الزهاد بالبيات معه، لكنه تراجع عن هذه الفكرة حتى لا يخل بعهده مع «الحارس»، الذي وعده بسيد الزهاد طالما أنه ملتزم بقواعده، وأنذره من مصير الإخلال بهذا الشرط.

لم يستطع ياقوت النوم في هذه الليلة التي مرت ساعاتها قرونًا، سهر ياقوت ليلته يضع خطة المرحلة المقبلة للزهاد، ويجهز قرارات تؤكد تسيده عليهم.. لم يكن أحدهم ليعترض عليه، خاصةً أنهم قد انتظروا لعقود

حتى جاءتهم بشارة السيد الجديد، وباركه الملك العطاء كونه أكبرهم سنًا.

سمع ياقوت صوت خطوات خارج بيته، كانت خيم الزهاد بعيدة عن الموقع الذي اختاره للبيت، فقد آثر الهدوء على الأمان.. دخل جاسوس الكاملين بيت ياقوت الجديد، توجه نحو غرفة نوم ياقوت المضاءة بشمعتين، سمع ياقوت صوت السيف وهو يخرج من غمده، انقض الجاسوس على الفراش لكنه صعق حين وجد نفسه يطعن القماش وليس الجسد، لم تطل دهشته فقد تحولت ذعرًا حين شعر بقبضة سمراء نحيلة تحكم الإمساك برقبته، حاول المقاومة لكن ياقوت كان أقوى منه، كان الجاسوس قصير القامة ضعيف البنية، وقد اعتمد على مفاجأة سيد الزهاد بغدره.

غاب الجاسوس عن الوعي بعد أن نجح ياقوت في خنقه دون قتله، خرج من بيته وأمر في الزهاد أن يجتمعوا في ساحة بيته، نفذ أهل القطاع أمره، نهضوا من نومهم لا يفهمون ما حدث، أخرج ياقوت الجاسوس الغائب عن الوعي أمامهم، قام ياقوت بجر الجاسوس الغائب عن الوعي وألقاه أمامهم، أمسك ياقوت بالجاسوس، وتناول السيف الذي كان يحمله الجاسوس، وضع نصل السيف على رقبته، وقال للزهاد بلهجة خطابية مستعرضة:

- الآن بيدي أن أصرع هذا الجاسوس الذي حاول النيل من سدكم.

رد الملك العطاء بلسان العامة:

- دعنا نعيده إلى سيده الكامل، ليعلم أن الزهاد لا يبدأون العداء.

أجمع الزهاد على رأي الملك العطاء، لكن ياقوت ضغط بسن السلاح على رقبة الجاسوس الذي نظر للجميع مستغيثًا من ذلك العجوز الذي يظهر قوة لا تليق عليه، قال ياقوت:

- حركة واحدة، زلة من يدي على رقبته وتنهي حياته، ستنقطع سيرته كأي جاسوس، مجرد رجل لم يرَ الكاملون منه نفعًا فألقوه عندنا، فإن أتى لهم بنبأ كان خيرًا، وإن كشفتموه فلا عدوان إلا عليه!

لم يدرِ ياقوت إن كان حديثه نابعًا من قناعة شخصية أم بوحي من «الحارس»، لم يكن قد وصل بعد لحس التمييز بين ما يريده وما يُفرض عليه.

اختلطت أصوات الزهاد الذين يرفضون قتل الجاسوس. واقترح أحدهم نفيه أو أسره كعقاب ليس أكثر، أومأ ياقوت برأسه موافقًا.. لكنه فاجأ جميع الزهاد حين أمسك الجاسوس من شعره، وسحب السيف على رقبة الجاسوس في حركة خاطفة، حتى اختلطت جلابيب الزهاد الخضراء بالدماء التي تناثرت بعنف، نظر ياقوت نحو الجاسوس نظرة أخيرة، لمح عينين جاحظتين من الدهشة.

ألقى ياقوت بجسد الجاسوس بعيدًا، ثم انحنى يمسح يده والسيف من الدماء في جلباب الجاسوس الذي ارتدى كما الزهاد، نهض ياقوت مكملًا حديثه بنبرة حكيمة، كأنه لم يقتل روحًا للمرة الأولى منذ قرون في قطاع الزهاد:

- أعطيتم للمخلدين فهمًا خاطئًا عنا.. ففهموا صمتنا ضعفًا، وزهدنا خنوعًا، وابتعادنا هروبًا.. الأسلاف ما كانوا ليسعدوا إذا رأوكم هكذا.. يجب أن نثبت قوتنا أولًا، وحينها يكون الزهد اختيارًا.

كان الزهاد تحت وطأة الصدمة في سيدهم الجديد، تعجبوا كيف ينطق هذا الرجل بوحي من الأسلاف؟ هل الأسلاف كانوا بهذه القسوة؟ هل الزهد يجب أن يأتي بعد قوة، أم أنه يستقيم منفردًا كما كانوا يفعلون.. شعر أغلبهم بالشك فيما كانوا يؤمنون فيه طيلة حيواتهم، ولكن الجميع تيقن أنهم سيعيشون أيامًا مختلفًا عما رأوا من قبل.

لم يعطهم ياقوت وقتًا للتفكير، مد يده نحو سلسلته الفضية التي كان يرتديها منذ سنين حول رقبته، فخلعها وألقاها لأحد شباب الزهاد الأشداء قائلًا:

- خذ جملًا وسِر الآن لقطاع الكاملين، ستتوجه لتاجر الحلي وتخبره بأن سيد الزهاد يريد بيع هذه السلسلة بأغلى ثمن.

قاطعه الملك العطاء بصوت خفيض:

- لقد حل الظلام، سيكون السفر في الصحراء عسيرًا عليه، وقد تُسرَق منه السلسلة.

رد ياقوت بحزم لم يعتده العطاء منه:

- لن يجرؤ قاطع طريق على اعتراضه.. هذا أمر.

أكمل حديثه للشاب:

- لا تقضِ ليلتك مع الكاملين، اطعم الجمل واذهب للنواقص.. ستشتري اثنين من الجنود الرمليين.

أومأ الشاب برأسه في طاعة، وتحرك سريعًا لفك لجام أحد الجمال.. نظر ياقوت نحو الزهاد وقال:

- هذان الجنديان سيقومان بتعليمكم القتال، الزاهد سيكون زاهدًا في الضعف وقلة الحيلة، جائعًا للقوة، نهمًا للسيطرة.. من اليوم كل زاهد هو جندي يضحي بحياته لأجل هذا القطاع.

بدا على بعض الزهاد ثقل حديث ياقوت، لكن المعظم نظروا له في استنكار، فأكمل حديثه بصوت عالٍ:

- سنشيد سورًا نحيط به القطاع وسورًا آخر للمدافن.. سنحصن هذا السور بسياج لا يخترقه المتمردون من الكاملين ولا النواقص، ولقد أرسلت رسولًا يبلغ سليمان الراشد برفض دعوته للانقلاب، فنحن لا نُؤمر إلا من الملك الناصر، وإن خالف الأسلاف خالفناه!

كان اليوم طويلًا على ياقوت، فكر في الاغتسال من دماء الجاسوس التي لطخته، لكنه تراجع، فجسده الواهن لم يعد قادرًا على الاغتسال بالمياه الباردة في هذا الوقت، أخرج كسرة المرآة التي أخذها يوم أن دخل قصر الأسلاف، نظر فيها مليًا، يتأمل انعكاسه، على أمل أن يتصرف الانعكاس بإرادته المكتملة ليعلن وصول الحارس.. حتى يأس وقرر النوم.

بمجرد أن وضع ياقوت رأسه على الوسادة القطنية حتى كانت هناك رؤيا تنتظره، رأى جنودًا كثر متجمعين على حدود قطاع الزهاد.. وقد وقف سليمان الراشد يخطب فيهم قائلًا:

- أنتم الفرقة المكلفة بشرف مداهمة قطاع الزهاد، فهم الآن بلا سلاح ولا جند.. سنحتل القطاع ونجعله مركزًا لجيش التمرد.. فلقد رفضوا دخولنا القطاع لدعوة أهله، واحتقروا ثورتنا.

نظر سليمان الراشد نحو جنوده الذين تجاوز عددهم المئة جندي من ضخام الجثة:

- اقتلوا من يعترضكم من الزهاد، ولا تعودوا لي إلا برأس سيدهم الجديد.

٢٤- رجل البيت

استرد بركة جزءًا من وعيه وسط العراك مع الشاب الذي حاول خطف بهيرة الابنة.. كان بركة لا يزال متشبثًا بقدمه، وقد غرق في دمائه.. لو كان الشاب يريد له الأذى لما تردد في قتله، وبركة لن يتركه يفلت بالطفلة.. ظلت الأم تصرخ حتى أتى شباب الكاملين فأخذوا الشاب المختطف دون توضيح مصيره؛ عرف بركة فيما بعد أن هذا الشاب قد خطف أكثر من طفل وقتلهم بعد اغتصابهم، فهو مهووس بالأطفال.. لكن شباب الكاملين لم ينطقوا بحرفٍ واحد من هذا مع بركة ولا زوجته، فهما مازالا من المغضوب عليهم.. فقط رحلوا في صمت.

ركضت بهيرة في لهفة نحو ابنتها واحتضنتها بحب، ثم نهضت لتسند بركة داخل البيت، ألقت على رأسه المياه.. وبدأت تضمد جراحه السطحية التي أسالت الدم من جمجمته، أعطته بهيرة خلطة عشبية وطلبت منه تناولها دون مياه.. وحين فعل شعر باختفاء الألم، خمن أن هذا العشب من المخدرات، لكنه لم يعبأ سوى باختفاء آلامه التي لم يشعر بها ولا بجسده من الأساس وانهار نائمًا بعد يوم طويل.

حلم بركة في هذا اليوم بحادثة الاغتصاب التي حضرها ياقوت تتكرر.. لكنه هذه المرة كان أكثر شجاعة، وقد واجه الفتية ممن حاولوا

التحرش به.. ولكن فجأة تحول الحلم ليجد نفسه واقفًا خلف السور بجوار السنان، ويقلد عادته الغريبة بالضبط.

نهض بركة شاعرًا بالاشمئزاز مما رأى، كان تأثير العشب قويًا عليه.. شعر بالذنب مما رأى في الحلم.. نظر إلى جواره فوجد الطفلة بهيرة ساهرة، فاعتدل وسألها إن سمعته يقول شيئًا أثناء النوم، فمازحته قائلة:

- أنا لا أفهم حديثك وأنت مستيقظ.. فكيف أفهمه وأنت تحلم؟

ضحك بركة واحتضنها، ربتت الطفلة دون قصد على القماش الذي يربط به رأسه المتألمة فتأوه بركة بصوت خفيض، وقال لها إنه سيروي لها قصته مع أبيه ياقوت.

سألته الطفلة ببراءة:

- إذا كنت أنت أبي، فهل ياقوت هو جدي؟

ضحك بركة في هدوء لجمال الفكرة، بدأ يسرد على الطفلة قصة من خياله عن مدى محبة ياقوت له وتقبله لشكله وهيئته وسط الجميع.. سألت الفتاة ببراءة عن العيب في هيئته، فهي تراه جميلًا، فرد بركة أن ياقوت كذلك كان يراه جميلًا، وأنه فعل مثل كل أب، فقد أوصل له شعور أنه أفضل ابن في العالم، وأن سعادته تكفيه.. فلتت بعض الدموع من عيني بركة، فهذا عكس الحقيقة، لكنه تمنى حدوثه.. لم يعرف كيف كان سيغير هذا إن عاد به الزمن.. لكنه كان سيحاول أكثر أن يجعل والده يحبه.. احتضنت الطفلة بركة في هدوء وقالت له:

- أنت تجعلني أشعر بهذا.

قال بركة لبهيرة بلهجته الطفولية:

- سنلعب لعبة سويًا.. لينظر كلانا نحو الآخر دون أن يبعد عينيه، ومن يضحك أولًا يخسر.

ضحك بركة مع بهيرة الطفلة، كما لم يضحك في حياته، قلد لها أصوات الحيوانات والطيور، قاطع جلوسه مع طفلته صوت خطوات بهيرة الأم، ظن أنها ستنهر الابنة على جلوسها مع بركة، لكنه وجدها مبتسمة.. طلبت من ابنتها بهدوء أن تنام في الصالة هذا اليوم، وأمسكت بيد بركة الذي رافقها لغرفتها، وعلى ضوء الشموع وجدها تكشف نفسها أمامه، كان شعورًا غريبًا يدركه للمرة الأولى.. أدرك أن بداخله رجلًا حقيقيًا.. لم يفهم ماذا عليه أن يفعل، أرشدته بهيرة بهدوء، شعر بركة أنها لا تشتهيه، فقط تريد مكافأته.. وقد فعلت.

فكر بركة في أن يحتضنها حتى يناما، لكن خلال ثوانٍ كان قد سقط في نوم عميق، وكان حلمه هذه المرة أنه يلعب بجوار الأهرامات مع الطفلة، وبهيرة تعد لهما الطعام، وتقول له إن هذه المرة الأولى التي سيأكل فيها ياقوت من يدها ويجب أن يحب زوجة ابنه.

استيقظ بركة وهو مسحور بما رأى في الحلم، وكان هناك واقعٌ ينتظره، عادت بهيرة الأم لسيرتها الأولى.

- ألن تنزل لحانوت السنان للعمل؟ من سيطعمنا إن جلست هنا؟!

خاف بركة من غضبها إن صارحها بما حدث، قام ونزل إلى الشارع، بعد أن حصل على عناق طويل من الطفلة التي شكرته مجددًا على إنقاذها.. لاحظ أن مضايقات الناس له قد اختفت تمامًا، بل على العكس، أعطاه أحد المارة رغيف خبزٍ كاملًا، لم يفهم سر هذا التعامل المغاير، وقد حدث المثل مع بهيرة في بيتها حين أتتها بعض الجارات بأشكال من حلوى، أرجعت بهيرة هذا التغير لما سمعه الناس عن الحادثة

وعن بسالة بركة، وقد أدركوا أن هذه الأسرة ليست بالسوء الذي صدره لهم شيخ الكاملين.

مشي هائمًا وترك قدميه تقودانه، لا يعرف إلى أين، فقط يمشي ويمشي، كان الصداع يتملك رأسه بسبب الضرب، وبين الحين والحين يشعر بأن النزيف قد عاوده، يحكم الرباط حول رأسه ويكمل، قادته قدماه نحو بيت الكاملين، لاحظ حركة غير طبيعية وقد التف الناس أمام ساحة البيت، كان شيخ الكاملين قد وقف أعلى السلالم المؤدية للبيت من الداخل، وراح يخطب في الجموع.. كان بجواره رجل عجوز يرتدي ملابس حربية، لم يعرفه بركة إلا حين تحدث شيخ الكاملين بلهجة رقيقة لم يعهدها.

طائفة الكاملين حديثي إلى قلوبكم موجهًا.. فقد حان ميعاد الحسم، طالما عانيتم من بطش الملك الموحد ونسله الذي ينتهي عند الناصر.. نسل الموحد الذي أعلن إيمانه بالعقيدة الكاملة منظرًا دون تطبيق، واسمًا بلا فعل، ورداءً بلا خيط.

أشار الشيخ نحو العجوز الواقف إلى جواره وقال:

- كنا مستضعفين من قبل، لا نستطيع الجهر بما نرى.. نرى الفجور ولا نغير فيه.. حتى زارنا القائد سليمان الراشد بدعوته الجديدة.. هذا الباسل الذي عزل نفسه بنفسه من قيادة جيش الناصر، وأخذ معه أكثر من ربع جنود الجيش، وجاء إلينا محتميًا.. هذا الكامل من نسل الكاملين جاء معنا لنعلن الثورة الكاملة.. ولنعلن قيام مملكتنا نحن، جميعًا تحت قيادة الراشد اسمًا وفعلًا.

بدا على شباب الكاملين الحماس والاستعداد، كما هتفت جموع الناس..

تحدث القائد سليمان الراشد بصوت رخيم، كانت هيبته كافية لإخراس الجميع تمامًا دون أن يقوم بحركة مسبقة ليطلب منهم الهدوء:

- حان وقت الرحيل، تعلمون جميعًا تاريخ القائد سليمان الراشد وما فعله من أجل هذه المملكة.. وليشهد الجميع أنني لا أحمل الضغينة للملك الناصر.. ولكن العقيدة كاملة في خطر، فقد زادت الضرائب وكسدت التجارة، كما زاد امتهان البشر.

بدأ الناس ينتبهون لحديث القائد، فأردف بعد أن زاد من قوة نبرته:

- لا مسارح لذوي الإعاقة بعد هذه اللحظة، لا تابعين، ولا مبهجات، لا فجور من أي نوع.. من اليوم سينتهي قطاع الكاملين، سنتمرد كما لم نفعل من قبل.. ونعلن مملكة الكاملين.

هتفت الجموع في حماس تأييدًا لما عرضه القائد سليمان الراشد، الذي أفسح المجال لشيخ الكاملين مرة أخرى:

- سنضطر لتكوين تحالف مع الزهاد والنواقص..

بدا على الجميع الاستياء وعلت صيحات الاستنكار مما قاله الشيخ الذي أكمل:

- تحالف مؤقت حتى نسيطر على الحكم برفقة قائدنا الجديد.

سأل أحد المتجمهرين بصوت عالٍ:

- وهل يعلم الشريف الكامل بهذا الأمر؟

كاد الشيخ أن يرد لكن القائد سليمان الراشد أشار للشيخ حتى يرد هو:

- طالما الشيخ قد وافق، فالشريف الكامل موافق بالطبع.. وهو يدعوكم للتمرد.

قال نفس السائل:

- ولكن الشيخ قد نقل عنه منذ سنوات مباركته الكاملة للملك الفريد والد الناصر!

هنا تدخل الشيخ ورد بفصاحة:

- الظروف تتغير، الآن لدينا فرصة للتمرد الكامل على الناصر وحاشيته.. وتحرير التابعين جميعًا من قبضته، هل يقبل أحدكم أن يصارع في ساحة قتال للترفيه عن الحاشية!

كاد الرجل أن يسأل مرة أخرى، لكن صياح شباب الكاملين طغى على صوته، وقد هتفوا جميعًا للتمرد وأهدافه السامية.

أنهى الشيخ تجمعهم قائلًا:

- ستكون السيطرة على المملكة مجرد بداية، هي ليست غاية، وإنما غايتنا هي حكم جميع القارات المحيطة بنا!

علا الهتاف مرة أخرى، ورحل بركة دون أن يفهم معظم ما قيل.. تجول بركة هائمًا بين البيوت الطينية، وكلما عرض على أحدهم زراعة أرضه أو مساعدته في حرفة اعتذر له رب العمل بشيء من التقدير، فالشيخ الآن في حالة حشد للجميع تحت راية الكاملين، والخروج عن قوانين الشيخ في هذا الوقت ستعتبر خيانة، وليست مجرد عصيانًا.

لمح بركة جماعة من الكهول فارعي القامة يفترشون إحدى النواصي، عرف أنهم يعرضون عافيتهم بالأجرة اليومية لمن يريد هدم حائط أو

إقامة بناء.. جلس وسطهم فسخروا منه، فلا صاحب عمل سيستعين بهذا البدن الضعيف للقيام بعمل يحتاج لمشقة.

جاء مصباح المزارع، كان يريد من يساعده في نقل المياه، نظر لبركة من أعلى إلى أسفل وتعمد الضغط على كلماته وهو يقول:

- أريد رجلًا حقيقيًا لإنجاز العمل، لا أزواج عاهرات ولا خلافه!

شعر الرجال بالضيق من أجل بركة، خاصةً بعد أن علموا ما فعل، رفض الجميع الذهاب مع مصباح.. لكنه حين رفع الأجر تهافتوا على من يرافقه فاختار أشدهم وذهب معه.

سمع بركة أحد الرجال المفترشين الأرض يحسد السنان على حانوته الذي قد امتلأ بجنود الناصر من جديد بعد أن تعلم طريقة جديدة لسن السيوف، وأضاف آخر أنه سيعمل الآن مع الطرفين، كأي تاجر يستفيد من كلا الطرفين ولا يهمه الأرواح التي تتساقط.

شعر بركة أنه أصغر من كل هذه الأحداث، تمرد وحروب وتجارة بالبشر.. ذكر رجل آخر عادة السنان في إفراغ شهوته أثناء العمل، ضحك بركة ومد كفه لصاحب المزحة كي يصافحه، لم يفهم صاحب المزحة ما يريده بركة، لكنه نظر لرقبة بركة في ذهول وقال لبركة:

- ما الذي ترتديه في رقبتك؟

أخرج بركة بحرص السلسلة الفضية المعلقة في رقبته، كانت هذه السلسلة ميراثه الوحيد عن والدته، وقد ارتداها تقليدًا لياقوت الذي يرتدي سلسلة مماثلة.. فكر بالأمس في أن يهديها لبهيرة التي لم تلحظه، أو لاحظته ولم تفهم قيمته بالنسبة له.

- اذهب بهذه السلسلة لتاجر الزينة، سوف يشتريها بعملات كثيرة.. لن تباع بأقل من عشر عملات فضية.. ستغنيك عن العمل لشهور!

شعر بركة بالحيرة، لم يرد التفريط في ذكراه الوحيدة عن أمه، لكن في نفس الوقت لم يقبل أن يخسر حاضره.. سأل عن مكان حانوت الزينة وتوجه له بخطوات مسرعة.

كان الحانوت خاليًا من الزبائن، ذهل بركة من البراويز المعلقة على الحوائط، وكذلك الحلى النسائية.. كان صاحب المتجر رجل مسن يتحدث بصعوبة.. استنتج من اللحظة الأولى أن بركة ليس زبونًا، فسأله عما يريد بيعه، أخرج بركة السلسلة ومسحها في جلبابه قبل أن يناولها للعجوز.. في البداية نظر لها العجوز في ملل، ثم تحولت نظراته، وقد أعجب بنقش السلسلة ونهايتها التي كانت على شكل عين.. سأل بركة عن المبلغ الذي يريده في هذه السلسلة، فقال بركة في مكر أنه لن يقبل بأقل من عشرين عملة فضية، فوافق المسن بسهولة.. شعر بركة أنه قد تسرع في عرض هذا المبلغ.. فطلب أن يحصل على عقد بسيط الصنع ليهادي به زوجته، فوافق التاجر.. كان التاجر متأكدًا أن الأميرة دانية سوف تشتري هذه السلسلة بأضعاف ما دفعه لبركة، فهي دائمًا ما ترسل له خادمتها لقطاع الكاملين خصيصًا لتبتاع لها الزينة.

- هل تعرف سيد الزهاد؟

بدا على بركة عدم الفهم، فأخرج التاجر سلسلة أخرى ولوح بها أمام شارحًا:

- لقد أرسل سيد قطاع الزهاد أحد تابعيه ليبيع لنا سلسلة مشابهة للتي عرضتها علي.. هل سرقتها منه؟

نظر بركة بدهشة نحو السلسلة، كانت تخص والده، وقد اقتسمها مع والدته يوم زواجهما.. خمن أن أحدًا قد سرقها أثناء الدفن، لكنه طلب من التاجر أن يحدثه عن هذا الزعيم، فقال التاجر:

- لا أعرف عنه سوى أنه قد وصل لقطاع الزهاد منذ أيام، كانوا يظنون أنه ميت في البداية، لكنه نهض قبل دفنه...

لم ينتظر بركة ليسمع باقي القصة.. تناول العملات والسلسلة الصغيرة في كيس قماشي وركض سريعًا عائدًا إلى البيت. كان اليوم لا يزال في بدايته لكن بركة صمم على العودة.. يجب أن تعلم بهيره أن والده لا يزال حيًا، وكذلك أن أثر أمه في عالمه الأصلي هو كنز في عالمه الجديد.

طرق بركة الباب، ففتحت له بهيرة الطفلة، احتضنها وهو يداعبها، لاحظ عبوسها الشديد واحمرار عينيها بكاءً، سألها عما ألم بها.. فأشارت نحو غرفة النوم.. ركض بركة مسرعًا، فتح باب الغرفة الخشبي في عنف ليجد أمامه بهيرة عارية تمامًا أسفل جسد آخر يعرفه جيدًا. السنان.. كانت تقول له نفس الكلام الذي قالته لبركة بالأمس، وتطلق نفس الأصوات.

هي لحظة توقف فيها الزمن، وكأنها لوحة لفنان، الطفلة في الخلفية تصرخ باكيةً، والسنان ينظر نحو بركة ساخرًا، وبهيرة الأم تنظر لبركة في خوف وندم.. وقد انعكست أشعة الشمس على الجسد.

سقط كيس العملات من يد بركة، لم يشعر بنفسه إلا وهو يسحب سيف السنان الملقى على الأرض بين ملابسه، كانت هذه المرة الأولى التي ترى بهيرة هذه النظرة على وجه بركة، شعر أن روح «ياقوت» القاسية

قد تجسدت بداخله، لكنها هذه المرة قادرة على قتل من تحب.. لم يشعر «بركة» بثقل السيف هذه المرة، رفعه عاليًا في وجه بهيرة ورفيقها السنان، عازمًا قتلهما.

٢٥- الأثر

صعد ياسين متوجهًا نحو جناحه، لم يعرف رد فعل نادين على الخطاب الذي أرسله إليها ليواجهها بالحقيقة، فليس هناك مخرج أو رجوع من هذا العالم، ألقى بجسده على فراش القائد، شعر براحة عظيمة في فقرات ظهره التي صحا الألم بها منذ أن وصل المملكة.. سمع طرقًا هامسًا على باب الجناح، ظن أنها نادين، لعن غباءها في سره، وتوجه ليفتح الباب، لكنه صُدِم حين وجد أمامه غالية، والتي دفعته ودخلت، همست فيه بصرامة:

- أغلق الباب.. لن تحب أن يراني أحد معك.

نفذ ياسين أمرها، استدار ليجدها قد خلعت ثوبها الطويل، وقالت في إشارة صريحة:

- لقد كبرت على أن أصير مبهجة للملك، لكنني لم أكبر على إبهاج مستشاره.

شعر بحيرة، كانت هذه هي المرة الأولى التي تعرض فيها إحداهن نفسها عليه، يعلم أنه ليس وسيمًا ومظهره لا يعد بتجربة جسدية استثنائية، لكنه اكتسب مهابة في هذا العالم تجعله في غنى عن التفاخر بفحولته.. كان على يقين أن إعجابها بذكائه حقيقي، وربما ذكرها بأحد

الأمراء ممن عرفتهم في السابق.. كان يردد دائمًا أنه يرفض فعل هذا دون زواج، لكن الآن أدرك أنه لم يُختبَر، وأن السبب الحقيقي لعفته أن والده لم يترك له مجالًا للفعل.

تأمل جسدها البرونزي المشوب بسمرة خفيفة زادته ألقا، تصور أن لبشرتها طعمًا مختلفًا عن النساء، تخيل مذاقها، كان فضوله تجاهها مساويًا لشهوته، أراد أن يعرف منها عن أهواء الملك الفريد في الفراش، وعن الملكة مهدية، كما طمح لمعرفة والد جعفر الحقيقي، لكن شهوته غلبت.

صمتت غالية تمامًا، وقد تركت جسدها يأتي به ذليلًا، اقترب منها، تلاقت الأنفاس وخفقات القلوب، وحين هم بها طرق باب ياسين للمرة الثانية.

طلب من غالية الاختفاء خلف الستائر، ذهب ليفتح الباب ليجد أمامه أحد الحرس يستدعيه على عجل لمقابلة الملك، كانت المرة الأولى التي يستدعيه فيها الملك، وليس في قاعة الحكم، بل في جناح نومه.

تحرك ياسين على عجل، كانت الحركة في القصر غير طبيعية، الحراس يفتشون كل الغرف كأنما يبحثون عن غرض مهم يخص الملك..

- لقد اختفت نادين.. ماذا سنفعل!

بدا على ياسين الفزع مما قاله الملك الناصر، سأله متى آخر مرة رآها، فسرد عليه الناصر ما حدث خلال الملتقى، وأن الحراس رأوها تدخل الجناح، ولم يرها أحد تغادره، خمن ياسين أنها قد هربت عبر فتحات التهوية الواسعة، لكنه لم يعلن هذا أمام الملك.

حاول أن يطمئن الملك، وأخبره باحتمالية خوفها من الزواج منه، أو عزوفها عن أعباء الحكم، شدد ياسين على الملك ألا يخبر أحدًا من حاشيته باختفائها، وأن يشيع بين الحراس أنها سافرت لأقاربها في قطاع الكاملين.. وأنها تركت له رسالة بذلك.

استدعى ياسين بعضًا من بصاصيه الذين اصطفاهم من جنود الجيش وتوسم فيهم الدهاء.. أرسلهم ليجوبوا قطاع الحكم وبقية القطاعات بحثًا عن نادين، كما أرساهم سرًا بالبحث عن أشخاص بمواصفات خيري وبركة وياقوت كذلك.. كان لديه فضول لمعرفة أماكنهم، لكن القلق سيطر عليه أكثر بخصوص نادين.. كان على يقين من عودتها، هي فقط مصدومة بسبب الخبر الذي تلقته، لكنها لن تضحي بمكانتها في هذا العالم مهما كلفها الأمر.

طلب الملك الناصر من ياسين التوجه معه لقاعة الحكم، تعجب ياسين من تأخر الوقت، لكنه وافق حتى يلهي الملك عن فاجعة هرب نادين.. قال الملك متهكمًا:

- بلغني مرسال أن الأمير أنسي قد نجح في حملته على فرقة المتمردين المنتشرة على الحدود.

رد ياسين باستنكار:

- لم نرسل معه سوى عشرين فارسًا!

- أنت لم تعرف أنسي بعد.

رد ياسين في مكر:

- لكنني عرفت زوجته.

سأل الملك في دهشة:

- الأميرة دانية.. ما لها؟

رد ياسين وهو يتحرك في قاعة الحكم متأملًا في لوحات تصور معركة التوحيد:

- دانية هي الجاسوس الذي تبحث عنه في قصرك، هي من سربت خبر وفاة الملك الفريد للعامة.

نهض الملك من مكانه في قلق وسأل ياسين:

- كيف عرفت؟

رد ياسين بهدوء:

- الخادمات لا تتوقفن عن الحديث، بدأت أتحرى عن مصدر انتشار الشائعة حتى وصلت لدانية.. سألتها أين كانت يوم وفاة الملك فأخبرتني بعد تفكير أنها شعرت بالإعياء، ولم تشأ تشتيت طبيب الملك غادرت القصر لتتوجه إلى طبيب شاب مشهور في القطاع.

- لكن دانية تتداوى عند هذا الطبيب بالفعل، وقد رفض أبي تعيينه في القصر لحداثة سنه.

رد ياسين مبتسمًا: .

- تحريت عن ذلك الطبيب فعرفت أنه غادر القطاع قبل وفاة والدك الملك الفريد بأسبوع!

قال الملك بنظرة زائغة:

- سنبعدها هي والأمير أنسي عن القطاع بأكمله..

لم يرتح ياسين لرد فعل الملك فور أن ذُكرَ اسم الأميرة دانية.. بدأ ياسين يستعيد ما سمعه من الخادمات، ويرتب الأحداث مرة أخرى في

رأسه بالتوازي مع ما قرأه في كتاب الأثر، اتسعت عيناه مما اكتشفه وقال للملك كأنه يفكر بصوت عالٍ:

- الأميرة دانية ليست من نقل خبر وفاة الملك الفريد.. بل شاركت في حدوث الخبر نفسه!

كاد الملك الناصر أن يقاطع ياسين، لكن ياسين أشار له بسبابته ليسكته وأردف قائلًا:

- هل يهتم فعلًا الملك الناصر بمرض الأميرة دانية وأين تتداوى؟ أم أنه من أمرها بالذهاب للطبيب لغرضٍ آخر؟

- ولماذا أمرها بالذهاب لطبيب معين؟

- الأميرة دانية كانت حلقة الاتصال بين مولاي مع الطبيب الشاب.. لكن يبدو أنها أخطأت حين نشرت خبر الوفاة قبل حدوثه.

- ولماذا أتواصل مع الطبيب الشاب؟ أتهذي يا ياسين؟

قال ياسين وهو يتكئ على مخارج كلماته:

- الطبيب كانت مهمته تركيب السم الذي مات به والدك الملك الفريد بالتدريج، حتى تبدو الوفاة طبيعية، كأي وباء لا يستطيع الطبيب الملكي علاجه..

تحسس الملك الناصر سيفه وقال بعصبية:

- ماذا تقصد أيها الغريب؟

رد ياسين بهدوء:

- أقصد ما فهمته.. مولاي، أنت قتلت والدك لأجل العرش!

٢٦-يزن

لم يتوقع الناصر أن يكون أخوه الوحيد «يزن» هو السبب وراء اختفاء زوجته، فقد صممت نادين على البقاء في الغرفة المحرمة، والتي لا يعرف أحد سوى الملك الناصر محتواها، وأنه الوحيد الذي يدري أن يزن لا يزال على قيد الحياة.. كانت الغرفة أشبه بالجناح الملكي، لكنها موصدة تمامًا، محاطة بالأقفال من جميع منافذها عدا فتحة التهوية، والتي عرفت نادين فيما بعد أن دخول التابعين للفتحات المؤدية للغرفة المحرمة ممنوع، وأن المسار الوحيد المفتوح لها هو جناح الملك..

تأملت نادين حال الغرفة التي كانت لها مهابة خاصة، بإضاءتها الخافتة وحوائطها العازلة للصوت، وقد اكتظت بالكتب والأدوات العلمية والجماجم الآدمية.

- لماذا أخفوك عن الجميع؟

طرأ السؤال على بال نادين فجأة، قطعت ملاطفتها مع يزن لتسأله، فنهض من جوارها في فتور، ارتدى ثوبًا حريريًا أسود اللون، وقال:

- ارتكبت خطأ لا يُغتفَر حين كنت مراهقًا.

- هل تريد الحديث عن الأمر؟

أمسك يزن درعًا معدنية ثقيلة وراح يرفعها وينزلها ليمرن عضلات ذراعه.. وقال مغيرًا الموضوع:

- أنت غريبة عن الجميع، تبدين أذكى من المبهجات، وأجمل من الأميرات، دون أصل أو حسب معروف.. وحتى الآن لا أعرف كيف تعلمت كل مهارات الفراش دون تجارب سابقة؟

لم ترد نادين، لم تعرف إن كان سيصدق قصتها أم لا.. لم تصدق ما يحدث، فمنذ أيام كان حدود طموحها ينتهي عند رئاسة قسم التمريض بأي مستشفى حكومي والزواج من ياسين الهواري، الآن هي زوجة لملك وتنام في فراش أخيه، بررت لنفسها ما تفعله أنها تعيش ما يشبه الحلم، وأن كل ما يحدث ليس حقيقيًا.

- لكن كيف قضيت أكثر من عشرين سنة حبيس هذه الغرفة؟

- الغرفة المحرمة كانت خاصة بحكيم المملكة، يجري فيها أبحاثه وقراءاته، لكن بعد أن قرر أبي عقابي بالحبس داخلها مدى الحياة، وإعلان خبر وفاتي على الجميع عدا أمي وأخي.. انتقل الحكيم إلى المكتبة في قطاع التابعين، وقد بدأ الناصر يستعير الكتب والأدوات العلمية من المكتبة لأجله.

سألته نادين عمن كان يمده بالطعام، فقال إن الناصر هو المسؤول عن هذا..

قاطع حديثهما صوت حركة خفيفة أعلى السقف، أشار يزن لنادين حتى تختفي أسفل الطاولة التي يجلس عليها للقراءة وعمل الأبحاث.. سمعت صوت الملك الناصر وهو ينزل من فتحة التهوية ليلاقي أخاه بصوت فاتر:

- تفضل طعامك..

- ما لك يا أخي؟

- نادين اختفت، اتضح أنها أذكى بكثير مما تبدو.

قال يزن مزيفًا الفزع:

- إياك وأن تبلغ الحراس بهروبها، أخبرهم أنها سافرت لأي غرض.

- هكذا فعلت. وهكذا أشار عليّ ياسين.

عقّب يزن بلهجة غامضة:

- لا أرتاح لهذا المستشار، أشعر أنه سيحدث كارثة في المملكة.

سأله الناصر باهتمام:

- هل أنهيت صنع سلاحك؟

- ليس بعد.

- وماذا عن قاذفة الأحجار؟

أخرج يزن رقعة جلدية كبيرة مرسوم عليها تصميم بدائي يشبه المنجنيق، وناوله للناصر قائلًا:

- حرفيو المملكة يمكنهم إنهاء هذا التصميم خلال أيام، يكفيك أربعة من هذه القاذفات، وعمال لنقل الحجارة الضخمة.

- عظيم عظيم.

سأل يزن أخاه الناصر:

- علامَ تنوي أنت ومستشارك؟ هذه الآلة قد تدك قطاعًا بأكمله!

- ستعرف في حينها.

أمسك يزن بملابس الناصر وحمله فوق الأرض، كان يزن أقوى بكثير من أخيه، ولا يضاهيه قوة في المملكة سوى الأمير أنسي بن العطّاء:

- أنسيت أنني أخوك الأكبر، والوريث الشرعي للحكم؟

رد الناصر مقلدًا أسلوب ياسين الذي تعلم منه الكثير:

- يبدو أنك من نسيت سبب إخفائك عن الجميع.. والقسم الذي أقسمته لأبي!

أنزل يزن الناصر وألقاه أرضًا، همس في غضب:

- المكتبة احترقت، والحكيم معها، القائد سليمان ثار على حكمك مع الكاملين.. حتى زوجتك هربت.. وأنت جالس مع مستشارك تخططان لأمر لا يعلمه سواكما؟ ماذا تنتظر لتعترف بفشلك!

نهض الناصر لضبط ملابسه.. اقترب من الطاولة التي اختبأت نادين أسفل منها، لمحت حذاءه القماشي يقترب منها، وفجأة توقف قائلًا ليزن:

- ثق فيّ، أكمل عملك على السلاح الذي أخبرتني بأمره.. إياك أن تكثر من الحديث مع نفسك بخصوصي، أنا أحميك في الغرفة المحرمة.. إذا أردت الحكم فلتأخذه.

رد يزن وهو يراقب الناصر وهو يدس تصميم آلة قذف الحجارة في جيب ردائه، ويصعد فتحة التهوية:

- أنا زاهد في الحكم نفس زهدك للنساء.. أحب دور المراقب الذي يشاهد كل الأمور من أعلى، أنا كالطير الذي يكشف المملكة كلها،

أما أنت فلا ترى إلا ما يراه مستشارك، تذكر أن الأمور لن تنتهي كما خططت أبدًا.

قال الناصر محذرًا قبل أن يختفي:

- لا تخرج هذه الأيام من غرفتك.. المتمردون اقتربوا من القطاع، وحربنا معهم ستُحسَم خلال أيام.

عقب يزن ساخرًا:

- ماذا سيحدث لي؟ سأموت مجددًا؟

خرجت نادين بحركة خفيفة من أسفل الطاولة، لم تعرف سبب وجود ملابس نسائية في جناح يزن، شعرت بأن هذا السؤال مثل الكثير من الأسئلة التي لا يحبذ يزن الإجابة عنها.. لم تخفِ إعجابها بغموض شخصيته وعبقريته وبضعف الناصر أمامه، رأت فيه كذلك الجمع بين قوة الشباب وحكمة الكهول.

- أخبرني عن السلاح الذي طلبه منك الناصر!

تهكم يزن على منادتها على الناصر مجردًا من لقبه الملكي، وقال:

- مسحوق حارق قرأت عنه في كتب التاريخ بالمكتبة، يقال إنه حين يمسه النار ينفجر على الفور.. وقد استعمله الأسلاف في حروبهم.

قالت نادين على الفور:

- البارود!

لم يبدُ على يزن أنه فهم الكلمة، أجلسها بين أحضانه وراح يحكي لها عن قدرات الأسلاف الخارقة على التواصل عن بعد، ومعرفة أخبار بقية الممالك في نفس اللحظة.. أخبرها كذلك عن آلات تتحرك بعجلات

على الأرض دون حيوان يجرها.. شعرت نادين أنه يروي المستقبل، وليس قصة عن الأسلاف.. سألته في فضول:

- وأين ذهب الأسلاف وحضارتهم؟

رد يزن ببساطة:

- هذا الجزء لم أجده في الكتب؟

تذكرت نادين أجواء المملكة، التي تشبه ما تراه في الأفلام وتسمع عنه في الكتب، وسألت يزن:

- ألم تسمع عن الدولة الفاطمية، أو العباسية؟ الروم أو الفرس؟

بدا على يزن عدم الفهم:

- ما هذه الأسماء؟

قالت نادين وهي تشير حولها:

- من المفترض أن بعض هذه الولايات حولنا، ولكن أين؟ لا أعرف..

رد يزن دون اكتراث:

- العالم أوسع مما يبدو.. وكل شيء يبدو لي وارد الحدوث، بعد كل ما قرأته ودرسته خلال عزلتي.

اعتدلت نادين في جلستها، ربعت قدميها على الفراش وسألته:

- هل تعتقد في جُرم ما نفعله سويًا؟

- أنا لا أعتقد شيئًا، أشك في منشأ الإثم نفسه.. الحق من الباطل والخطأ من الصواب.. أخبريني مَن مِن البشر وضع المعيار الأخلاقي؟

ردت نادين مستنكرة:

- المجتمع، العُرف.. الأسلاف!

- جميعهم يخرجون عن قواعدهم.. وهل كان الأسلاف بلا خطيئة؟ لو كانوا كذلك ما وصلت الأمور لنا.. الأخلاق هي ما نراه نحن صحيحًا، والرذيلة هي كل ما يعكر أهواءنا.. ما نفعله هنا مستترين جرم، لكن إن سافرنا بعض الأميال نحو مملكة أخرى بات جائزًا، وإن ارتحلنا أميالًا أخرى بات محببًا..

- المبدأ لا يرتبط بمكان، بل بالأشخاص أنفسهم.

- أخبريني عن زوجك، فخامة الملك الناصر.. هل يقدر أحد العوام على ردعه عن أي فعل غير أخلاقي؟ حتى وإن اختلى بزوجته أمام عينيه!

- بالطبع لا.

- هنا تبدَّل المبدأ وتغيَّر المعيار حسب المكان والأشخاص.

- بمَ تؤمن إذًا.

نهض لينظر في المرآة، تأمل جسده وقال مشيرًا لانعكاسه:

بهذا.

تأملت نادين شيب شعره الذي فتنها وقالت بلهجة ماكرة:

- ألم تمل الحبس في هذه الغرفة؟

- أنا سر من أسرار المملكة، إن خرجت انهارت؟

- وإن بقيت أفناها الناصر ومستشاره.

سأل يزن في عدم فهم:

- إلام تلمحين؟

نهضت نادين واحتضنت يزن من ظهره قائلةً:

- هل تعدني بأن تخلصني من الناصر وأصير ملكتك؟

- مقابل؟

- سأدعمك حتى تسترد ما هو حق لك . العرش!

٢٧ -تمرد

صعق خيري فور أن سمع سبب مقتل جعفر بن غالية للراقصة وديدة. وقال ناهضًا من مكانه:

- لست مهتمًا بمعرفة من والدك، فأنا غريب عن هذا العالم.

ضحك جعفر وقال لخيري وهو يمسكه من ساعده حتى يكمل جلسته:

- وهذا ما أريده في حليفي الجديد.. أنت لا يهمك سوى المال وشيء من الحكم، وأنا معني بالحكم وشيء من المال.

سأل خيري جعفر:

- متى أصبحت حاكمًا؟

رد جعفر مستعيدًا ذكرياته:

- منذ بداية وعيي وأمي أسيرة في قصر الملك الفريد دون أن أعرف السبب.. وقد عين أحد وزرائه حاكمًا حتى أكبر وأرث الحكم، عرفت فيما بعد أن السلطة على هذا القطاع قدرت لعائلتي منذ التوحيد، ولم يبقَ منهم سوى أمي، وحين بلغت الثانية عشرة، عاد الوزير لقطاع الحكم وبقيت أنا هنا.

سأل جعفر مستدركًا:

- هل تزوجت عامرة عن حب أم طمعًا في الحانة.

رد خيري كاذبًا:

- تزوجتها لأشعر بالأمان في هذا العالم.

قال جعفر محذرًا:

- إياك والمساس بها، فهي أمي الثانية!

سخر خيري في سره من جعفر الذي ولد لأم تعشق الرجال، وحين قرر أن يختار أمًا لم يبتعد كثيرًا عن خصال أمه.. قال جعفر وكأنما قرأ ما في بال خيري:

- لا ذنب لهما في عشقهما.. أمي كانت حاكمة، لديها السلطة والمال.. ولديها شهوة تفوقهما.

قال خيري مغيرًا دفة الحديث:

- يجب أن نؤجر كل الجنود الرمليين، سنصنع منهم جيشًا صغيرًا.

- وكيف سننفق عليهم؟

- سأمدك بالمال من المراهنات.. ولكن يجب ألا يمتلك أحد السلاح والجند غيرنا.

- وما نفع جيش مأجور ولدينا حراس المملكة؟

نهض خيري من مكانه متأملًا لوحات جعفر التي جسدت بعض مناظر الطبيعة وبعض الأوضاع الحميمية بين الرجال والنساء:

- سيدي الحاكم.. المأجورون ولاؤهم الوحيد لمن يدفع أكثر، وأنا أضمن لك أن نكون هكذا.. لكن جنود الناصر مسيسون، ولاؤهم غير مضمون.

عقّب جعفر مؤمنًا على حديث خيري:

- سأشتريهم جميعًا، فحتى هذه اللحظة لا أعرف من منهم سينحاز لحركة سليمان الراشد المتمردة على الملك!

قال خيري في فضول:

- سمعت أنه يطوف بين القطاعات، يلقي خطبه الحماسية في الأهالي منددًا بحكم الناصر وأهله، وجمع منهم حشدًا كبيرًا، حرسًا وعامةً.

همس جعفر بن غالية:

- جاءني منه رسول يبلغني بقدومه خلال أيام.

سأل خيري:

- وهل ستدعمه مثل شيخ الكاملين، أم سترفض دخوله القطاع مثل الزهاد؟

أشار جعفر نحو لوحة من لوحاته، ظهر فيها القطاع كأنه يرسمه من السماء، كان القطاع محترقًا وخاليًا من البشر، وقال لخيري الذي انبهر بدقة رسم اللوحة من منظور جعفر التخيلي كأنه طائر يشاهد القطاع من أعلى:

- أنت لا تعلم شيئًا عن هذا القطاع، هذا المكان وجد لغرض واحد، وهو التجارة.. كل ما ينفع التجارة ينفعنا، قرر أجدادي عدم إلزام الأهالي بعقيدة الكاملين لخدمة التجارة.. أتظن أنني من يحكم ومن يُحكَم؟ لا يهمني في هذا القطاع سوى العملات.. هذا موطن قوتنا، وسبب خوف الناس منا.. فإن انفصلنا بالقطاع عن المملكة جاع أهلها.

قرر أن يغادر بيت جعفر، أصر الأخير على تناول الإفطار سويًا، لكن خيري قال وهو يقترب من باب الخروج:

- لقد أنقذت رقبتك مرتين، مرة من القمار ومرة من وديدة.. أريدك صديقًا وحليفًا، ولكن لديَّ شرط!

كاد جعفر أن ينهره، لكنه آثر الاستماع، فأردف خيري:

- لا أنا ولا أنت سنلعب القمار، مهما كان مبلغ الرهان صغيرًا.. نحن آلهة اللعبة، فلن نموت في مضمارها!

xxx

قضى خيري أيامه التالية لهذا اللقاء في تنفيذ فكرة بيع البيت بنظام القرعة، في البداية استنكر الناس الفكرة، لكنهم ما لبثوا أن استوعبوا مخاطرها المحدودة، حتى وضعوا أموالهم، تهافت الناس على هذا المقترح، وقد حاول بعض التجار تقليد مع فعله خيري للترويج لبضائعهم.

كان قد أتقن عزف الطبول، وقد استخدم عصوان من الخشب المصقول أهداهما له جعفر، أحضر إناءً نحاسيًا وآخر زجاجيًا ووضعهما وسط الطبول ليحدثا أصواتًا بعينها يريدها في اللحن، لكن ألحانه لم تفتن الناس مثل أفكاره، وقد تعجلوا فقرة الحكاء كل يوم.

كانت أرباح المجلس الترفيهي تتزايد يومًا بعد يوم، وقد زودت عامرة عدد المقاعد في المكان ونوعت من المشروبات، كذلك انتعشت حركة الرهانات والدعارة.. كانت أموال عامرة وزوجها تتضاعف.. وقد أجرت حارسين خصيصًا لحراسة الخزينة التي امتلأت بالعملات.

كانت تأتي خيري الأخبار أثناء العزف، فينهمك أكثر في عزفه، تخيل نفسه الشيطان يعزف أفضل مقطوعاته لتزين وساوسه للشر.. فبعد

أن ربح أحد العوام بيت جعفر تهافت الباقون على مسابقات مشابهة، وخيري لم يتأخر عنهم، واستخدم أرباح المسابقة الأولى لشراء بضاعة أحد تجار الأواني، وأجرى قرعة عليها ليضاعف أرباحه ثلاثة أمثالها!

زاد جنود الأمن في القطاع بأوامر من الملك الناصر مرةً أخرى، فبعد كشف سر جريمة وديدة ظهرت جرائم أخرى، أبناء يقتلون الآباء لأجل أموال يراهنون بها، ونساءً يسرقن بعضهن من أجل القرعة، كذلك انتشرت القرعات المزيفة وعمليات الاحتيال.

احتاج خيري كميات مضاعفة من المخدر ليرضي زوجته، كانت متمرسة، وقد زل لسان خيري ذات يوم، واعترف أنه كان يود أن يعاشرها في شبابها، وأسر لها بأمنية دفينة أن تنتقل روحها لجسد وديدة الذي كان يشع أنوثة.. لم تعلق لكنها منعت عنه المال لمدة يومين، وكانت هذه المدة كفيلة بمنعه عن التفكير في غيرها من الأساس.

عرف خيري من جعفر بن غالية أن لقاءه مع سليمان الراشد كان فاترًا، عرض سليمان الفكرة على جعفر فرفضها الأخير بشكل شخصي وأقر بحرية أهل القطاع فيما يفعلون.. فهم ليسوا منقادون مثل الكاملين، ولا عازفين عن السياسة مثل الزهاد.. فاكتفى جعفر بالسماح لسليمان بالخطبة في الناس، ونصحه هامسًا بأن يعيد شيخ الكاملين لقطاع الكاملين، حتى يضمن السيطرة على ذلك القطاع وألا يحدث فيه تمرد مضاد لتمرده.

استشعر سليمان من هذه النصيحة ميل جعفر للتمرد، لكن جعفر أعاد حسم موقفه قائلًا:

- نصيحتي ليست حبًا في فكرتك، أنا لا أحبها ولا أكرهها، هي فكرة وطموح، لن أحدثك عن خيانة أمانة الجيش وحفيد الملك الموحد

الذي جعل منك قائدًا.. لكنني نصحتك لأن الفوضى إن انتشرت بين الكاملين أضرتني.

وطلب خيري من جعفر أن يسمح له باصطحاب حراس المملكة معه، فقال جعفر:

- خاطبهم ومن يريد الرحيل فليرحل، لن أجبر أحدًا على البقاء دون إرادته.. ولكن إياك من الاقتراب من المأجورين من الجند الرمليين، أعرف أنهم ليسوا هدفًا لك، ولكن وجب التحذير.

وتابع:

- وحتى ينجح التمرد فأنا تابع للملك الناصر بن الفريد بن الموجد.. ولائي يتجدد صباح كل يوم لمن يجلس على العرش، وحين يأتي صباحك يحل ولائي.

كان النواقص في حالة عامة من السطل، لم تجدِ مع أغلبهم دعوة سليمان الراشد عن الأمل في مستقبل بلا تبعية، وعن دور الناس في حكم البلاد.. فلم تطل إقامته في القطاع، ولم يشأ أن يعاديهم حتى لا يتهم أنه منحاز للكاملين، وقد إستغل شيخ الكاملين غضب سليمان الراشد من النواقص وحصل منه على وعدٍ شفهي بأن يحكم هو النواقص إن نجح التمرد.

اعتاد خيري أن يقضي أغلب وقته في بيت جعفر الفسيح، رغبةً منه في معرفة ما يدور بكواليس الحكم، وكذلك هربًا من رغبة زوجته التي لا تفنى، لاحظ خيري أن جعفر يشرد كثيرًا وقد ظهر مزاجه المتعكر في لوحاته.. حاول تخمين السر بمفرده لكنه فشل، فقرر أن يشربا حتى يثملا.. وبعد نصف الساعة قرر جعفر البوح ما في نفسه:

- العم راتب يساومني على نفس السر الذي عرفته وديدة.

بدأ الفضول يتسرب لخيري بالتدريج فسأله كيف عرفت وديدة سر والده من الأساس، فرد جعفر وهو يحتسي كأسًا إضافية من الخمر:

- عرفته وديدة من القصر حين كانت تعمل فيه..

توصل خيري لاستنتاج أن والد جعفر من طبقة الحكم، لكنه لم يبح باستنتاجه حتى لا يقطع استرسال جعفر الذي أردف:

- وقد أخبرت السر لراتب، والآن قرر مساومتي.

- وماذا يريد؟

- أن يصبح نائبًا لي في حكم القطاع.

- لكن حكام القطاعات لا نواب لهم.

- هو يريد أن يكون قريبًا حين ينجح تمرد سليمان الراشد، فيتمرد على بحجة أنني من معاوني الناصر.

صمت خيري مزيفًا أنه لم يفهم غرض جعفر، فصرح جعفر قائلًا:

- أريدك أن تقتله قبل أن يبلغ شخصًا آخر بالسر.

رد خيري معترضًا:

- الحرس متيقظون لأي جريمة أخرى، وخلافك معه بسبب الرهان سيجعلك المشتبه الأول، صحيح أنك الحاكم لكن هذا سيضعف صورتك في قطاع الحكم.

سأله جعفر في غضب:

- وما العمل إذًا؟ أتركه يفشي سري للعوام؟

رد خيري بعد تفكير:

- خيانة.. تخيل أن يثمل هذا العجوز ليستيقظ بين أحضان زوجتي الفريدة بعد أن أخدرها.. سيطردهما الأهالي من القطاع، وحينها يفقد حديث راتب قيمته، ويصبح السر افتراء منه على الحاكم العادل الذي طرده بسبب خيانته.

نهض جعفر من مكانه وقال مستنكرًا:

- لن أفعل هذا في عامرة!

قال خيري في حزم:

- سنحتاج أموالها لتثبيت حكمك في فترة التمرد، سنحتاج لتأجير المزيد من الجنود الرمليين.

لم يرد جعفر فأكمل خيري حديثه بلهجة متروية:

- يجب التضحية بشيء لتكسب شيئًا آخر.. هكذا تدور الحياة.

أدار جعفر وجهه كأنه يهرب من نظرات خيري، الذي هم بدوره بمغادرة بيت جعفر، لمح لوحة يظهر فيها جعفر وهو طفل وعامرة تلاعبه، وأحس خيري بانجذاب تجاه نسختها الشابة، وقال:

- أمك الثانية أو استمرار حكمك مع حفظ سرك.. عليك الاختيار.

لم ينتظر خيري ليسمع ردًا، كان على يقين أنه حسم اختياره، فبرغم ثقل جسد عامرة، إلا أن كفتها لم تطب في حسابات جعفر الذي قرر أن يكون ابن غالية، وحدها.

٢٨- رؤيا أخيرة

مر اليوم التالي لفرمان ياقوت ثقيلًا على قلوب الزهاد، شعروا بأن التغيير الذي تنبأوا وحلموا به لم يغير من حياتهم شيئًا.. فقد أصدر ياقوت عدة قرارات غريبة عليهم، وقد فرض رسم العزائم والنقوش الموجودة في بيته على خيامهم، أخبرهم بأن الأسلاف هم من أخبروه بها.

وكانوا كلما سألوه عن حال الأسلاف ورضاهم عن الزهاد تهرب من الإجابة، ويستمر في قراراته الغريبة، وقد وصل مبعوثه مع اثنين من الجنود الرمليين المأجورين، حتى يعلموا الزهاد القتال.. كان الجندي الأول يدعى «جيرة»، وهو جندي قصير القامة مدكوك الرقبة عريض الكتفين، كان يجيد استعمال السيف كأنه جزء من يده، أما الجندي الآخر فكان يدعى «آي»، والذي كان حاد النظر ماهرًا في التصويب للسهام، وكان يجيد القتل عن بعد باستخدام الخناجر والأقواس والرماح كذلك.

وبرغم انبهار الزهاد بمهارة الجنديين وما تعلماه خلال اليوم في ساحتهم، إلا أنهم كانوا مستاءين من الدماء التي أريقت أمام أعينهم بالأمس، حتى وإن كانت دماء جاسوس عليهم، فهم لم يعتادوا هذه الأفعال التي تيقنوا أنها ستتكرر كثيرًا الفترة المقبلة، طالما أن ياقوت سيدهم ومولاهم.

لم يؤرق حكم ياقوت للزهاد سوى الملك العطاء، والذي تبنى رأيًا مغايرًا لكل ما يفعله ياقوت في الزهاد، وقد أنشأ حلقة وعظية لمعارضة أعمال ياقوت، يجلس فيها لنصح الزهاد بالعودة عما يتلوه عليهم ياقوت نقلًا عن الأسلاف، ويخبرهم بأنه لا يوجد سحر قادر على تغييرهم، وأن عملهم هو السحر الحقيقي، وقد كان العطاء محبوبًا بين أهل القطاع الذين لم ينسوا اختياره للبقاء معهم، وفضل الزهاد على حكم المملكة بأسرها، فلم يستطع ياقوت تكميم رأيه.

حاول ياقوت أن يستميل الملك العطاء لصفه، فاقترح عليه مشروعًا لتأريخ ما يحدث في قطاع الزهاد، حتى لا يضيع أثرهم مثلما ضاع قبل معركة التوحيد.. وعلى الرغم من الخلاف الذي نشب بينهما حول أسلوب الحكم، إلا أن العطاء وافق على هذا المشروع، وبدأ يقضي وقتًا أطول في خيمته يسرد تاريخ المملكة وحقائقها، وقد عيَّن ياقوت غلامًا يدعى «راتب» عمله جمع له الأوراق وحبر الكتابة.. حاول الملك العطاء إبعاد راتب عن العمل معه، لكن ياقوت كان مصممًا لسبب لم يفهمه أحد الزهاد، خمن العطاء أن ياقوت يريد من راتب التجسس عليه.. لكن «راتب» لم يكن مهتمًا بأخبار المعارضة قدر اهتمامه بتعلم الكتابة والتأريخ من العطاء، فأذهب الظن عنه.

مرت أيام قليلة، انتشرت فيها أنباء عن اقتراب جنود سليمان الراشد من القطاع، وقد عرف الجميع بنيته لاحتلال القطاع وقتل كل من يعترض طريقه، وقد نقلوا شعور القلق المسيطر عليهم لياقوت، لكنه كان يتجاهل استغاثتهم.. ومع مواعظ العطاء ومشهد إعدام الجاسوس الذي لم يفارق ذكراهم، اكتشف الزهاد أنهم نسوا معنى السيادة والحكم، لم يتحملوا السلطة أكثر من بضعة أيام.. وقرروا الثورة.

لم يجد الزهاد بدًا من التمرد على ياقوت لاتقاء شر جنود الراشد، فهم لم ولن يكونوا أهلًا للحرب.. وفي نفس الليلة، وباتفاق غير معلن، تجمع الأهالي أمام بيت ياقوت الذي شيدوه بأنفسهم، في مشهد مهيب ارتفعت فيه أصوات طبولهم، وقد ألفوا أناشيد تطالب برحيل ياقوت، حاول الجنديان المأجوران «جيرة» و«آي» أن يمنعا الناس عن مداهمة بيت ياقوت لكنهما فشلا، دخل الزهاد حاملين مشاعلهم للبيت، لم يكونوا أهلًا للعنف.. لكنهم أرادوا طرد ياقوت من القطاع بأكمله.

طلب ياقوت منهم أن يسمعوه للمرة الأخيرة، حتى لا يندموا على معصية الأسلاف، كان الجميع في حالة من الثورة، برروا خروج ياقوت من قصر الأسلاف أنه روح شريرة تريد تضليلهم، أو أنه مجرد اختبار من الأسلاف لطاعتهم.. وقد وجب الخلاص منهم.. لكن وحده الملك العطاء من هدأهم وطلب منهم الإنصات لما سيقوله الحاكم المُنتَظر.

صعد ياقوت سطح منزله وقد بدأ يخطب في الزهاد بلهجة أقل حدة من خطبه السابقة:

- متى اعتاد الزهاد اقتحام المنازل؟ هاه، أخبروني ما تريدون.

تضارب الأصوات وتعالت الهتافات، كان الزهاد في حالة من التخبط، استغلها ياقوت قائلًا:

- دعوني أخبركم أنا.. تريدون أمارة أنني مبعوث الأسلاف المنتظر، أليس كذلك؟

أومأ الجميع برأسه، فقال ياقوت وهو يرتجل الحديث دون تخطيط:

- علاج وباء الهزال الذي يضنيكم عندي أنا فقط.. الأسياد غاضبون أنكم تتزوجون الأقربين منكم.

رد أحد الزهاد معترضًا:

- لكنه قواعد الأسلاف لنا، كل رجل يتزوج من أقرب النساء صلة به.

قال ياقوت معترضًا:

- هذه العادة سبب الوباء، كانت ضرورية أيام الأسلاف للحفاظ على العصبة وتماسك الزهاد، لكنكم الآن تجتمعون حول فكرة القطاع، لذلك لا داعي لتناسل الأقربين.

أردف ياقوت بلهجة عملية:

- سندعو بعض السيدات من القطاعات المجاورة للزواج من رجالكم.. وأقسم بشرف الأسلاف، أن الأجيال القادمة ستخلو من وباء الهزال فيما بينكم.

سأله العطاء مشككًا:

- وكيف سنعرف أن لعنة الأسلاف قد انتهت؟

رد ياقوت معترضًا بلهجة متحمسة:

- لا يوجد لعنة، أفكاركم هي اللعنة.. انغلاقكم هو اللعنة.. زهدكم في الحياة دون أن تجربوا مخاطرها هو اللعنة.. سحر الأسلاف ليس في قصرهم، وإنما فيكم أنتم.. من اليوم سنجمع ضريبة على دفن الموتى من القطاعات المجاورة.. سنغلق المقابر في وجه من لا يدفع.

بدا على الزهاد استنكار جمع المال والركض خلفه، فقال ياقوت مبررًا:

- حارس القصر تحدث معي بنفسه، أخبرني بأن الأسلاف يريدون منا القوة.. فحمايتهم شرطها الوحيد قوتنا.

كاد الزهاد أن يقتنعوا بحديث ياقوت، لكن إحدى الزاهدات قالت بلهجة فزعة:

- وإن افترضنا صحة ادعائك أنك من الأسلاف.. ماذا ستفعل مع جنود سليمان الراشد الغازين لقطاعنا؟! كيف سنحتمي منهم وليس معنا إلا جنديان؟

كان ياقوت قد نسي أمر سليمان، وقد اعتمد فيه على معونة «الحارس»، الذي طمأنه إلى هذا الأمر.. حاول إغماض عينه مستدعيًا الحارس، لكن لم تأته أي رؤى بخصوصه. فتح عينه ليحاول ارتجال رد يقوله لهذه السيدة، لكنه حين فتح عينه وجد جميع الزهاد قد تحولوا لمظهره هو نفسه!

بدا على ياقوت الفزع وهو يشاهد أكثر من مئة نسخة منه، جميعهم ينظرون نحوه ضاحكين، ظن أنه يخرف.. لكنه سمع صوته يخرج جماعيًا من حناجرهم:

- أنت لا تخرف، هذا أقل ما يمكن للحارس فعله!

أفاق ياقوت من صدمته بعد ثوانٍ معدودات وقال:

- لماذا لم تظهر قدراتك لهم؟

- كنت أنتظرك، وجودك أنت وصحبك مقدر له منذ آلاف السنين، أنت الآثم الأكبر بين هؤلاء، ومهما حاولوا لن يصبحوا مثلك!

- سمعت أن العطَّاء قتل عشرة من التابعين قبل أن يحتمي بالزهاد، لماذا لم تختره.

- العطاء ندم على ما فعل، لكني لم أشهد منك لحظة ندم واحدة..
لم أرَ روحًا مظلمة كروحك!

لم يجد ياقوت ردًا، سأل الحارس عن سبب حلوله في أجساد الزهاد، فرد الحارس بصوت ياقوت الصادر من مئات الحناجر:

- سنخرج لقتال جنود الراشد.

قال ياقوت معترضًا:

- نحن غير مسلحين!

- وهل من يحل في كل هذه الأجساد الفانية يحتاج سلاحًا لقتل أجسادًا مماثلة؟

لم يرد ياقوت، ترك الحارس يقوم بكل شيء، واكتفى هو بمشاهدة ما يحدث خلال قطعة المرآة التي كسرها يوم أن كان في قصر الأسلاف، شاهد فيها رؤية كاملة للمعركة التي لم تستغرق أكثر من دقيقتين، فقد هاجم الحارس من خلال أجساد الزهاد الفرقة التي أرسلها الراشد حتى فتك بهم جميعًا.. لم يترك جنديًا من أتباع الراشد إلى وقطع رأسه.. لم يشعر ياقوت بذرة تعاطف مع جنود الراشد، فأدرك تمامًا ما يشير إليه الحارس من ظلام الروح.

أفاق ياقوت من غفوة قصيرة، اكتشف أنه كان بداخل رؤية كاملة مرت عليه خلال ثانية واحدة.. لكنه كان متيقنًا أنها قد حدثت بالفعل وأن خطر جنود الراشد قد زال.. كانت الزاهدة لا تزال منتظرة منه ردًا عما سألت، فقال بثقة مستعيدًا مشهد مقتل الجنود:

- ناموا مطمئنين، فقد حرسنا الأسياد هذه المرة.. هذه المرة فقط.

مرت الأيام التالية أقل ثقلًا على قلب الزهاد، وقد اعتادوا حاكمهم الجديد وسياساته المغيرة لجميع تفاصيل معيشتهم، بدأ بعضهم يعتاد حمل السلاح واستخدامه، وقد حصل الجنديان المأجوران من مملكة الرمليين على مكانة مفاجئة بين الزهاد، فيأخذان ما يشاءان من الطعام ويختاران ما يرضيهما من المساكن دون اعتراض، فالجميع يعلم أن رضا كليهما من رضا سيدهم يافوت.

انشغل ياقوت عنهم بمراسلات شديدة السرية مع الأمير أنسي من قطاع الحكم، وقد اتفقا على تنفيذ مهمة معينة مقابل الكثير من الأموال لتأمين قطاع الزهاد وشراء المزيد من الجند الرمليين.. كانت الليلة موعد اللقاء المرتقب، انتظر ياقوت حتى خيم الليل على القطاع وساد الظلام، ليتحرك متجهًا نحو مقابر الزهاد، المكان الذي يفقد فيه أهل مملكة المخلدين صفة الخلود.. المكان الذي يحمل الحقيقة الواحدة الراسخة، المكان الذي يؤمن ياقوت بأنه يراه كما هو وليس كما يريد ذلك «الحارس»، الذي لا يعرف هيئة له.

ظل ياقوت واقفًا في ركن من المقابر، منتظرًا وصول الأمير أنسي ورجاله. كانت قطاعات المملكة متقاربة، فخمن ياقوت أن رحلة أنسي لن تستغرق سوى ساعات قليلة، وهو ما حدث بالفعل.. فقد حضر أنسي مع أحد رجاله ممن يحفظون الصحراء وحارسين آخرين.. اصطنع أنسي الود وهو يحتضن ياقوت:

- أخيرًا صار للزهاد زعيمًا..

صافح كلٌّ منهما الآخر متعمدًا إظهار قوته، رد ياقوت باقتضاب:

- أأحضرت المال؟

كانت رائحة الأمير أنسي تفوح خمرًا، فابتعد ياقوت خطوة للخلف، قال أنسي دون أن يلاحظ اشمئزاز ياقوت من رائحته:

- ألا يكفيك أنني سأخلصك من أبي الملك العطَّاء؛ الذي يعارضك في كل قرار؟ كذلك تريد المال؟

رد ياقوت في مكر:

- وأنا أخلصت للملك الناصر. وقضيت بمفردي على فرقة كبيرة من جيش المتمردين!

- معك حق. ما يحدث بيننا صفقة جديدة.

- الأهم أن يظل «بيننا» يا سمو الأمير!

سأل أنسي باهتمام:

- هل نفذت ما طلبته منك؟

رد ياقوت مستعيدًا ما حدث طيلة اليوم:

- الغلام «راتب»، أدى مهمته كما رسمناها له. جالس والدك الملك العطَّاء بحجة تدوين تاريخ المملكة. وتعلم تقليد خطه وطريقة كتابته وصياغة الجمل كما أشرت عليَّ.. وحين أتقن التعلم وأصبح يكتب مثل والدك بالضبط وضع له السم صباح اليوم، وفور أن مات أبوك، أخبر غلامي الجميع أنه مريض ويريد النوم.

- وأين جثة الملك العطاء الآن؟

- أخذها حارسي الشخصي «جيرة» خارج المملكة، سيدفنه في الصحراء ومعه «راتب» الغلام.

بدا على أنسي الفزع وقال:

- أقتلت الغلام؟

ضحك ياقوت وقال:

- لا تقلق، لم أقتله إلا بعد أن كتب بخط يده رسالة للزهاد على لسان الملك العطاء يخبرهم فيها برغبته في الرحيل والبحث عن علاج لمرضه.. لن أفسد خطتك بسبب زلة لسان من غلام عن اغتيال الملك العطاء؟

قال أنسي في عصبية:

- وأين المخطوطة الأخرى التي طلبت منك تقليدها؟

أخرج ياقوت رقعة جلدية فخمة مطوية بعناية. ولوح بها في وجه أنسي

- أعطني المال وسوف تتسلم مرسومًا ساميًا من الملك العطاء بنفسه وبخط يده، يطالب فيه بحقه الشرعي في الحكم، والذي تنازل عنه في الماضي لأخيه الملك الفريد..

أشار ياقوت بمكر نحو أنسي وأردف قائلًا:

- وكذلك يُطالب في نفس المرسوم بتوريث وتسليم الحكم لابنه الوحيد.. الأمير أنسي.

تناول أنسي المرسوم من يد ياقوت، وناوله كيسًا ضخمًا من العملات الفضية، كان ياقوت يعرف أن هذه الأموال ستكفي لتأمين حدود قطاعه حتى لا يكون طرفًا في الحرب القادمة.. خطر على ياقوت سؤال مهم:

- متى سيحق لي حضور المجلس التوحيدي؟ سمعت أن مقعد الزهاد لا يزال خاليًا.

رد أنسي في غموض:

- انتظر حتى ينجح التمرد ونتخلص من الناصر.. فقد يكون لك مقعد أعظم.

بدا على ياقوت الدهشة، فسأل في حيرة:

- هل ندعم الراشد في تمرده على ابن عمك الناصر؟

قال أنسي في فخر وهو يشير نحو المخطوطة في يده:

- التمرد أمام العامة وفي عرف العقيدة الكاملة ليس شرعيًا.. ولكن مع ظهور هذا المرسوم الذي يعيد الحق لأصحابه.. ننال التأييد اللازم، ويُعلَن أنسي بن العطاء بن الموحد، ملكًا على المخلدين.

٢٩ - الإجابة: أبي

أفاق بركة من غيبته على صوت صراخ بهيرة الطفلة، كانت تنظر لأمها التي اختلطت دماؤها بجسدها البرونزي وشعرها الأحمر. كان السنان ملجمًا بالصدمة، وقد حاول إخفاء جسده المترهل العاري بمفرش السرير.. نظر بركة نحو السنان، فكر في قتله، لكنه أدرك بفطنته أن السنان سيفيق من صدمته حينها وسيتم القبض على بركة.. فجمع ملابس السنان وسيفه ووضعهما في حقيبة قماشية تخص بهيرة الأم، والتقط كيس العملات من الأرض.

نظر نحو بهيرة الطفلة وصرخ فيها أن تكف عن البكاء، فنفذت الطفلة كلامه.. لم يعرف بركة كيف أتى بسعة الحيلة في هذه اللحظة.. سحب الطفلة من ساعدها نحو باب البيت حتى خرجا منه.. وجد حجرًا ثقيلاً، جره بصعوبة حتى وضعه أمام الباب.. كان يحاول تعطيل السنان عن ملاحقته قدر المستطاع، علم أن الأمر مجرد دقائق حتى يفيق السنان من غفلته، ودقائق أخرى حتى يجد أي ملابس في الدار، ودقائق أخرى حتى يذهب لشيخ الكاملين يخبره بما حدث ويطالب بإعدام بركة.

لم يعرف بركة أن هذه الدقائق ستصل لساعات بسبب صدمة السنان وجلوسه بجوار جسد بهيرة لا يصدق ما حدث، هذا الجسد الذي كان نابضًا بالحياة والشهوة منذ ثوانٍ، كل هذه الحرارة تحولت برودًا ساكنًا..

نفس الجسد الذي جعله يبلغ ذروة الإثارة منذ لحظات، أصبح مثيرًا للفزع، بجرح غائر أحدثه بركة في عنق بهيرة، أفقدها روحها.. في ظرف آخر كان السنان سيقول حكمة بليغة عن كون الروح هي المثير الحقيقي وليس الجسد، لكنه حينها يفكر في أي شيء.

بدأ بركة يتحرك بخطوات واسعة مع الطفلة، تحرك في الاتجاه الذي سمع في السابق أنه يؤدي نحو قطاع الزهاد، سيحتمي بياقوت كما يفعل دائمًا.. سيلجأ لوالده ويخبره بأنه نجح فيما لم ينجح فيه هو وانتقم لشرفه.. صحيح أن بهيرة لم تعده بشيء، لكنه انتظر الكثير.

لم تعترض بهيرة الطفلة مسيرته، كانت قد اعتبرته والدها، لكنها لم تكف عن البكاء بسبب أمها، هدأها بركة واشتكى لها من أمها، قال إنها لم تكن لتتغير، وأنها كانت ستسبب لهما الكثير من المشاكل.. فهي قد أدمنت الرجال.. ولا أحد كان سيكفيها، قالت الطفلة إن السنان هو أكثر من كان يزور البيت.. فأجاب بركة أن السنان لم يحبها.. فلم تجادله الطفلة.

لاحظ بركة حركة غير طبيعية في قطاع الكاملين.. لم يعرف أن شيخ الكاملين بدأ بتحريك شبابه لتدريب عامة الناس على القتال، وجهزهم بالأسلحة والعتاد حتى يكوِّن مجموعات تساعد القائد سليمان الراشد في خطته للسيطرة على الحكم، والتخلص من الناصر وحاشيته.. كان شعار هذه التجمعات هو العدل في المملكة.. والوصول للكمال.

اعترض أحد الشباب طريق بركة وسأله عن كيس العملات والملابس، ومن أين أتى بهذا السيف، ادعى بركة العته كعادته كلما عجز عن الكذب، وقالت الطفلة بهيرة إنهما مسافران لزيارة أقاربها في قطاع الزهاد..

نظر الشاب لهيئة الطفلة البريئة وابتسامتها الواسعة التي تخفي أحزانًا كبرى، فأشفق عليها بسبب أبويها؛ العاهرة والمخبول.. أفسح لهما الشاب ووصف لهما طريقًا مختصرًا عبر الصحراء الفاصلة بين القطاعين. توقف بركة عند أحد حوانيت الخضروات، فابتاع زادًا لرحلته مع ابنته - بالتبني- بهيرة.. تجاوز حدود قطاع الكاملين، وهي حدود وهمية تنتهي بنهاية العمار والبيوت فيه، متبعًا وصف الشاب، كان حزينًا على فراق محبوبته، وفرحًا بلقاء والده.. تساءل للحظات وقدميه تغرسان في رمل الصحراء مجددًا عن مصير المهندس ياسين وحبيبته، وعن مصير الشاب الثالث الذي لا يذكر كيف رحل عنهما.

بدأ بركة رحلته مع الابنة، تبادلا النوم حتى يحرس كل منهما الآخر من مخاطر الصحراء.. لم يكن بركة يعرف كيف سيحميها إن هاجمهما شيء، حتى لمح أفعى تقترب منها فغرس سيف السنان في رأسها بصعوبة.. ظلت الأفعى تتلوى وحاولت الهروب، لكن إرادة بركة في حماية بهيرة أولًا وفي النجاة ثانيًا.. كانت أقوى منها.

أتى الليل وحاول بركة النوم في هذا الجو القارس، كانت الرحلة صعبة بحق عكس ما ظن بركة في بدايتها، حاول إضرام النيران بالأحجار، لكن الأمر لم يكن بالسهولة التي شرحتها له الطفلة بهيرة.. لكنه تعلم بصعوبة كيف يتسلق النخل للحصول على بعض الثمرات التي زهدها حتى تشبع بهيرة.

تعلم الأبوة التي لم يرها من ياقوت، لكنه نقلها لبهيرة الطفلة كاملة، وقد نجح كل منهما في حماية الآخر من مخاوفه.. اندهش بركة من اطمئنان الطفلة، بعد أن رأت بعينها مقتل أمها على يديه، لكنها ربما أدركت أن هذا هو القرار الصحيح لأمها، وأنها لن تذكرها إلا بالخير، حتى وإن كان قليلًا.. هكذا تعلمت من بركة.

مرت أيام عدة، طالت على بركة وبهيرة وقصرت على الزمان.. لمح بركة سورًا نصف مكتمل يظهر من خلفه مجموعة من الخيام خضراء اللون، ظن في البداية أنها مجرد واحة سيستريح فيها حتى يكمل مسيرته، لكنه أدرك لاحقًا أن هذه الخيم هي ما يميز قطاع الزهاد عن غيره.. كان قد بلغ من الإعياء مبلغًا، وقد نما شعره دون أن تنبت لحيته كما هو حاله، واتسخت ملابسه هو وطفلته، افترش بركة الأرض في إعياء، خلع حذاءه الذي امتلأ بالرمال. خاف أن يكون أهل الواحة من اللصوص فأخفى كيس العملات في ملابسه جيدًا.

كانت الحركة في الواحة هادئة تمامًا، وقد تجمع الزهاد في ساحتهم يحاولون تصنيع أسلحتهم بأنفسهم، علم بركة فيما بعد أنه كان محظوظًا حين عثر عليه «جيرة»، أحد الجنود المأمورين بوالده على أطراف القطاع، وتحديدًا الحارس الذي يفهم لغة المخلدين.. سأله «جيرة» سبب مجيئه، وفور أن بدأ بركة في الشرح حتى أدرك الحارس أن الحديث عن «سيدنا ياقوت».. وقد آمن أن نجاة بركة على قدميه من الصحراء الفاصلة بين القطاعين هي إحدى كرامات ياقوت.

تحرك بركة في الطريق بين الخيام، تعجب أن الشجر ينبت بغزارة في الواحة، توقف عند البئر المبارك ليشرب المياه هو وبهيرة، بدأ الحارس يقص على بركة وبهيرة قصص ياقوت مغلفًا إياها بلمحة أسطورية أعجبتهما، مر بركة بجوار مقابل أهل المملكة أجمعين، كانت مقابر بسيطة، تخيل المشهد الذي رواه له تاجر الحلي عن نجاة ياقوت من الدفن.

وصل بركة وبهيرة إلى البيت الوحيد المبني بجذوع الأشجار في الواحة.. أفسح «آي» الحارس الآخر المجال، حين رأى الحارس بصحبة بركة وبهيرة.. وداخل البيت كانت رائحة البخور تعبق بالمكان، وجمع

من الزهاد يفترشون باحته، يطلبون العون من سيدهم ياقوت.. توقف الحارس وطلب من بركة أن يذهب لغرفة التأمل الخاصة بوالده، فالمفاجأة ستكون عظيمة، واللحظة بينهما يجب أن تكون خاصة، فطلب ياقوت من الحارس أن ينتظر مع بهيرة في الخارج.

كان قلب بركة يدق، وقد نسي كل ما حدث من ياقوت معه في السابق، الآن لا يريد إلا عناقه.. وقبل أن يتحرك جثا على ركبتيه أمام بهيرة، وقال لها إن الأوقات الصعبة انتهت، الآن هما في كنف ياقوت، صحيح أنه ليس أفضل شخص في العالم، لكنه جبل قوي، يحمي كل من يحمل في عروق دمًا منه.. قالت بهيرة في براءة:

- لكنني لست من دمه.

رد بركة ببساطة:

- ولا أنا.

طرق بركة الباب ودخل، كانت صومعة ياقوت شبه مظلمة، وقد تسللت أشعة الشمس إليها، كان الجو باردًا فيها، كان ياقوت قد تعود عدم السؤال منذ أن وطأت قدماه قطاع الزهاد بما فيه.. رفع ياقوت عينيه ليجد بركة أمامه.. لم يتردد لحظة في النهوض واحتضان ولده، ظل في حضنه كثيرًا.. أغمض ياقوت عينيه وقد رأى جميع ما عاشه بركة.. شعر بالألم الذي مر به ولده، لكنه كان فخورًا بما اجتازه بمفرده، وما فعله مع بهيرة، قال بركة مازحًا:

- دي أول مرة تشوفني من غير ما تزعق.

ابتسم ياقوت، وقال في هدوء:

- «علمتهم الصدق يا ولدي، وعلموك الجبروت.. ماستحملوش حبك، كلامك مُر على لسانهم، وأثره تقيل على قلوبهم، صعب تفهمه عقول حفظت الأذى.. مارتاحوش غير لما بقيت واحد منهم.. أثرك عليهم قصر عمرك، اديتهم من روحك وصبحت ناقص يا ولدي».

لم يرد بركة، فقط تشبث بحضن والده.. أغمض ياقوت عينيه مرة أخرى، وتسللت رؤيا جديدة إليه، ارتجف جسده وبدأت الدموع تسقط من عينيه.. سأل بركة والده عما رآه في قطاع الزهاد، لكن ياقوت لم يرد.. طلب من بركة الجلوس على أحد المساند المرصوصة أرضًا:

- ارتاح يا بركة، خد نفسك، حس بقيمة النفس الداخل والخارج.

شعر بركة بالقلق مما قاله الأب.. لم يفهم ماذا يقصد.. قال ياقوت:

- سافرت لي كل ده لأجل ما أربي لك البنت؟

فهم بركة ما يرمي إليه ياقوت.. فرد قائلًا:

- اتكتب عليك تربي عيال مش من صلبك.

نظر ياقوت لبركة، تأمل كل تفصيلة فيه، وكأنه يشبع نفسه من ابن لم يدرك قيمته إلا الآن.. استسلم ياقوت لدموعه.. نهض من مكانه وقال لبركة:

- مش مكتوب لنا نبقى مع بعض في الحياة يا بركة.. أشوفك مع أمك.

فتح ياقوت باب صومعته، ونظر للسماء موجهًا حديثه لبركة:

- كله بإذنه.. كله بإذنه.

فهم بركة أنه لن يرى ياقوت مرة أخرى، نهض مسرعًا تجاه الباب، لكن حركة ياقوت كانت أسرع، فقد أغلق الباب خلفه وأحكم غلقه بقفل بدائي من الخارج.. طرق بركة الباب مستنجدًا بأبيه، لكن الأب انهار في غمرة حزنه.. وجد الجندي «جيرة» في انتظاره.. مال ياقوت على أذن «جيرة» هامسًا:

- خلال دقائق سيقتحم سنان السيوف صومعتي من النافذة ليقتل ولدي..

بدا على جيرة التأهب، أخرج سلاحه وهم أن ينادي الجندي «آي»، لكن ياقوت ربت على كتفه مطمئنًا:

- هذا قدره، لا يمكننا منعه، اذهب لاستدعاء الحارسين حتى يقبضا على السنان ويسلماه إلى شيخ الكاملين، وبعدها استدعِ أي خادمة لتنظيف الصومعة من دماء بركة الطاهرة.. وبعدها نقوم بدفنه.

كاد «جيرة» يعترض، لكن لهجة ياقوت لم تترك احتمالًا للنقاش.. ترك ياقوت «جيرة» حائرًا من أمره، وانحنى على ركبتيه في صعوبة أمام الفتاة التي كانت قد سمعت الكثير عنه، أمسك يدها وقبلها فابتسمت له ابتسامتها الطفولية، تحسست وجهه وقالت:

- أنت تشبه بركة كثيرًا.

ضحك ياقوت من قلبه للمرة الأولى منذ سنوات، سمع صوت جلبة في صومعته، فأدرك أن الرؤى تتحقق، وأن السنان الآن يجهز على ولده الذي عاش ومات غريبًا عن هذا العالم.. رأى في عقله صورة من صومعته، تجسد فيها بركة مذبوحًا.. كان يعرف أنه إن حاول منع الرؤى من الحدوث ستترتب عليها رؤى أقسى وأكثر بشاعة.

نظر ياقوت مدققًا في أصابع الطفلة الطويلة، وقد خمن أنها قد ورثتها من أبيها الحقيقي وهو السنان، والذي أخفى سر أبوته لها عن الجميع، وقد قطع كل تلك المسافة حتى يتخلص من بقايا هذا السر، فهو يظن أن بركة يعلم وقد يهدده به.. أراد السنان أن يظل في أعين أهل القطاع من الكاملين.

فكر ياقوت في قتل السنان.. لكنه أدرك أن القتل له دواء، وأن العذاب الحقيقي أن يُكشَف سر قتله لبركة، دون أن يعرف أحد أنه والد بهيرة من الزنى.. فقد عاهد بركة على حماية الطفلة من كل شر.

سمعت بهيرة صوت صراخ مبحوح لبركة، بدا عليها المزع.. كان ياقوت قد أدرك أن السنان قد أنهى دوره في القدر.. وأن بركة مع أمه الآن.. نظر ياقوت لبهيرة مبتسمًا، ربت على كتفيها، وهو يقاوم دموعه وتلعثمه في النطق:

- سنلعب لعبة سويًا.. لينظر كلانا نحو الآخر.. دون أن يبعد عينيه.. ومن يضحك أولًا.. يخسر.

٣٠- صراع البقاء

لم يكن لدى أهل مملكة المخلدين سوى سيرة الحرب المستعرة بين الملك الناصر وقائده السابق سليمان الراشد، التي ستصيب الجميع بنارها.

لم ينم ياسين لأيام عدة، كان يشرف بنفسه على استعدادات الجنود، ويعلمهم كيف ومتى يهجمون، ويوظف كل جندي في السلاح الأنسب بالنسبة له.. وضع ياسين خطة للحرب تتمحور حول التحصن في قطاع الحكم وتأمينه.. وتأمين قطاع التابعين بفرقة واحدة من الجند يتزعمها الأمير أنسي، ومعه من بقي من التابعين، لاستنزاف قواتهم.. اعترض الأمير أنسي على خطة ياسين، وقال إن الناصر وياسين يضحيان به في مهمة انتحارية، انسحب من قاعة الحكم أمام الحرس والجنود، حتى إن الشائعات انتشرت حول رغبته في الانضمام للتمرد، لكنه امتثل للأمر في اليوم التالي، وتصرف كأن شيئًا لم يحدث.

أما الملك فكان يراجع خطط الحرب مع ياسين، وقد انتشرت شائعات بين الجنود أنهما لا يتحدثان طويلًا كما السابق.. أمر الملك الناصر بإيقاف اجتماعات المجلس التوحيدي، على الرغم من فضوله تجاه زعيم الزهاد الجديد.. كما أمر أنسي بجمع الضريبة من العوام بحجة إطعام الجنود وزيادة الأسلحة والاستعداد لإغلاق الحصون، زادت الأسعار

وكسدت التجارة، تمنى الناس لو تنتهي الحرب مع المتمردين سريعًا.. أيًا يكون المنتصر.

كان مشرف التابعين يتابع بناء الآلة التي أحضر الملك تصميمها على رقعة جلدية، حاول ياسين معرفة من صاحب هذا التصميم المتطور، لكن الناصر ادعى أنه وجدها في المكتبة.. كانت الآلة متطورة تعتمد على قذف الحجارة ضخمة الحجم لمسافات بعيدة بتوجيه دقيق، أقرب لمدفع حجري، أو منجنيق متطور.

لم ينم التابعون بسبب تعليمات الملك الناصر ببناء أربع آلات لقذف الأحجار الضخمة قبل وصول المتمردين، حذر أنسي من استخدام هذه الآلات، فهي ستقتل من الأهالي ومن جنود الناصر أكثر ممن ستقتل من جنود التمرد.. لكن أحدًا لم يستجب له.

بات الأمير أنسي ليلته الأخيرة بجوار زوجته دانية، كان يحلم بالإنجاب منها بلا فائدة، فكر في الزواج من أميرة أخرى، لكنه خشي أن يكون العجز فيه، فتحجج بغرامه بدانية حتى يتهرب من حقيقة أنه لا ينجب.. شرع أنسي في ملامسة الأميرة دانية، قرر أن يترك لها ذكرى مبهجة تعينها على أيام الاحتماء بقطاع الحكم، وقد وضع فرضية بموته داخل قطاع التابعين.. تعمد خلع ملابسه ببطء أمامها مستعرضًا جسده القوي الموشوم من عند الصدر الأيمن بشكل مثلث صغير الحجم.. وشرع يداعب زوجته كأنه يلمسها للمرة الأخيرة.

قطع انهماك أنسي صوت طرقات عالية على باب جناحه، نهض بسرعة عازمًا على قتل من يطرق بابه، لكنه وجد ياسين أمامه بملابس النوم، كان منظر ياسين مضحكًا بجسده الهزيل وملابسه الفضفاضة:

- سمو الأمير، الملك الناصر..

توقف ياسين ليلتقط أنفاسه، بدا على أنسي القلق، سأله عمَّا أصاب الملك، فقال ياسين:

- وصلنا مرسال من أحد التابعين يبلغ الملك بوجود نسخة من كتاب الأثر.. فأسرع الملك دون حراسة مكثفة لقطاع التابعين والعلماء..

ضرب أنسي رأسه بيده وسأل ياسين:

- وماذا حدث؟

اتضح أنه فخ من المتمردين، لقد احتلوا القطاع كاملًا. وأسروا الملك الناصر بداخله.. وقد أرسل لنا سليمان الراشد مع رسوله الشخصي يساومنا، إما أن نسلم العرش أو يقتل الملك!

xxx

لم تفهم نادين كيف تحمَّل الأمير يزن الحياة وسط هذه الجدران الأربعة لما يزيد على خمسة وعشرين عامًا، حتى وإن كان الجناح ملكيًا.. فالحبس لا يُطاق أكثر من يومين.

- هل قضيت كل هذه الأعوام تقرأ فقط؟

رد يزن وهو يجلس بين أدواته العلمية، وقد غطى فمه بقطعة من القماش جعلت صوته مكتومًا:

- وهل القراءة عمل ينتهي؟ لقد خلف لنا الكثير من الكتب، حتى وإن ضاع التاريخ، فهناك الكثير مما يُقرأ.. ومن قال إنني أقرأ الكتب فقط؟

بدا على نادين الدهشة، فأردف يزن قائلًا:

- كنت أقرأني كذلك، أحاول أن أفهمني..

هز كتفيه قائلًا في حزن:

- صحيح أنني فشلت، لكنني تعلمت قراءة البشر.. يمكنني معرفة الكذب حين يُذكَر أمامي.

حاولت نادين الاقتراب منه، لكنه أشار إليها حتى تبقى بعيدًا، فالمواد التي يتعامل معها خطيرة إن استنشقتها عن قرب، قالت له في دلال وهي تتأمل عناوين الكتب والمخطوطات التي لديه:

- أخبرني بكذبة تلوتها عليك!

قال يزن وهو يتأمل نادين:

- قلت لأخي الناصر إن المستشار الجديد هو أخٌ لك، وأنكِ جئت من الصحراء.. أليس كذلك؟

- يبدو أنه يسرد عليك كل الأحداث.

- المستشار عشيقك، ليس بأخيك.. ولا أعلم منشأ لك، لكنه مكان لا أعلمه.

لم ترد نادين، فأكمل يزن:

- حتى قصة نزولك إلى الغرفة المحرمة من الجناح الملكي..

قاطعته نادين معترضة:

- لم أكذب فيها!

- لم أقل إنك كذبتِ، لكن ياسين هو من كذب عليك.. لم يكن لديه نية للهرب معك، كان يريد إخفاءك في أي مكان بالمملكة، ويبقى هو مستشارًا للملك.

فكرت نادين في كلام الأمير يزن، كادت أن ترد لكن قاطعها هذه المرة هبوط شخص آخر من فتحة التهوية، لم يتح لها وقت هذه المرة لتختفي عن ناظريه، صعقت حين وجدتها غالية.. لم يبدُ على يزن الدهشة وسألها بفتور:

- ماذا حدث؟

سألته نادين باستنكار:

- أتعرف غالية؟

ردت غالية بلهجة ماكرة:

- أنا السبب في محبسه هنا.. المحير هو كيف وصلت إلى هنا..

قاطعها يزن بصرامة:

- أخبرتك ألا تأتي إلا حين يُصاب الناصر بمكروه!

ردت غالية بشيء من الشماتة:

- وقد حدث ما كنت تخافه.. أخوك أسير في قطاع التابعين. وجيش التمرد قد احتل القطاع.

بدا على يزن الغضب، ألقى بعض الأدوات من أمامه، كان صوت تحطم الزجاج عاليًا.

نهرته غالية قائلةً:

- اهدأ، سيسمعنا الحرس بالخارج!

أخرستها نادين بلهجة حاسمة:

- فليسمعوه، إن لم يخرج الآن.. فمتى سيخرج!

رد يزن في تردد:

- لقد أقسمت لعائلتي ألا أخرج من هذه الغرفة ما حييت!

بدأت غالية تقتنع بما قالته نادين وقالت:

- أي عائلة؟.. والدان رحلا وأخٌ أسير!

لم يرد يزن، كان في حيرة حقيقية من أمره حتى اقتربت نادين من يزن، أمسكت بكتفيه، وقالت متكئة على حروفها:

- لست مهتمة بمعرفة سبب حبسك هنا، ولن يسأل أحد عن وسيلة عودتك.. لن يذكروا سوى عن الملك العائد الذي أنقذ أخاه من المتمردين.. صدقني، لا حل أمامك سوى الخروج من هذه الغرفة، التي ضاقت عليك، وإعلان عودة الوريث الحقيقي للعرش: الملك يزن.

لم يصدق الجنود ما سمعوه من قائدهم الجديد، ياسين الهواري.. فقد أمرهم باستخدام قاذفات الأحجار المثبتة حول قطاع التابعين، ودك القطاع كاملًا على من فيه.

وقف ياسين على تبة عالية تتوسط ساحة تدريب الجنود، وبدأ يصدر أوامره لقيادات الجيش، الذي وقف كلٌّ منهم على رأس كتيبة من الكتائب الثلاثين الباقية من جيش الملك الناصر.. كان ياسين قد أعلن حالة الطوارئ في الجيش، وأمر بتسليح جميع الجنود والشباب من العوام، وقد وقف الجيش متراصًا في صفوف مترامية لا يرى نهاية لها.. وقد ارتدوا

دروعًا حمراء بلون الدم رسمت عليها جثث متراصة فوق بعضها، كانت تشبه الرسوم التي رآها ياسين في الجناح الملكي، والتي عرف أنها الأيقونة المميزة لمعركة التوحيد.. حاول مرة أن يرتدي درع سليمان الراشد الذي وجده في جناحه، لكنه كان ثقيلًا عليه، فظل بلا درع، وإن اختار معطفًا جلديًا مميزًا لقائد الجيش، وذلك أكسبه ضخامة نسبية، وجعل له مهابة عن منظره الهزلي يوم قتال التابعين.

تخيل ياسين مظهره بشعره الطويل المموج فوق رأسه، وجسده النحيل وعينيه الجاحظتين.. كان يعلم أن منظره لا يليق بقائد للجيش، ولا حتى بمساعد للملك، هو مجرد أحد العوام، أو على أقصى تقدير عالم من علماء المكتبة.

لم ينل احترام قيادات الجيش ولا جنوده، لكنهم كانوا يثقون بذكائه، وقد لاحظوا مدى التطور في مستواهم وأدركوا براعته في وضع الاستراتيجيات الحربية، والتي جعلت القائد سليمان الراشد ينقذه من الموت المحقق، ويرفعه لأعلى مكانة في مملكة المخلدين.. لم يفقد أحدهم احترامه للقائد سليمان الراشد على تمرده ومحاربته لهم، لكنهم بدءوا يلتمسون له الأعذار، ويبحثون في مبررات لا منطق لها، كأن يكون قد طعن في السن وبدأ يخرف، أو أن يكون خلافه مع الناصر شخصيًا.. لكن أحدًا من القيادات لم يبدِ محبة القائد على ولائه للجيش.. وهو ما جعل ياسين يثق فيهم.

صاح أحد القادة القدامى معترضًا:

- كيف ندك القطاع والملك بداخله؟

رد ياسين في حزم:

- وكذلك جميع المتمردين أيضًا.

أردف ياسين شارحًا وجهة نظره لقيادات الجند:

- لقد تجمع جيش المتمردين كاملًا في القطاع، وأغلقوه على أنفسهم لحين تنازلنا عن العرش، هذه فرصة لن تعوض للتخلص من كل أعداء المملكة.

- وسنتخلص من الناصر نفسه!

قال ياسين بصوت حاول رفعه، كان الجنود ينقلون حديثه للصفوف الخلفية، حتى يسمع كل الجنود بساحة التدريب:

- لقد خرج الأمير أنسي في مهمة خاصة لإنقاذ الملك، وفي كل الأحوال سأدك قطاع التابعين.

صمت الجند، فهتف ياسين فيهم محفزًا:

- الملك، أسير، والأمير خلفه.. لا قائد هنا غيري، من أراد منكم المعصية فليذهب للراشد.

قال أكبر القيادات سنًا:

- ولكن التابعين كذلك بالداخل، والعلماء أيضًا.

- لقد عقدنا اتفاقية مع الراشد. سنستلم منه العلماء والتابعين، لضمان حسن نيتهم.. ونترك له الناصر ومكتبة المملكة.

لم يشعر ياسين يومًا بأهميته كهذه اللحظة، خطب ياسين بأعلى صوت لديه في الجنود:

- لو كان الملك بيننا لأمركم بطاعتي.. أعلم أنني غريب عن المملكة.. لكنني المستشار وقائد الجند، القرار ليس سهلًا، سأحمل الكثير من الدماء في رقبتي.. لم أقتل يومًا، لكن الظروف تحكم، وإن

لم نئد الثورة لترعرعت في ديارنا حتى قتلتنا.. كيف ستشعرون حين يحكمكم الخونة؟! كيف ستنظرون لأبنائكم وقد تخاذلتم عن طاعة القائد؟ هل سيرضى الملك الناصر بالحياة أسيرًا للكاملين وشيخهم! ملككم الناصر العزة لديه أهم من الحياة، يفضل الموت على ضياع المُلك.. لقد أقسمنا جميعًا على توحيد المملكة، مهما كلفنا الأمر.. لن تشرق شمس الغد إلا وقد مات التمرد!

أردف ياسين بلهجة لم تقبل نقاشًا من القادة:

- حين يعود العلماء والتابعون، أقيموا المجانيق حول سور القطاع. وعند الشروق سنهدم القطاع فوق رءوس الجميع فيه!

مرَّ الليل دون جديد، أغلق كل حكام القطاعات، فقط تم إخلاء التابعين من قطاعهم، ولم يبقَ بالداخل سوى جيوش التمرد والملك الناصر، ظل سليمان الراشد منتظرًا استسلام الجيش وتسليم العرش له..

لكن ما حدث حين شروق الشمس لم ينسه أحد من أهل مملكة المخلدين، فقد نصب جنود قطاع الحكم قاذفات الأحجار الأربع حول قطاع التابعين، وبدأوا يضعون أحجارًا ضخمة ثقيلة الوزن، كان ياسين قد أمرهم بتجهيزها من فترة طويلة، وإحضارها من المناطق الصخرية في صحراء المملكة.

كان الحجر الواحد بحجم بيت صغير، وقد تم تنفيذ قاذفات الأحجار مثل التصميم الذي وضعه يزن بالضبط، الذي كان مبهرًا وقد صممه الحرفيون بإتقان ومهارة، يضمن تحمل وزن الأحجار، وكذلك دقة وصول كل حجر لهدفه بالضبط.

انقسم جيش المملكة لقسمين، قسم ينقل الأحجار ويثبتها على طرف ذراع الرمي العملاقة، وهي الجزء الأهم في المنجنيق، ويثبتون كتلة على الجانب الآخر من الذراع لتحفظ اتزانها، وحين يتم ضبط التوجيه يأمرهم القائد بإزاحة الكتلة فيقذف الذراع الحجر الضخم بسرعة وقوة لمسافات بعيدة.

أما الفرقة الثانية من الجيش فقد حاوطت قطاع التابعين على مسافة مناسبة، لتفتك بكل من يحاول الهروب من الأحجار المتساقطة.. كان الحصار برًا وجوًا.

لم يخفِ الجنود إعجابهم بياسين الهواري، الذي وضع خطة محكمة للحرب مع المتمردين، حين أفسح لهم قطاع التابعين وأهدى لهم نصرًا زائفًا، حتى يتخلص منهم دون خسارة جندي واحد في جيشه.. أما على الجانب الآخر فقد صعق القائد سليمان الراشد وأمر جنوده بالهروب سريعًا من القطاع، وحين وجدوا جنود المملكة ورماة الأسهم في انتظارهم عادوا مرة أخرى، الراشد نفسه عرف أن تلميذه تفوق عليه ببراعة.. وأن نهايته على يد هذا الغريب مأساوية بحق، هو الذي أفنى جيوشًا وممالك، وحارب في كنف الملك الموحد.. ينقطع عمله من الأرض بخدعة من الهواري!

لم ينجُ من هذه الملحمة سوى أعداد قليلة من المحظوظين، الذين لم تطلهم الحجارة، منظر الأحجار كان فاجعة حقيقية، هدمت البيوت، لم تبقِ ولم تذر شخصًا على قيد الحياة، لم يكن هناك مجال للنجاة.

عرف ياسين فيما بعد أن القائد سليمان قد مات باكرًا، قبل أن يشهد فرق التمرد من فلول الجيش ومن الكاملين وبعض من النواقص وهم

يفنون جماعة تلو الأخرى.. كان المشهد مليئًا بالأتربة والدماء، وأحيانًا النيران التي لم يعرف أحد مصدرًا لها حتى الآن.

كان المشهد مخيفًا بحق لجميع من بالقصر، المعركة قائمة والحدث جلل.. ولا أحد لديه الصورة كاملة، جميع أمراء الحاشية احتموا بالقصر وحرسه.. عزلوا أنفسهم عما يحدث في الخارج، حتى سمعوا صوت أزيز عال في الطابق الثاني.. وقد انفتحت أقفال الغرفة المحرمة من الداخل بعد أن صدأت أقفالها.. كان صوت الأحجار وتجمع الجيوش أكبر بكثير.. لكن مفاجأة ظهور يزن نالت حظها أيضًا.. ارتدى يزن ملابس حربية بالية يقال إنها من أثر الملك الموحد، لكنها بدت عليه فخمة. وكأنها مفصلة خصيصًا له.

كانت نادين قد عادت لجناح الحكم من فتحات التهوية، وزيفت المفاجأة بعودة يزن، الذي خطب في الحاشية بالقصر، وأخبرهم أنه لم يكن ميتًا، وأنه أقسم لوالده ألا يخرج أبدًا من الغرفة المحرمة لسر قديم بينهما، وأنه لم يحنث القسم إلا حين علم بما جرى للناصر، الذي دُك القطاع فوق رأسه دكًا.

خرج يزن على فرس الملك الناصر من القصر، وقد نشر الحرس خبرًا بين العامة يخبرهم بعودة الأمير يزن، وأنه لا يزال حيًا، كان بعض الناس قد نسي اسمه من الأساس.. تحرك يزن مسرعًا في فزع حين عرف بخطة ياسين في دك القطاع على رءوس من فيه.. حاول يائسًا إثناء الجنود عن دك القطاع، تنقل بينهم واحدًا تلو الآخر، يأمرهم مرة ويتوسل إليهم مرة، لكن الجميع كانوا في سكرة الانتصار وشهوة القتل، وكأن ياسين قد غسل عقولهم بالفكرة.. الخروج من معركة عظيمة دون خسائر، فقط ضحية واحدة.. صحيح أن الضحية هي أهم شخص في المملكة، لكن الانتصار مضمون.

كان الأمر بالنسبة ليزن أشبه بمعضلة، لم يعرف موقفه منها، حتى وهو يمنع الجند عن هدم قطاع التابعين بالكامل.. لم يعرف إن كان ياسين على حق في حفظ جنود الجش وجعلهم يتحاشون معركة قد يخسر أغلبهم فيها، أم أن الناصر ثمن غالٍ لهذا النصر؟!

لم يستطع يزن وقف ما حدث، جمع أمراء الحاشية والعوام في ساحة القصر، وقد أغلق القصر الفرعي على نساء الحاشية، أعلن عودته كأمير ونائب للملك الناصر.. كان استقبال الناس له مضطربًا، منهم من لم يصدق أن هذا الأمير يزن، ومنهم من شكك في ولائه للناصر.. ومنهم من اتهمه بالتحريض على التمرد.. لكن وصول ياسين وخلفه جنود الجيش حسم الأمر.

لاحظ الجميع أن نظرة الجنود لياسين اختلفت بعد الحرب، وقد اكتسب احترامًا ومهابةً بين جميع القادة والعسكر.. فقد فضّل حياتهم ونجاتهم على حياة الملك نفسه! حتى وإن كان ولاؤهم للملك عظيمًا، فامتنانهم لما فعله ياسين كان أعظم.

تقدم ياسين صاعدًا سلالم القصر، حيث يقف الملك يزن في نهايتها، وقد اجتمع معظم أهل القطاع وتكدسوا في ساحة القصر وما حوله.. ركع ياسين على ركبته اليمنى وقال بصوتٍ عالٍ:

- الولاء كل الولاء للأمير يزن.. بطل المعركة الحقيقي.

استدار ياسين مخاطبًا الجميع أمراءً وجنودًا....

- الأمير يزن هو من صمم قاذفة الأحجار.

ضحك يزن وقال بصوتٍ عالٍ:

- أنا لست «الأمير» يزن.. أنا الملك يزن بن الفريد بن الموحد.. رابع ملوك مملكة المخلدين، العائد من حبس دام لأكثر من عشرين عامًا.. الوريث لعرش الملك الناصر، ليكن من الكاملين.

أمَّن الجميع على حديث يزن، لكنه فاجأهم بأن أخرج سيفه الضخم، وأشار لياسين حتى يعود راكعًا أمامه كما كان، وضع نصل السيف على رقبة ياسين وقال مخاطبًا الجميع:

- القائد ياسين شجاع، أخذ قرارًا حاسمًا في وقت مهم من عمر المملكة، لكنه قتل ملكه، وقتل ابن عم الملك حين أدخله قطاع التابعين في مهمة انتحارية بمفرده.. لا نشكك في حكمته، ولكن ولاءه لم يعد مضمونًا.

نظر يزن نحو الجند الذين بدا عليهم الامتعاض لحديث يزن، وتحدث بثبات دون إنزال السيف من فوق رقبة ياسين الذي استسلم تمامًا ليزن:

- كيف تأمنون قائدًا وضع مصلحته فوق مصلحة ملكه؟ كيف سأئتمنه على حكمي!

- «ومن قال إن ياسين خان ملكه.. ومن قال إنك الحاكم أخي العزيز؟!».

صعق الجميع حين ظهر الملك الناصر من خلف يزن، كان مختبئًا كل هذا في القصر.. كانت الصدمة أقوى من يزن، على الرغم من بنيانه الأضخم من الناصر، إلا أنه استسلم تمامًا للناصر وسلمه السيف متنحيًا خطوة للخلف، نظر الملك الناصر للجميع وقال:

- أسري في قطاع الحكم كان مجرد خدعة.

أمسك الناصر بكتفي ياسين وأوقفه إلى جواره، وقال وهو يشير نحوه في فخر:

- كل ما حدث كان خطة محكمة من القائد ياسين، القائد الذي تحمل اتهامكم له بخيانة ملكه.. في حين أن ولاءه لم يكن لأحدٍ سواي.. كل هذا من أجلكم، كل هذا للتخلص من كل أعداء المملكة دفعة واحدة!

٣١- الموحد الجديد

لم يستوعب «يزن» ما يحدث بالمملكة، كانت هذه المرة الأولى، التي يخفي عنه الناصر فيها سرًا من أسرار المملكة، شعر كأنه أحد الحاشية، ممن تتوقف حدود معرفتهم على الأمور العامة.

ترك يزن الحاشية يحتفلون بنجاح خطة ملكهم وقائد جيشه، وقبل أن يدخل مرة أخرى للقصر لاحظ من بعيد امتعاض العوام وانصرافهم دون احتفال.. فأدرك أن لهذا الضيق معنى يجب أن يتدبره.

توجه يزن نحو قاعة الحكم، أمر الحرس بفتح الجناح، فأطاعه الحرس بعد ارتباك، أرسل حارسًا ليبلغ الملك الناصر بوجوده في القاعة.. قضى ليلته جالسًا في القاعة، منتظرًا قدوم الناصر وياسين.. لم يشغل باله بالعقاب الذي سيوقعه الناصر على نادين لاختفائها.. كان واثقًا أنها ستجد حجة لغيابها، وسيقتنع الناصر تحت تأثير انتصاره على المتمردين ونجاح خطته.

أما الملك الناصر فقد صمم على إقامة حفل ضخم للحاشية بنجاح خطته في القضاء على المتمردين بجميع أنحاء المملكة.. لكن طلب يزن للقائه بقاعة الحكم هو وياسين قطع إشرافه على إعداد الحفل.

- هل تعتبران ما فعلتماه انتصارًا؟

نظر الناصر في تردد نحو ياسين، منتظرًا رده على استهجان يزن، ففعل ياسين قائلًا:

- بالطبع.. جمعنا كل أعداء الناصر في مكانٍ واحد.. تخلصنا من كل ثائر محتمل ووأدنا كل مشروع للثورة، جعلنا شيخ الكاملين بلا قوة حقيقية، لو أردنا مداهمته الآن لفعلنا.

نهض يزن من مكانه، كان أطول من الناصر وأعرض من ياسين، لم يخفِ ياسين الهواري رغبةً بداخله أن يكون يزن هو الملك بدلًا من الناصر، لما له من حضور وهيبة، لكنه لم يكن خيارًا مطروحًا قبل اليوم..

قال يزن وصدى صياحه يتردد في قاعة الحكم:

- هدمتم قطاعًا كاملًا على من فيه، والمكتبة التي جُمِعَ فيها تراثنا؟

رد الناصر:

- تم إخلاء المكتبة من الكتب المهمة سرًا، وجميع نسخ «الأثر» موجودة هنا في قاعة الحكم.. وجميع التابعين تم تسليمهم قبل دك القطاع.

عقب ياسين بلهجة ماكرة:

- يبدو أن الأمير يزن كان أسيرًا منذ زمنٍ بعيد.. لم يعرف أن قطاع التابعين والعلماء أصبح مجرد مجموعة من المساكن الخربة.

نهض ياسين من مكانه، توجه نحو كرسي العرش المنحوت عليه اسم الملك الناصر أسفل اسم والده وجده.. أخرج رقعة جلدية فخمة، فردها

بهدوء، ووضعها أمام الأمير يزن، كانت الرقعة مكتوبة بخط القائد سليمان الراشد:

«إقرار من القائد سليمان الراشد، قائد جيوش الملك الموحد، الذي عاصر الملك الفريد، وعمل مساعدًا وقائدًا لجيوش الناصر..

لم ولن تكن هناك نية للتمرد على نسل الملك الموحد، الذي أفنيت سنواتي في خدمته، كل ما سيحدث بدايةً من لحظة كتابة هذه الكلمات تم بالاتفاق المسبق مع الملك الناصر ومستشاره..

كل شيء بدأ حين كان المستشار ياسين في جناحي بقصر الحكم، واقترح عليّ أن أخلد اسمي في تاريخ المملكة وأثرها.. بجانب الملك الموحد والملك الفريد وبقية عظماء المملكة، وحين وجد مني موافقةً على التضحية بما تبقى لي من أيام قليلة في سبيل المملكة اجتمعنا في قاعة الحكم، وقد حضر الاجتماع حكيم المكتبة.

كانت الخطة تقتضي تحريضي لجنود الجيش على الانقلاب على الملك، وزرع الفتنة في نفوسهم، فمن يستجيب لدعوى التمرد فهو من الخائنين، وأن أطوف بين جميع القطاعات أجمع الكارهين لحكم الناصر والراغبين في الثورة.. تلخص هدفنا في صناعة فخ لكل من يفكر في الثورة مستقبلًا، حتى يستتب الحكم للناصر ومن خلفه من آل الموحد.

ولكن كأي معركة تستوجب التضحية، فقد اقترح المستشار أن نقوم أنا وحكيم المملكة بهذا الدور.. حتى يصدق المتمردين حقيقة الثورة.. وهو ما حدث، فقد اتفقنا على هروبي، وعودتي بكامل المتمردين للهجوم على قطاع الحكم، وإحراق المكتبة عمدًا وبداخلها الحكيم، حتى تكون ذريعةً لاختلاق كذبة زيارة الناصر لقطاع التابعين، فنقتحمه

بحجة أسر الناصر.. وحينها يتم دك القطاع فوق رءوس الجميع بمن فيهم أنا.

أعرف أنها خطة حالمة، لكنني أثق في قدرتي على تجميع جميع المتآمرين على الناصر تحت لواء واحد، وكذلك معرفة إن كان هناك جواسيس داخل القصر ينقلون أخبارنا أم لا.. انشروا هذه المكاتبة بين العامة».

لم يصدق يزن ما يقرأ، ترقرقت دموعه حين وصل للجزء الأخير من الخطاب:

«وصيتي الوحيدة لكم، انشروا قصتي بين العوام، علموا الناس كيف ينتمون ويحبون المملكة.. أخبروهم بأن الحياة ثمن زهيد للكرامة.. اذكروني في «الأثر» وفي «أثر» تتركوه».

تنهد الناصر في حزن قائلًا:

- كان قائدًا بحق.. ليكن من الكاملين.

ردد يزن خلفه العبارة، قال ياسين بلهجة فخر:

- ما حدث لم يؤمن المملكة فقط ضد أعدائها السابقين، لكنه سيجبر أي طامع على التفكير ألف مرة قبل أن يتحرك تجاه العرش مرة أخرى.. مخافة تكرار نفس الفخ.

سأل الأمير يزن مستدركًا:

- هل كان الأمير أنسي مشتركًا معكم فيما تدبرون؟

تدخل ياسين قائلًا:

- لقد صمم على الذهاب لتحرير الملك، لم أستطع كشف الخطة أمامه وأخبره بأن الملك مختبئ في قبو القصر، ولم يذهب لقطاع التابعين، خشيت أن يكون من المتمردين.

عاود يزن السؤال:

- وماذا عن الجاسوس داخل القصر؟

رد الناصر بلهجة آسفة:

- لم تأتِ لنا أي مراسلات من القائد سليمان بخصوص هذا الشخص.

مرت الأيام الثلاثة التالية هادئة، أفاقت المملكة من حرب التمرد، وقد بدأ الناصر في إعمار قطاع التابعين، فيما اعتكف يزن بداخل غرفته التي أزيلت الأقفال من عليها ولم تعد محرمة.. سامح الناصر زوجته نادين سرًا، ولم يعرف خبر اختفائها القصير سوى ثلة قليلة من الحاشية.

أما ياسين الهواري فقد اتسع نفوذه، أصبح الآمر الناهي الأول في القصر، وقد زهد التقرب إلى نادين التي حاولت التواصل معه بأكثر من طريقة، أدرك أنها ليست الحليف المثالي لهذه الفترة.. طلب من الملك الناصر أن يرشح له أميرة ليتزوجها، فغاب عنه الناصر، خمَّن أنه لا يريد اختلاط النسب الملكي بنسب شخص غريب، حتى رشح له الناصر الأميرة «ثيرا-مِي»، وهي الابنة الصغرى لملك مملكة الرمليين، فوافق ياسين لما لهذا الزواج من أهمية سياسية بالنسبة لمملكة المخلدين، كما أنه سيضمن منصبه كمستشار للملك.

سمع ياسين الهواري الكثير من الشائعات بخصوص مخطوبته «ثيرا-مي»، أولها أنها شديدة القوة، تجيد القتال، وأنها من تقود جيوش والدها من الرمليين، وأنها صاحبة فكرة تأجير الجنود الرمليين في مملكة المخلدين، لتثبيت الخوف في نفوس المخلدين، والحصول على عدد من الموالين للرمليين في نسيج المملكة.

لكن خبر خطبة مستشار ملك المخلدين من أميرة الرمليين لم يكن هو حديث العوام في المملكة، فقد سيطر خبر عودة الأمير أنسي حيًا بعد دك قطاع التابعين فوق رأسه.. فقد عومل من العامة معاملة الأبطال، وتعاطفوا معه لأنه لم يكن على علم بخطة الناصر، وذهب في مهمة انتحارية لإنقاذ الملك، مما زادهم سخطًا على الملك ومستشاره، اللذين تركاه يواجه قدره.

نجح أنسي في الاستفادة من هذا الموقف، فقد تعمد أن تستقبله زوجته خارج القصر، حتى يتعاطف العوام مع منظر عناقهما، خاصةً أنه لم يترك لها ولدًا ولا جاهًا، وكذلك بدأ يسرب أحاديث عما شاهده أثناء دك القطاع، وعدد الأبرياء الذين ماتوا تحت الأنقاض.. كان ياسين يعلم أن أنسي في الغالب لم يدخل قطاع التابعين، وأنه اختفى هذه الفترة حتى تنتهي الحرب ويعود مُطالبًا بمنصب من الطرف المنتصر، لكنه لم يشأ إثارة المزيد من السخط بإعلان هذا الرأي.

أوصى الناصر برسم لوحات تجسد بطولته في المعركة، وكيف وحد المملكة من جديد، وقضى على الفتنة ووأد التمرد في مهده، وأوصى العلماء بتأريخ المعركة وذكائه خلالها في كتاب «الأثر»، وكيف انتصر دون خسارة جندي واحد من جيشه المخلص، كل هذا بذكائه وبتضحية عظيمة من القائد سليمان الراشد، دون ذكر واضح لياسين، وقد أدرك ياسين أن اعتراضه على هذا التهميش سيكون حماقة، فآثر الصمت.

وبعد ثلاثة أيام استقرت باقي القطاعات، وتقدم شيخ الكاملين باعتذار مُعلَن للملك الناصر عن التمرد، وقام ياقوت بإعلان نفسه حاكمًا رسميًا للزهاد، مطالبًا بحضور المجلس التوحيدي، كما أعلن فرض ضريبة على عملية الدفن، لكن جعفر بن غالية وحده من تعامل مع التمرد، كأنما لم يحدث من الأساس.

ولكن انقلبت الأمور رأسًا على عقب في صباح اليوم السابع من «معركة التابعين»، فقد هرب الأمير أنسي وزوجته من قصر الناصر. وطالب أنسي بحقه في العرش، أخرج مرسومًا بخط يد والده الملك العطّاء يعلن فيه رغبته في استرداد العرش، الذي تنازل عنه للملك الفريد.. وكذلك بتوريث هذا العرش المستحق للأمير أنسي.

طعن الناصر في هذا الخطاب، وشكك في رغبة الملك العطاء في الحكم، اقترح ياسين إرسال مبعوث لقطاع الزهاد، ليتحقق من الأمر، فأكد الرسول أن العطّاء رحل عن الزهاد منذ فترة وجيزة، تاركًا لهم رسالة برغبته في الترحال بين القطاعات بحثًا عن علاج لمرض ألم به.

سرى خبر رغبة أنسي في عرش أبيه سريعًا بين العوام، وقد لاقى استحسانهم، خاصةً بعد أن نشر أنسي بصاصيه يروون قصص من ماتوا في معركة التابعين، وكيف كانوا جميعًا من الساعين لتبديل حكم الناصر بشكل أكثر عدلًا، وأنهم لم يطمحوا لسلطة أو مجد شخصي.

عادت الثورة في الأسواق، وراجت سكرة الانتصار، وتذكر الناس مساوئ الناصر وضرائبه.. بدأ العوام يلتفون خلف أنسي الذي احتمى بهم، من فتك الناصر به وزوجته الأميرة دانية.. بدأ أنصار الملك الناصر يرددون أن الملك الفريد والناصر تحملا المسؤولية حين تنصل منها

العطاء وزهد الحكم في وقت عصيب بعد وفاة الموحد.. وقد لاقى هذا الرأي إعجاب العامة كذلك.. فسادت الحيرة.

اجتمع المجلس التوحيدي دون إذن الناصر، وقد أجمع جعفر وياقوت وشيخ الكاملين وحكيم العلماء على تساوي الكفتين، وأن الناصر وأنسي كلاهما محق.. حتى اقترح أنسي أن يتم الاحتكام للمبارزة، فوافق جميع الحضور، وكأن الأمر أشبه بانقلاب على الناصر الذي لم يستطع الرفض حتى لا يهز صورته كبطل لمعركة التابعين، فوافق على مضض، حاول أن يؤجل المباراة ليكسب وقتًا يفكر فيه مع ياسين في حل..

لكن ياسين نفسه ظل هائمًا طيلة الجلسة، لا يصدق أنه يرى ياقوت أمامه بعد أن شهد وفاته، ولا يصدق ما وصله ياقوت من مكانة وهيبة، وما سمعه عنه من خوارق أقنعت الزهاد الرافضين لكل من ليس منهم، ظل جالسًا متعجبًا من تسارع الأخبار والأحداث، منذ شهر تقريبًا كانت نادين محبوبته وياقوت خفيرًا في موقع عمله.. الآن أصبح كلٌّ منهم في منزلة عالية في عالم لا يعرفون عنه شيئًا.

قاطع خواطر ياسين طرقة حازمة من يد الأمير أنسي، يعلن من خلالها تصميمه على النزال صباح اليوم التالي في ساحة قتال التابعين.. وبحضور الحاشية والعوام.. وقد وافق المجلس فيما يشبه الانقلاب السلمي.. كان أنسي أقوى من الناصر، ولديه حجة سليمة للحكم، وكذلك كانوا يريدون امتصاص غضب العوام على كل من شارك في معركة التابعين الزائفة.

انصرف المجلس، ولكن بقي الناصر ومستشاره، جالسين في صمت، قضى الملك الناصر ليلته فوق كرسي العرش كأنما يودعه.. نظر لياسين الذي بدا كالمسحور:

- لم أتم السنة على هذا العرش.. وقد ذهب عني! في الماضي كنت أؤلف الحكايات الوعظية أتلوها على العلماء في مكتبة الحكم، أنهي الحكاية دائمًا بموعظة أن العرش زائل وزائف.. وأن بريقه خدّاع.. طالما أثنى الحكيم على كتابتي، وعلى رؤيتي الصادقة للحكم.. لكن القائد سليمان الراشد لم يقنع بما أفعل، أذكر حين بلغت الرابعة عشرة، وقد تكرر معي ما حدث مع الملك العطّاء قبل رحيله.. سألني الراشد كيف أريد قتال التابعين العشرة.. عُزّل أم بسيوفهم؟

نهض الناصر وأخرج سيفه بصعوبة، نظر له ياسين بشفقة، فهذا البنيان الضئيل لا يصلح لملك، أردف الناصر:

- لم أكن يومًا من الفرسان أو المقاتلين، فطلبت من الراشد أن يجردهم من السلاح، نظر لي مبتسمًا وعلق قائلًا إن أبي الفريد اختار نفس الاختيار، في حين اختار العطّاء أن يحاربهم بسيوفهم.. وهذا الفرق بين المحارب والسياسي.

بدا على ياسين الاهتمام، وسأل الناصر:

- وماذا حدث بعدها؟

- قتلتهم جميعًا وهم عُزّل.. يومها أدركت أن شيئًا بداخلي قد تغير وانكسر.. مكثت لأسابيع لا أنام، أرى التابعين في أحلامي، لعنت الموحد وقانونه الذي يلزم ولي العهد بقتل عشرة من تابعيه.. أخبرني الحكيم لاحقًا بأن هذا القانون يعلم الحاكم الزهد في الدماء، ويريه أبشع ما في نفسه حتى لا يظلم ولا يجور.. لكنني لم أقتنع يومًا.

ظل الناصر يرتجف، وضع كل التصورات المحتملة لنزال الغد، ضحك في هيستريا وقال لياسين:

- ستنتهي المبارزة خلال دقائق.. تخيل الأمير الفارس أنسي بن العطّاء الذي لم يهزم من أشجع وأقوى أعدائه يواجه الناصر بن الفريد العاجز عن اصطياد غزال!

- يمكننا التفكير في حل، ألا تذكر مبارزتي مع ذلك التابع صخر؟

- لم يعد هناك سليمان الراشد لينقذني كما فعل معك.

- ليكن من الكاملين.

- لا تحاول تزيين الحقيقة، هذه آخر ليلة لي على الأرض، فإن انسحبت قضيت ما بقي لي من عمر في عار حفيد الملك الموحد، الذي انسحب من نزال أو خاف مواجهة ابن عمه!

- «ومن قال إن أنسي سينتصر غدًا.. هل تراني ميتًا أمامك؟!».

صدرت هذه العبارة عن يزن الذي اقتحم غرفة العرش دون إذن، تحرك بقامته الفارعة واقفًا بجوار الناصر وقال:

- أنت تعلم أنني عدت لأحكم، وقد اكتفيت من تحريك الأمور في الخفاء.. وأنا لن أنقلب على أخي، فتاريخي لن يحتمل عارًا كهذا.. لكنني سأبارز أنسي باسمك وبسيفك، وحين أنتصر ستتنازل لي عن الحكم وتصبح أنت قائد الجيوش.

رد الناصر مستنكرًا:

- لن أتنازل عن العرش!

كاد ياسين أن يعترض، فهو لن يترك الجيش، لكنه انتظر حتى يسمع قرار الناصر.. تحرك يزن خلف العرش، تحسس ظهر كرسي العرش وأكمل حديثه:

- أخي العزيز.. أثق في ذكائك، ستنجو من سيف أنسي وتبطل حجته، وستخرس ألسنة العوام الذين انتقدوك كحاكم سفك الدماء، وستصبح قائدًا للجيش لك حظك واسمك في «الأثر».. وسيذكرك الناس بهذه المعركة دون ما تلاها من كوارث قد تحدث إن استمر حكمك.. ستظهر في صورة الملك العادل، الذي ترك العرش لأخيه الأكبر الذي يستحقه بحكم السن، وستلهي الناس عنك في قصة عودتي.

بدا على الناصر التردد، نظر له ياسين محذرًا من الموافقة، لكن لم يكن لديه حل بديل لما طرحه يزن، كان هناك جزء بداخل ياسين يعرف أن يزن لديه العرض الأمثل لنجاة الناصر بحياته وجزء من سلطانه.. أكمل يزن عرضه:

- ستقيم في جناحك الملكي، وسأظل أنا في غرفتي المحرمة.. كما أنني سأنسب اكتشافي للسلاح الجديد لك.

سأل الناصر في لهفة:

- هل انتهيت من المسحوق الحارق؟

قال يزن بهدوء:

- منذ يومين.. سيمجدك الناس على هذا السلاح، الذي سيكسبنا المهابة السياسية وسط الممالك المجاورة.

صمت الناصر مستمعًا لعرض يزن الذي قال:

- أعلم أنك لا تهتم كثيرًا لأمر نادين، هل تمانع أن تتخلى عنها لأجلي؟

فهم الناصر أين اختفت نادين خلال الأيام الماضية، كانت في الغرفة المحرمة مع أخيه، لم يرد، ظل يتأمل أخاه وهو يكظم غيظه، لم يترك يزن له أية خيارات أخرى.

نهض الناصر وصافح أخاه باقتضاب:

- موافق، مبارك عليك الحكم يا يزن.

قال ياسين مستنكرًا:

- وماذا عني؟ يزن يحكم والناصر يقود الجيش؟ هل سأعود تابعًا!

قال يزن في مكر:

- أنا لم أحضر اتفاقك مع سليمان الراشد، لكن يمكنني تخمين ما قلته لقائدنا حتى ينفذ خطتك، بالتأكيد أخبرته بأن كل عمل من أجل المملكة يستوجب التضحية، حتى وإن كنا نحن التضحية.

صمت ياسين، فقد خمّن يزن الحقيقة بسهولة، أكمل يزن حديثه للناصر، وهو يداعب خصلات شعره التي خالطها الشيب:

- العوام يريدون القصاص لقتلى معركة التابعين.. يريدون متهمًا مسؤولًا عما حدث.. وهل يوجد أنسب من المستشار الذي استغل خدعة الملك وحاول التخلص من الأمير أنسي؟!

نظر ياسين للناصر محذرًا من الموافقة على التخلص منه.. لكن الناصر نادى في حراسه خارج الغرفة المحرمة وقال:

- رافقوا المستشار السابق لسجن المملكة.. وانشروا صباحًا نبأ إعدامه بعد نهاية النزال.

٣٢- فناء المخلدين

«سيظل هذا اليوم مخلدًا مثلكم، أعلن أنا الملك الناصر بن الفريد بن الموحد، تنازلي عن الحكم لأخي الأكبر: الملك يزن.. يزن الذي أخفيت سر حياته عنكم، وهو الأحق بالعرش.. فمن أنا لأعادي ابن عمومتي على منصب أو حكم؟ علامَ عهدتهم مني؟ أنا الناصر الذي أقصيت مستشاري حين تخاذل في حماية الأمير أنسي، وتركه يذهب للتابعين أثناء الحرب، وحكمت عليه بالإعدام!».

شعرت نادين بانقباض في قلبها، وهي جالسة في مقصورة المشاهدة، ترى الناصر وهو يتنصل من زواجه منها، ويعلن خيانته بياسين علنًا، ويعطي كل شيء في يد يزن الأقرب لها في هذا العالم.. والوحيد الذي بث فيها شعور الأمان.. لكنها لم تتمنَ الموت لياسين أبدًا.

أملت في أن يستمع يزن لها حين ينتصر على أنسي ويتولى الحكم، وأن يعفو عنه ويكتفي بحبسه، أو إعادته للتابعين أو حتى نفيه من قطاع الحكم.. حاولت تشتيت ذهنها عن فكرة رحيل ياسين للأبد، حتى وإن صارت تكرهه لما صار عليه، ولخطبته ابنة ملك الرمليين دون علمها.. ولكن من في هذا العالم لم يتغير، حتى ياقوت الذي ظنت أنه قد مات يجلس في المقصورة وسط زهاده يتابع القتال!

لمحت نادين كذلك شبح خيري زاهر، الذي غمز لها بعينه، وهو يجلس بجوار جعفر بن غالية، لم تعرف إلى أي مكانة قد بلغ، ولكن يبدو أنه قد اكتسب حيثية هو الآخر لجلوسه في المقصورة وسط ممثلي القطاعات وأمراء الحاشية.. استعادت تخمين ياسين حول مصير كل منهم في هذا العالم، وأن جميعهم سيسبقون المخلدين لما لديهم من معرفة، تهكمت عليه في سرها.. لأن ياسين هو الوحيد من بينهم الذي فشل في خداع المخلدين.

دخل أنسي من جهة، وقد صاحب دخوله هتاف من العوام المتجمعين حول حلبة القتال البيضاوية.. ومن الجهة الأخرى دخل يزن دون تأييد يذكر، كانا متقاربين سنًا وبنيانًا، فكلاهما تجاوز الأربعين عامًا، وكلاهما وسيم الشكل مفتول العضلات، ولكن يزن لم يقاتل طيلة حياته على عكس أنسي الذي عاصر الكثير من معارك المملكة وحروبها، وقد أكسبته الحياة في القصر ومخالطة الحاشية مكرًا ودهاءً انعكس على شخصيته وعلى طريقة مطالبته بالحكم، على عكس يزن الذي استمد خبرته كلها من الكتب، ومما كان ينقله الناصر له من أخبار.

قال الناصر بصوت عالٍ، وهو يخلع تاجه ويضعه على طاولة صغيرة في منتصف الساحة:

- لمدة دقائق من الآن سيصبح المخلدون بلا ملك ولا حاكم، حتى ينتصر أحد الأميرين على الآخر ويتوج به على جثة الآخر.. ليس لأحدٍ رغبة في صرع الآخر، لكن حتمت الظروف، ليكونا من الكاملين.

ردد الجميع خلف الناصر جملته الأخيرة.. انسحب الناصر تاركًا أنسي فوق حصانه، ويزن فوق الحصان الملكي، وفور إغلاق الساحة

خلف الناصر تحرك كلٌ من يزن وأنسي تجاه بعضهما البعض، كلٌ منهما شاهر سيفه في وجه الآخر، ناظر في عينيه عازم على الظفر بحكم مملكة المخلدين مهما كان الثمن.

تقابلت السيوف اللامعة تحت أشعة الشمس ليحدث التصادم صوت صليل أخرس الجميع، كان ياسين في محبسه بقبو القصر الملكي يسمع الأصوات من بعيد، ليخمن ما يحدث، يسمع الآهات المؤيدة لأنسي الذي حاز رضا العرام، فيخمن أن لأنسي اليد العليا.. ثم يسمع أصوات فزعة فيتأكد أن يزن قد حسن من موقفه.

راقب الناصر انفعالات نادين التي ظهر ولاؤها الكامل ليزن، فتأكدت ظنونه، مال على أذنها وقال:

- ألا تستطيعين إخفاء حماسك تجاه عشيقك!

نظرت له نادين في غضب، وهمست قائلة:

- ألا يستطيع قائد الجيش إظهار احترام أكثر للملكة!

- لا تزالين زوجتي!

أشارت نحو التاج المثبت في منتصف ساحة القتال وقالت:

- سأظل زوجتك نفس الفترة التي ستظلها المملكة بلا ملك.. مجرد دقائق!

لم تدر نادين من أين أتت بهذه الثقة، خاصةً أن يزن قد بدأ يتعب تحت وطأة ضربات أنسي، الذي استمد حماسًا فوق حماسه من هتاف الناس.. في حين اكتفى يزن بصد ضربات ابن عمه وخصيمه في الحكم.

كانت مهارة أنسي في التحكم بفرسه تعطيه الأفضلية، فكأنما الفرس جزء من جسده، يدور به حول يزن، ينحني معه ويقفز بضربة بسيطة من

ساق أنسي.. استغل يزن انشغال أنسي بصد ضربة منه، فراوغه وضرب الفرس في قدمه.. هاج العوام لتصرف يزن غير الأخلاقي.. لكن يزن لم يكن لديه مفر من هذا.. نزف الحصان، وقد زاغ بصره وبدأ يتهاوى على الأرض، فتخلى عنه أنسي ووقف راجلًا أمام خصمه.. هتف العوام في يزن حتى يترجل هو الآخر عن حصانه، ففعل هذه المرة.

صاح الناصر بصوت عالٍ:

- أحمق، لن تهزم أنسي راجلًا!

تصارعت السيوف من جديد، لكن هذه المرة أظهر يزن قوته الحقيقية في النزال، أدركت حينها نادين فائدة هذه العضلات التي طالما تأملتها، لم يكن يزن قويًا فقط مثل أنسي، بل كان مرنًا كذلك، فقد كان يتدحرج أرضًا حول أنسي بسرعة من كل جانب، وكأنه يتدرب على هذه اللحظة منذ زمن، تفاجأ أنسي الذي اعتقد أن الأمر محسوم له برشاقة يزن التي لا تناسب شيب شعره ولا عضلاته المفتولة.. كان يتقافز حول أنسي بخطوات محسوبة أبهرت العوام.. تمكن يزن من القتال راجلًا لدرجة أنه تخلى عن سيفه لثوانٍ معدودات في مقابل تسديد ضربة بيده العارية أو بقدمه لأنسي.

حاول أنسي استعادة تركيزه مرة أخرى، وقد سمع صوت صراخ زوجته دانية.. فنجح في جرح ذراع يزن أثناء واحدة من حركاته البهلوانية، ثبط حماس يزن بعض الشيء، حاول إمساك السيف بعد جرح ذراعه لكن ثقل عليه الحسام.. اقترب أنسي شاهرًا سيفه البراق، قاصدًا عنق يزن المكشوف تمامًا أمامه.

سمع ياسين من محبسه صوت صراخ حزين من العوام، تلاه صيحات فرحة وانتصار، لم يعرف من انتصر على من.. انتظر دقائق حتى سمع صوت خطوات السجّان، وقد كبَّل ياسين بقيود حديدية وقال له باحترام:

سيدي المستشار.. الملك الجديد يريدك في الساحة:

- زاغ بصر ياسين، أدرك أن لحظته قد أتت لا محالة، شعر بقلبه يدق بعنف، كأنما يحاول مغادرة هذا الجسد المحكوم عليه بالإعدام.. استوعب السجان حالة ياسين، وبدأ يسنده في الحركة، ويوجهه في خطوات ثقيلة متباطئة عبر مخرج القبو، تحرك ياسين كأن في قدميه أطنانًا من الرمل.

تقدم ياسين نحو الساحة ببطء، سمع صوت صيحات الاستهجان من العوام، وهم يطالبون بقتله وإعدامه.. رفع رأسه ليعرف من نجا من صراع الأميرين.. فوجد، كليهما، حيًا واقفًا أمامه.

عرف ياسين فيما بعد أن يزن تظاهر بالإعياء وتأثر بإصابة ساعده زيفًا، حتى يتقدم أنسي دون حذر، ففاجأه يزن وراوغه مراوغة أخيرة، وضربه على رأسه ضربة أفقدته التوازن لثوانٍ كانت كفيلة بتجريده من سلاحه، دفع يزن سيف أنسي بعيدًا بقدمه، ورفع نصله البتار على رقبة أنسي، حينها صرخ العوام في فزع.. ولكن يزن أدرك أنه سيفوز بالحكم ويكسب غضب العامة، ويعيد خطأ أخيه الناصر.. فرفع السيف عن عنق أنسي وألقاه بعيدًا.

خطب يزن في الناس أنه لن يقتل لأجل حكم، وقرر تعيين أنسي في المنصب الذي اقترحه ياسين من قبل «حكيم الناس».. وهو حلقة الوصل بين العامة وقصر الحكم، وكذلك المسؤول عن الفصل في أمور العوام.. وله نفس صلاحيات الأمراء.. فهلل العوام ليزن الذي احتضن أنسي.

أدرك جميع أمراء الحاشية، بمن فيهم الناصر، أن هذا القرار سياسي لامتصاص غضب الناس.. أمسك يزن بالتاج بين يديه وقال وهو يرفع ذراعه التي تقطر دمًا:

- وحق دماء الموحد التي تسري في جسدي، ودماء الراشد وغيره ممن ضحوا لأجل المملكة.. لن يُذَل منكم ضعيف مرةً أخرى.. لن تجمع الضريبة منكم، بل من الأمراء.. أنفسهم.

لاقت هذه العبارة صيحات تأييد صريح من العوام.. وتصفيقًا مزيفًا من الحاشية الذين شعروا بالفزع لما سيلم بهم من خسارة لثرواتهم وتجارتهم.

صعد يزن للمقصورة ليجلس بجوار نادين، التي أعلن خطبته عليها، كما أعلن إعادة انعقاد المجلس التوحيدي بشكل شهري، ونصب أخاه الناصر قائدًا للجيش بشكلٍ رسمي.. لم يكن هناك خاسر من انتصار يزن سوى ياسين الهواري، الذي سيقَ نحو منتصف الساحة، مكبلًا من يديه وقدميه، وقد عدد يزن جرائمه أمام العامة، وجعله مسؤولًا عن مساوئ معركة التابعين.. حاولت نادين أن تشفع لياسين هامسةً في أذن يزن، لكن يزن أخرسها بحركة واحدة من إصبعه، وهددها ببصره أن ترقد إلى جواره إن نطقت بحرفٍ آخر.

ثبت الجلاد رأس ياسين على ما يشبه المقصلة، فهتف العوام مؤيدين قرار إعدام هذا الغريب، الذي نشر الفتنة في المملكة، لكن ياقوت نهض من مكانه بالمقصورة متوجهًا نحو المقصلة، نظر بجانب عينه لخيري الذي تابع ما يحدث بدم بارد.. صاح ياقوت:

- المستشار سيسجن مدى الحياة، لن يعدم أحد من المخلدين مرةً أخرى.

نظر يزن له مستهجنًا اعتراضه على قرار ملكي.. لكن ياقوت خاطب العوام دون يزن ولا حاشيته:

- المستشار فعل ما فعل بحسن نية، ليزود عنكم ضد أي متمرد، لن يكون جزاءه الإعدام.

رفع ياقوت صوته المتحشرج بحكم سنه الطاعنة، وخطب في العوام المستهجنين بغضب:

- هذا شرطي الوحيد لاستقبال جثامين المخلدين في مقابر الزهاد!

نهض الملك يزن من جوار نادين، مداعبًا التاج بأصابعه، وقال:

- هذا قرار ملكي، لا جدال فيه.

أشار ياقوت نحو الجندي «جيرة» المكلف بحراسته، كان واقفًا بالقرب من الأمير يزن، مال «جيرة» على يزن، وسلمه رسالة بخط يد ياقوت مكتوب فيها «هذا ليس أمري، وإنما شأن «الحارس» الكامن ببيت الأسلاف، وإن كنت لا تعرف «الحارس» فأنصحك ألا تعاديه».

أشار يزن إشارة صامتة لجلاده أن يفك قيد ياسين ويعيده للسجن مرة أخرى، وقد أصدر مرسومًا ملكيًا بتعديل الحكم من الإعدام للسجن الانفرادي طوال العمر.

أشار ياقوت للجلاد أنه يريد التحدث مع ياسين منفردًا، أمسك بكتفيه واقترب منه، كان شبه غائب عن الوعي، وقد بال في بنطاله الكتاني الرث.. لكن رائحة فم ياقوت المعبأة بالأعشاب أفاقته على عبارة:

- بركة مات، وأنا اتلعنت.. مبسوط يا هندسة؟

همس ياسين بحروف مبهمة:

- سامحني يا عم ياقوت.

رد ياقوت بغضب:

- اللي بيسامح فوق، بس أنا عمري ما هنسى.

أكمل حديثه وهو يبتعد عن ياسين الذي جره الجلاد نحو السجن:

- كان ليك عندي واحدة يا هندسة.. دلوقتي خدتها.

اقترح جعفر بن غالية عقد مجلس توحيدي، لكن الملك يزن تحجج بتعبه، وطلب جعفر على انفراد، استأذن ياقوت للرحيل فتركه يزن ساخطًا عليه، بعد أن أفسد عليه الاحتفال.. فيما طلبت نادين زيارة ياسين للسجن مرةً أخيرة، فسمح لها يزن بشرط ألا تزيد الزيارة على بضع دقائق، وأن تبقى تحت نظر السجان.

تعجب جعفر من إصرار الملك يزن على لقائه، وزاد تعجبه حين طلب يزن لقاء خيري كذلك.. جلسا أمام يزن في قاعة الحكم، وقال مستهلًا كلامه:

- ستكون أنت مستشاري الجديد يا جعفر.. وولي العهد حتى أنجب.

سأل خيري بأدب:

- وما سبب حضوري أيها الملك؟

رد يزن:

- أعرف أنك من رفعت مكانة جعفر بعد تدنيها، وأنك المسؤول عن تدبير حادثة الزنى بين عامرة وراتب وطردهما من قطاع النواقص بفضيحة.. عقليتك تشبه مستشار الناصر القديم، وهذا ما أبحث عنه.

صمت جعفر، فنظر له يزن ضاحكًا وقال:

- أعرف ما يجول بخاطرك.. تريد أن تعود أمك غالية لكنفك، وأنا موافق.. فلا مبهجات بعد اليوم، ولا غرفة محرمة.

ابتسم جعفر ممتنًا للملك، شعر بفضله وكرمه، أما ابتسامة خيري فكانت بشارة بمرحلة قادمة يتسع فيها نفوذه.. قال يزن وهو يجلس على العرش:

- أتعلم الفارق الزمني بيني وبينك يا جعفر؟

داعب جعفر ضفائر شعر وأقراط وجنته وقال:

- عشرة أعوام مثلًا؟

- خمسة عشر عامًا بالضبط.. أذكرها كما لو كانت بالأمس.

أومأ جعفر برأسه في عدم فهم، فعاود يزن السؤال:

- أتعلم كم لبثت في الغرفة المحرمة؟

رد خيري هذه المرة:

- سمعت أن نبأ وفاة سموك المزعوم يعود لأكثر من عشرين عامًا.

رد يزن مصححًا:

- ثمانية وعشرون.. قل لي يا جعفر، ألا يذكرك هذا الرقم بشيء؟

لم يفهم جعفر تلميح يزن، فقال يزن ضاحكًا:

- أنت السبب في حبسي داخل الغرفة المحرمة، فأنت لست جعفر بن غالية وحدها، بل أنت جعفر بن يزن بن الفريد بن الموحد.. أول وأكبر الأحفاد من نسل الموحد.

كانت الصدمة أكبر من جعفر وخيري، ظنا أنه يخادعهما، فأردف يزن قائلًا:

- كانت أمك قاربت على الثلاثين، وكنت أنا أميرًا مراهقًا مفترًا في ذكورته المبكرة.. تسللت يومًا من القصر طالبًا لقاءها، هزأت مني وسخرت.. كانت وقتها حاكمة لقطاع النواقص، هددتني أن تبلغ أبي الفريد.. لكن فور أن التقينا سرًا تبدل كل شيء.. وأدركت أنني لا أشبه النمط الذي تعرفه من المراهقين.. التقينا لأكثر من ليلة حتى حملتك!

شعر جعفر بالعرق يتصبب فوق جبينه وبأطرافه ترتجف، أما خيري فقد تحمس لسماع المزيد، فقال يزن بأسى:

- بلغ الخبر الملك الفريد، كان معروف عن أمك أنها تعاشر معظم أمراء الحاشية.. فرفض زواجي منها، وحكم عليك أن تصير ابنًا بلا أب، وأن أصير ملكًا بلا عرش.. جعلني أقسم له ولأمي أن أبقى في الغرفة المحرمة ما حييت، ولم أحنث القسم إلا حين ماتت أمي وضعفت شوكة الناصر.

رد جعفر مستنكرًا:

- ألم يكن بمقدورك الاعتراض؟

رد يزن:

- الملك الفريد كاد يقتلني إن اعترضت، فمن يمتنع عن رؤية ابنه حتى مماته لن يتردد في قتله.. هو أبقاني لأجل أمي ومرضها، ليس أكثر ولا أقل.. كل ما يهدد عرش أبي مُهدَد.. كما أنه ساومني على حياتك وولايتك أميرًا للنواقص حين تكبر.. فقبلت.

فلتت دمعة وحيدة من عين جعفر، لم يجد ردًا مناسبًا لما يقوله الملك يزن الذي اقترب منه وعانقه طويلًا، دون أن يبوح أحدهما بحرف..

قاطع خيري السكون متسائلًا:

- ولماذا طلبت وجودي.

قال يزن كأنما تذكر شيئًا وقال:

- أولًا أريدك أن تشهد على أبوتي لجعفر، فإن متُ قبل أن أنجب من الملكة الجديدة فهو أولى بالحكم، وإن أنجبت سيكون مستشارًا لأخيه.

أومأ جعفر برأسه.. وأردف يزن هامسًا لخيري:

- أشعر بأن صلةً ما تربطك بالمستشار السابق للناصر..

هم خيري أن يرد، لكن يزن قاطعه قائلًا:

- لستُ مهتمًا.. أريدك أن تعود إلى القطاع بعد شهرين من الآن متسللًا، سأرسم لك خريطة للقبو الملكي وللزنزانة التي يقطنها ياسين..

بدا على خيري عدم الفهم، فقال يزن:

- حينها ستقنعه أنك أتيت لتهريبه، وحين يتحرك برفقتك، ستقتله!

بدا على خيري الحيرة، والتفكير في عرض الملك.. ظهر أمام ناظريه كل ما مر به مع ياسين، كيف تعرفا ومتى توطدت صداقتهما، تذكر علاقته بنادين، ومساعدة ياسين له في الدراسة.. وهذه الرحلة الغريبة التي سيقَ إليها بسبب هوس ياسين.

أشار يزن برأسه نحو كيس ضخم من العملات الفضية ملقى بركنٍ من قاعة الحكم، لم يكن لدى خيري بدٌّ سوى الترحيب بهذا العرض.

تحرك ياقوت من قطاع الحكم قاصدًا قطاع الزهاد، كان مكتفيًا بـ«جيرة» و«آي» ليحرسانه، وقد كلف آي بمهمة التوجه لمملكة الرمليين لإبلاغ حاكمها أن خطيب ابنته مسجون في القطاع ظلمًا.. كان هذا آخر ما سيفعله مع ياسين الهواري الذي جلب عليه وعلى ولده الوبال.

غربت الشمس على رأس ياقوت وجندييه، فأمر ياقوت الترحال، أخرج بعض الثمرات ليتناولها.. خلع خفيه وفرد ظهره على الأرض، وغرق في سبات عميق فور أن استلقى على الرمال، وحينها رأى رؤيا واضحة.

شاهد الزهاد يستقبلونه استقبالًا حافلًا وقد أتموا بناء السور.. يقدمون له كوبًا فخاريًا من الماء المثلج، يبدو عليه العطش الشديد، وقد أعجب بمنظر المياه، يلمح على سطح المياه انعكاس وجهه، ليدرك أن هذا ليس انعكاسه وإنما الحارس تجسد له ليقول: الزهاد يشككون في كونك مبعوث الأسلاف ويريدون اختبارك.

شرب ياقوت رشفة من الماء تروي ظمأه، وحين هم بالشرب مجددًا ظهر له الحارس ليردف:

- الماء مسموم، وقدرك أن تشربه!

أفاق ياقوت من سباته فزعًا، طلب من جندييه بعض الماء، انعزل عنهما وظل ناظرًا لانعكاسه في الماء، انتظر قليلًا حتى ظهر له الحارس ضاحكًا:

- يبدو أن الرؤيا قد وصلتك.. لا أعرف كيف سيكون شكلي بعد مماتك.

رد ياقوت بحزم:

- لن أشرب الماء منهم.

قال الحارس مهددًا:

- أخبرتك ألا تغير القدر!

قال ياقوت في فزع:

- لن أشرب لأموت!

- إذًا فلتأتني القصر.

- أريد أن أعرف سر الأسلاف.

- يبدو أن وجودنا في نفس الحياة صار مستحيلًا.

- ماذا تقصد أيها الحارس؟.. أنا رجلك المنتظر.

- لست رجلي ولست منتظرًا.. وسر الأسلاف ثمنه حياتي.

- لكنك لست ملموسًا.

- لكنني حي!

قال ياقوت بحزم:

- لم يعد لدي ما أخشى عليه، سددت ديني، ومات ولدي.

قال الحارس بلهجة حانية:

- اشرب الماء حين تصل، لا تفسد الرؤيا، ولا تغضب الأسلاف.

أمسك ياقوت الماء الذي يحمل انعكاس «الحارس» وألقاه بعيدًا، اختفى صدى ضحكات الحارس بالتدريج.. كان لغز الحارس يؤرق نوم ياقوت ليلةً تلو الأخرى، فهو لم يدرك بعد إن كان بشرًا أم واحدًا من الجان، أم أنه حقًا من الأسلاف، أم أنه مجرد تجسيد لشيطان موجود، أم هو مجرد هلوسة في عقل ياقوت.. لكنه عزم على إفساد الرؤيا ودخول القصر، وإما هو أو «الحارس» في هذه الحياة!

xxx

ناولت نادين السجان قطعة من الحلي وقالت:

- تفضل حليًا ملكيًا.. هادِ زوجتك.

أومأ السجان برأسه في ود واضح، وقد فهم معنى الهدية، فابتعد خطوات كبيرة تسمح له برؤية نادين وهي واقفة أمام قضبان الزنزانة دون أن يسمع الحديث الدائر:

- أكنت تعتقد أنك أذكى منهم؟

نظر لها ياسين في وهن، اقترب منها زاحفًا، لفقده القدرة على التحكم في أطرافه منذ لحظة المقصلة:

- أنا أعرف أكثر.. أنا عالم!

- لكنك لم تقتل، لم تحكم من قبل، لم تتحكم في نفوس الفقراء.. لقد تعاملت بثقافتك المكتسبة التي لا تلائم هذا العصر، وتعاملوا هم بدهائهم!

أشار ياسين نحو خصر نادين متهكمًا:

- وبمَ تعاملتِ أنتِ؟

قالت نادين هامسةً:

- معي كل الخرائط للقصر، أحفظ طريقة للخروج من هذا السجن، ولكن أجبني عن سؤال..

اقترب ياسين من القضبان، فأمسكته نادين من لياقته وقالت:

- هل كنت تنوي الهروب معي؟ أم كنت تنوي إخفائي عن الناصر ويزن!

لم يرد ياسين فأدركت صحة كلام يزن بخصوص طمع ياسين في منصب المستشار وفي علاقته بها سرًا.. عاودت سؤاله:

- هل كنت تعرف أن خيري يحاول العودة لي أثناء وجودي معك؟

أومأ ياسين برأسه إيجابًا، شعرت نادين باحتقار شديد لياسين، تركت ملابسه ودفعته بعيدًا ليسقط في وهن وسط الزنزانة، وقالت:

- أنت لست رجلًا!

قال ياسين بهدوء:

- حكيم المكتبة دلني قبل وفاته على مكان نسخة الأثر الكاملة.. ساعديني لنهرب ونعرف سر المخلدين وحقيقة الأسلاف التي حرقها الموحد.

- لا يهمني أيًا مما تقول.. لن أشاركك أي شيء!

قال ياسين مجددًا:

- خطبتي لأميرة الرمليين كان سيقربني من هذه الخطوة، أنا لم أحب سواكِ.

ردت نادين وهي تبكي:

- أنت لم تحب.. واجه حقيقتك يا هواري، أنت لم تجد الحب في أي مكان، فقررت ألا تعطيه! بصقت عليه نادين من خلال القضبان وهي تنظر له باحتقار:

- أنت مهووس بفكرة وهمية.

رد ياسين معترضًا:

- أنا على حق، جميعكم وجدتم أنفسكم في مملكة المحايدين، حتى خطأي جعل حياتكم أفضل.

قالت نادين وقد سالت دموعها:

- لم أطلب منك حياةً أفضل، لم أطلب سوى الاستقرار! وأنت سلبتني إياه.

نهض ياسين بصعوبة، لم يعبأ لحديث نادين وقال:

- لو هربنا سويًا من هنا، ثم عثرنا على النسخة الكاملة من الأثر سنحصل على سر الأسلاف، سنعرف أين نكون من التاريخ ومن العالم.. حينها سنحكم كل هذه الأرض.. تخيلي أن أصير أنا الملك وأنتِ زوجتي، أريد فرصة ثانية.. فقط فرصة!

قالت نادين متهكمة وهي تغادر القبو:

- للأسف تأخر عرضك كثيرًا.. فأنا الآن حامل من الملك يزن.. أنا الملكة، وأم ولي العهد!

غادرت نادين إمام، حين شاهدت تعابير وجه ياسين الهواري، محبوبها السابق الذي فعل الكثير دون أن ينال ما ناله يزن منها خلال بضع ليالٍ.. كانت هذه النظرة تكفيها عقابًا له.. بدأ ياسين يصرخ حتى

بح صوته، حاول أن يضرب رأسه في جدار الزنزانة من الحسرة والغضب، لكن السجان أحكم قيده.

وبعد ثلاث ليالٍ طوال على ياسين في محبسه، همد عقله الذي لم يتوقف يومًا.. أصبحَ العالم والمعيد «ياسين عادل الهواري» كالحيوان يأكل وينام في مملكة تبعد عنه تاريخيًا وجغرافيًا بمسافة لا يستطيع حتى تقديرها، فقد وعيه وإدراكه بكل ما يحدث، حدثت له لوثة عقلية.. كان أغلب اليوم في حالة من الهذيان، يفيق لدقائق يطلب فيها من السجان بعض الرقع الجلدية، ليدون كل ما حدث له بخطٍ رديء لم يفهمه السجان.

لم يشعر ياسين بمرور الأيام، كان يسلي نفسه بتذكر كل ما حدث له، يدون منه بعضًا وينسى بعضًا.. أصبح كالمجذوب الذي يطوف بين المجالس ليروي قصته التي لا يصدقها أحد.

كان ياسين الهواري على يقين أن حكايته مع مملكة المخلدين قد انتهت بحبسه، لكنه لم يدرك أن الأمر أكبر كثيرًا من كل تصوراته، فرحلته مع المخلدين قد بدأت لتوها.

تمت بحمد الله

أثر المخلدين

انسَ كُلّ ما رأيته مِن قَبل؛ فهذَا العَالم لَا أثر له في دفَاتر التَارِيخ..

هُنا مملكة تحكُمها قواعِد غرِيبة، سِحر أسْود ولعنة سَائِدة، مُعتقَدات خرِفة، أفكَار عتِيقة، انخِراط في الملذَاتِ دُون رَادع، مُؤامرَات تُحَاك في الظّلامِ، ثوْرة وتَمرد ضِدّ الحُكم، جرَائم قَتل بلَا فَاعِل مَعرُوف، أسرَار خَلف كُلّ بَاب، فإِن حاوَلت الاقترَاب وجَدت الهَلاك كامنًا.

وضُيوف هذَا العَالم أغرَاب خمْسَة، لَا يُدرِكون للعوْدةِ سبِيلًا، لَن ينجُو مِنهُم إلّا مَن يسْتحقّ؛ فالجمِيع في "مملكة المُخلّدين" أسْرى، والفنَاء مصِير حتمِيّ



www.booksjuice.com
contact@booksjuice.com
Book.juice1
books.juice
Books_juice